

مكتبة الاسكندرية

توني موريسون

العين الأكثر زرقة

رواية



ترجمة: فاضل السلطاني



0118951

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الاسكندرية

العين الأكثر زرقة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى - 1997

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب 34494

هـ: 7775872

صمم الغلاف : جمال سعيد

اخراج: هالة فطوم

لوحة الغلاف: للفنانة أسماء فيومي

توني موريسون

العين الأكثر زرقة

(نوبل ٩٣)

ترجمة: فاضل السلطاني

هنا البيت. أخضر وأبيض، له باب أخضر، بيت جميل جداً، هنا العائلة الأم، الأب، «ديك» و«جين» يعيشان في البيت الأخضر - الأبيض. إنهما سعيدان جداً. انظر إلى جين. إنها ترتدي ثوباً أحمر. تريد أن تلعب. من سيلعب مع «جين». انظر إلى القطة، إنها تظل تموء «مَوْ مَوْ» تعالي والعبي مع جين. القطة الصغيرة لن تلعب.

انظر إلى الأم. الأم لطيفة جداً. هل تلعبين يا أم مع جين؟ الأم تضحك. اضحكي يا أم، اضحكي. انظر إلى الأب. إنه ضخم وقوي. الأب يبتسم. ابتسم أيها الأب، ابتسم. انظر إلى الكلب. إنه يعوي «عَوْ عَوْ» هل تريد أن تلعب مع جين؟ انظر. الكلب يجري. أجر يا كلب أجر. يأتي صديقي. الصديق سيلعب مع جين. سيلعبان لعبة مسلية. العبي يا جين العبي.

هنا البيت أخضر وأبيض له باب أحمر إنه بيت جميل جداً هنا العائلة والأب ديك وجين يعيشون في البيت الأخضر والأبيض إنهم سعداء انظر إلى جين أنها ترتدي ثوباً أحمر إنها تريد أن تلعب من سيلعب مع جين انظر إلى القطة إنها تموء مَوْ مَوْ تعالي والعبي تعالي العبي مع جين القطة الصغيرة لن تلعب انظر إلى الأم الأم لطيفة جداً هل ستلعبين مع جين الأم تضحك اضحكي يا أم اضحكي انظر إلى الأب انه ضخم وقوي أيها الأب هل ستلعب مع جين الأب يبتسم ابتسم أيها الأب ابتسم انظر إلى الكلب عَوْ عَوْ يعوي الكلب هل تريد أن تلعب مع جين انظر إلى الكلب يجري. أجر يا كلب أجر. صديق يأتي سيلعب مع جين سيلعبان لعبة مسلية العبي يا جين العبي.

هنا البيت إنه أخضر وأبيض وله باب أحمر إنه بيت جميل جداً هنا العائلة الأم والأب ديك وجين يعيشون في البيت الأخضر والأبيض إنهم سعداء انظر إلى جين إنها ترتدي ثوباً أحمر إنها تريد أن تلعب من سيلعب مع جين انظر إلى القطة إنها تموء مَوْ مَوْ تعالي والعبي تعالي العبي مع جين

القطعة الصغيرة لن تلعب انظر إلى الأم الأم لطيفة جداً أيتها الأم هل ستلعبين مع جين الأم تضحك اضحكي أيتها الأم اضحكي انظر إلى الأب إنه ضخم وقوي الأب يبتسم ابتسم أيها الأب ابتسم انظر إلى الكلب إنه يعوي عَوْو هل تريد أن تلعب مع جين انظر الكلب يجري إجرأيها الكلب إجر يأتي صديق الصديق سيلعب مع جين سيلعبان لعبة لطيفة العبي يا جين العبي.

لم تنم أزهار القطيفة في خريف ١٩٤١. واعتقدنا، وقتها، أنها لم تنم لأن بيكولا كانت حبلى بطفل أبيها.

وبعد استقصاء، وبمشاعر أقل سوداوية، ثبت لنا أن بذورنا لم تكن البذور الوحيدة التي لم تنبت. لم تنبت بذور أحد. ولم تظهر أزهار القطيفة حتى في الحداثق المواجهة للبحيرة. لم يكن بوسعنا، بسبب انشغالنا العميق بصحة ولادة طفل بيكولا ولادة سليمة، أن نفكر بأي شيء آخر سوى باستخدام السحر. إذا غرسنا البذور، وقرأنا عليها الكلمات المناسبة، فإنها تزهو ويكون كل شيء على ما يرام.

مرّ وقت طويل قبل أن نعترف لأنفسنا، أختي وأنا، بأن لا نبت سيطلع من بذورنا. ولم يخفف من ذنبنا سوى الشجار والاتهامات المتبادلة حول على من يقع اللوم. اعتقدت لسنوات أن أختي كانت على صواب: لقد غرسنا البذور عميقاً في الأرض، ولم يخطر على بال أي منا أن الأرض نفسها قد لا تكون ملائمة. لقد أسقطنا بذورنا فوق تربة أرضنا الصغيرة السوداء، تماماً كما فعل والد بيكولا. لذي أسقط بذوره فوق تربة أرضه السوداء.

لم تأت براءتنا وإيماننا بثمار أكثر من ثمار شهوته أو يأسه. وما هو واضح الآن أنه لم يبق من كل ذلك الأمل، والخوف، والشهوة، والحب، والأسى، سوى بيكولا والأرض غير الطيبة. مات كولي بريدلوف وماتت براءتنا أيضاً.

ذبلت البذور وماتت، ومات طفلها أيضاً.

حقاً لم يعد هناك الشيء الكثير ليقال، ماعدا «لماذا». وما دام من الصعب الإمساك بـ «لماذا». فيجب على المرء أن يلتجئ إلى «كيف».

الخريف

تمرّ العجائز بنا هادئات كالشهوة، والسكرارى والعيون صاحبة تغني في ردهة الفندق اليوناني، وصديقنا الجار روزيمري فيلانوشي، الذي يعيش فوق مقهى أبيها، يجلس في «بويك ١٩٣٩» يأكل الخبز والزبدة، تطل برأسها من نافذة السيارة لتخبرني وتخبر أختي فريدا بأننا لا يمكننا الدخول. حددنا فيها راغبتين في خبزها، وأكثر من ذلك راغبتين في انتزاع تلك الغطسة من عينيها، وتحطيم كبرياء التملك التي تجعد فمها الذي يلوك الآن لقمته. عندما تخرج من السيارة سنضربها ونترك ندوباً حمراء فوق جلدها الأبيض. ستبكي وتقول لنا هل نريد منها أن تنزع سروالها الداخلي. سنقول لها: لا. نعرف بماذا سنشعر أو ماذا نفعل إذا فعلت ذلك، ولكننا نعرف، عندما تسألنا بأنها تقدم لنا شيئاً نفيساً، وإننا نرضي كبرياءنا برفضنا طلبها.

بدأت المدرسة وحصلنا، فريدا وأنا، على جوارب جديدة، وعلى زيت سمك. كان الكبار يتحدثون بأصوات متعبة منفصلة عن شركة الفحم «زيك»، ويأخذوننا في المساء إلى خطوط السكك الحديدية حيث نملأ أكياس الخيش بقطع الفحم الصغيرة المتناثرة هناك، وبعد ذلك نعود إلى البيت ملقين نظرات سريعة على الشاحنات وهي تُفرغ حمولتها من أكياس الفحم المدخن في الوادي الصغير عند حافة طاحونة الغولاذ. كانت النار التي توشك على الانطفاء تضيء السماء بوهج يرتقالي باهت. وكنا، فريدا وأنا، نتخلف عنهم لنحدّق في رقعة الضوء المحاطة بالسواد. كان من المستحيل

ألاّ نشعر برعشة عندما تغادر أقدامنا الطريق المفروشة بالحصباء ونغوص في
عشب الحقل الساكن.

بيتنا قديم، بارد، وأخضر. في الليل يُضئ مصباح الكيروسين غرفة
كبيرة واحدة، ويلف الظلام الغرف الأخرى المسكونة بالصرابير والفئران.
الكبار لا يتحدثون إلينا - إنهم يعطوننا توجيهات فقط. يصدرون الأوامر
دون تقديم توضيحات. عندما نتعثر ونسقط يلقون نظرة عجلية علينا،
وعندما نجرح أو نخدش أنفسنا يسألوننا عما إذا كنا مجانين، وعندما
نصاب بالزكام يهزون رؤوسهم مشمئزّين من عدم مراعاتنا لمشاعرهم.

يسألوننا: كيف تتوقعون منا أن نفعل أي شيء وأنتم كلكم مرضى؟ لا
نستطيع أن نجيبهم. يتعاملون مع أمراضنا باحتقار. بلدوا عقولنا بالنقوع
وزيت الخروع.

سعلت مرة، بصوت عال، سعالاً صادراً من قصباتي الهوائية مختلطاً
بالبلغم، فقطبت أُمي جبينها وهي تقول: «يا يسوع العظيم! اذهبي للفراش.
كم أخبرتك يا حمقاء أن تضعي شيئاً فوق رأسك؟ لا توجد في كل المدينة
فتاة بلهاء مثلك. فريدا اجلبي بعض الخرق، وأغلقي بها الشباك».

تغلق فريدا الشباك بالخرق، وأذهب أنا متعبة إلى الفراش. يملأني
شعور بالذنب والشفقة على النفس. اضطجع بثيابي الداخلية، وأحسّ بآلم
في ساقيّ بسبب المعدن في رباط الجورب، ولكنني لا أستطيع نزعه فالفراش
بارد جداً دون جوارب. يمر وقت طويل قبل أن يدفئ جسدي موضعي في
السرير. بعد أن يتورّد هذا الدفء، لا أجزؤ أن أتحرك في أي اتجاه، فكل
إنش من السرير بارد.

لا أحد يتحدث معي أو يسألني عن حالي. تأتي أُمي بعد ساعة أو
ساعتين. يداها كبيرتان وخشنتان، ثم تبدأ بفرك صدري بمرهم «فيكس»،
فأصلّب من الألم. تملأ أصبعين منه ثم تدلك صدري حتى أصاب
بالغثيان. وفي اللحظة التي أشعر فيها أنني على وشك الصراخ، تغرف قليلاً
من المرهم بسبابتها وتضعه في فمي وتأمّرني أن أبلعه.

فانيلة ساخنة تلف رقبتني وصدري. لحافٌ ثقيلٌ يغطيني، ويأمرني أن أتعرّق، وهذا ما أفعله على الفور.

فيما بعد اتقياً وتقول أُمي: «لماذا تقيأت على ملابس النوم؟ ألا تملكين عقلاً فتمدي رأسك خارج الفراش؟ انظري الآن ماذا فعلت هل تعتقدين أن لا شغل عندي سوى غسل قذارتك؟

يسيل القيء من المخدة إلى الشرشف — أخضر — رمادياً مع نقاط برتقالية. أنه يتحرك مثل محتوى بيضة غير مسلوقة، يتمسك بقشرته ويرفض بعناد مغادرتها. وتعجبت، على أية حال، كيف يكون صافياً جداً وقدراً في الوقت نفسه؟

صوت أُمي يثُر. أنها لا تتحدث معي، بل مع القيء، وتسميه باسمي: كلوديا. تمسحه بأقصى ماتستطيع، ثم تضع منشفة مزركشة على الموضع الرطب الواسع. أتمدّد ثانية. تنزاح الستائر عن النوافذ، والهواء بارد. لا أجزؤ على مناداة أُمي، وأكره أن أغادر الدفء. يجعلني غضب أُمي أشعر بالحزن، وكلماتها تقرّح خدي فأكبي. لم أدرك أنها ليست غاضبة عليّ. بل على مرضي. أعتقد أنها تحتقر ضعفي لأنني سحبت للمرض أن «يستولي» عليّ. لن أمرض بعد الآن. سأرفض ذلك، ولكنني الآن أبكي. ويسيل مني مخاط كثير، ولكنني لا أستطيع إيقاف ذلك.

تأتي أختي. عيناها مليئتان بالحزن. أنها تغني لي: «عندما يتدلى الأرجواني الغامق على سور الحديقة النائمة.. شخص ماسيفكر بي».

يغلبني النعاس وأنا أفكر بالأرجواني المزرق، والجدران، و«شخص ما».

ولكن هل كان الأمر هكذا حقاً؟ مؤلماً لهذه الدرجة كما أتذكر؟

كان معتدلاً، أو بالأحرى منتجاً ومثمراً. الحب — كثيفاً وقائماً مثل شراب ألاجاء، يرتاح في تلك النافذة المتصدعة. أستطيع أن أشمه — أتذوقه عذبا، عفناً، وفي تركيبة تلك الشجيرة البيضاء الزهر حمراء الثمر^(١) على

^(١) هي شجرة تبت في شمال أمريكا، تكون أزهار بيضاء وثمارها حمراء.

قاعدتها - كانت في كل مكان في ذلك البيت التصقت، سوية مع لساني، بألواح النافذة الزجاجية المغطاة بالبخار المتجمد. غطت، مع المرهم، صدري، وعندما انحلت أزرار الفانيلة وأنا نائمة، ضربت منعطفات الهواء الحادة حنجرتي. وفي الليل، عندما أصبح سعالى جافاً وقوياً، دخلت الغرفة أقدم بخطى خافتة. زررت أيدى الفانيلة، وعدلت اللحاف، ثم استقرت، للحظة، على جبينى. ولذلك فأننى عندما أفكر بالخريف، أفكر بشخص ذي يدين لا يريدني أن أموت.

كان خريفاً أيضاً عندما أتى السيد هنري. المستأجرا المستأجرا! طارت الكلمات من الشفاه، ورفرفت فوق رؤوسنا. كان صامتاً، منعزلاً. غامضاً غموضاً محبباً. اقتنعت أُمى به وارتاحت لمجيئه.

قالت لأصدقائها: «أنتم تعرفونه: هنري واشنطن كان يعيش هنا مع الآنسة ديلا جونز في شارع ١٣. ولكنها أُصيببت باضطراب عقلي، ولم يستطع الاستمرار معها. وهو يبحث الآن عن مكان آخر».

وقالت صديقاتها وهن لا يخفين فضولهن: «أوه، نعم».

- «كنت أتساءل دائماً حتى متى يستطيع أن يبقى معها. يقولون أنها سيئة فعلاً».

- «حسناً، ذلك الزنجي العجوز المخبول الذي تزوجته قد خبلها».

- «هل تعرفون ماذا قال لأصحابه عندما تركها؟».

- «أوه، أوه، ماذا؟».

- «لقد هرب مع تلك التافهة «بيجي» من إليريا».

- «واحدة من فتيات العجوز «سلاك بيبي»؟».

- «أنها هي. سأله أحدهم لماذا ترك امرأة طيبة ورعة مثل ديلا من أجل تلك البقرة. فأجاب أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو أنه لم يعد يتحمل الماء البنفسجي الذي تستخدمه ديلا، وكانت ديلا، كما تعرفون، تحافظ دائماً على نظافة بيتها. وأضاف أنه أراد امرأة تفوح منها رائحة امرأة، وأن «ديلا» كانت نظيفة أكثر مما ينبغي بالنسبة له.

- «الكلب العجوز: كم مقزّر ذلك!».

- «أيّ عذر هذا!».

- «ليس عذراً. بعض الرجال مجرد كلاب».

- «هل ذلك ما سبّب لها الصدمة؟».

- «قد يكون ساعد على ذلك. ولكن كما تعرفين لم تكن أية فتاة منهن فطنة هل تذكرين تلك المرأة ذات التكشيرة «هاتي»؟» لم تكن أبداً بحال سليمة، وكذلك «انتي جوليا» التي ماتزال تهرول في الشارع ١٦ ذهاباً وإياباً وهي تتحدث مع نفسها».

- «ألم يأخذوها إلى مستشفى الأمراض العصبية؟».

- «لا، لم تأخذها البلدية. يقولون أنها لم تؤذ أي شخص».

- «حسناً، إنها تؤذي. هل أنتن بحاجة إلى شخص يحوّل حياتكن إلى جحيم؟ عليكن إذن الاستيقاظ في الخامسة والنصف صباحاً، مثلاً أفعل، ورؤية تلك العجوز الشمطاء تهيم على مقربة منكّن بقلنسوتها. يارحمة الله».

وضحكن.

نغسل فريدا وأنا مرطبانات «ميسون». لا نسمع كلماتهن. كنا نصغي في حضرة الكبار وننتبه إلى أصواتهم .

- «آمل ألا يدعني أحد أهيم هكذا عندما أصبح عجوزاً خرفّة».

- «ماذا سيفعلون بـ«ديلا»؟ أليس لها أحد؟».

- «ستأتي أختها من نورث كارولينا لتتهّم بها: ولكنني أعتقد أنها، تريد أن تستولي على بيتها».

- «آه، مهلك إنها فكرة شيطانية لم أسمع بمثلها».

- «عندي يقين بأن هنري سيتزوجها قريباً».

- «يتزوج هذه المرأة العجوز؟».

- «حسناً، أن هنري أيضاً ليس كتكوتاً».
- «نعم، ولكنه ليس أبله».
- «لم يتزوج أبداً من قبل؟».
- «لا».
- «وكيف ذلك؟ هل قطعه له أحد ما؟».
- «إنه مجرد شخص صعب».
- «ليس صعباً، هل ترين حولك من تصلح للزواج؟».
- «حسناً، لا».
- «إنه شخص عاقل، متزن الشخصية ودمث. آمل أن يتم الأمر على خير».
- «آمل ذلك حقاً. كم إيجار الغرفة؟».
- «خمسة دولارات كل أسبوعين».
- «سيساعدك ذلك كثيراً».
- «سنرى».

كان حديثهن يشبه رقصة بارعة. صوت، مقابل صوت، اهتزاز وتراجع، صوت يدخل ولكن سرعان ما يزيحه عن المسرح صوت آخر. الاثنان يدوران حول بعضهما ثم يتوقفان. تتحرك كلماتهن، أحياناً، بشكل لولبي، وتقفز، في أوقات أخرى، قفزات حادة، وكل ذلك يتخلله ضحك نابض بالدفع، مثل نبض قلب مصنوع من هُلام. كانت انفعالاتهن الحادة، التحركة كاللؤلؤ، المندفعة، واضحة بالنسبة لفريدا ولي. لا نفهم كلماتهن، لا نستطيع أن نفهمها، فقد كنا في التاسعة والعاشر من العمر، ولذلك نراقب وجوههن، أياديهن، أقدامهن، ونصغي، بحثاً عن الحقيقة، في رنة أصواتهن.

عندما وصل السيد هنري، في ليلة أحد، شمعنا رائحته. كانت تفوح منه رائحة رائعة مثل رائحة الشجر وكريم الليمون، وشامبو الشعر. كان يبتسم كثيراً كاشفاً عن أسنان صغيرة متساوية تتوسطها فجوة محببة. لم

يقدمنا أحد إليه كانوا يستخدمون الإشارات فقط. مثلاً هنا الحمام، وهنا خزانة الملابس، وهاتان ابتناتا فريدا وكلوديا، انتبه لهذا الشباك فإنه لا ينفتح...

نظرنا إليه جانبياً دون أن نقول شيئاً، ولم نتوقع منه أن يقول شيئاً. هز رأسه فقط كما فعل عند خزانة الملابس معترفاً بوجودنا، ثم، لدهشتنا، تحدث إلينا:

«أهلاً. لا بد أنك غريتا غاريو، ولا بد أنك غنجر وجرز».

قهقهنا، وحتى أبي شرع بالابتسام

«تريدان بنساً؟» قدم لنا قطعة لامعة فنكست فريدا رأسها، وبدت مسرورة جداً بحيث لم تقدر على الإجابة. مددت يدي إلى القطعة المعدنية، ولكنه أطبق إبهامه وسبابته فجأة، فاخفت القطعة. اختلطت الصدمة بالمتعة، ورحنا نفتشه، ندخل أصابعنا في جواربه، وننظر داخل سترته. إذا كانت السعادة هي توقع مع يقين، فإننا كنا سعداء. أدركنا، ونحن ننتظر القطعة أن تظهر ثانية، أننا كنا نسلي بابا وماما. كان بابا يبتسم، وكانت عينا ماما تراقبان برقة حركة أبعينا وهي تتجول على جسم السيد هنري.

لقد أحببناه، ولم تخالط ذكراه أية مرارة حتى بعد ماحدث لاحقاً.

نامت بيكولا معنا في السرير، فريدا على حافته لأنها شجاعة — لم يخطر على بالها أبداً بأن «شيئاً» قد يزحف تحت السرير ويعض أصابع يدها المتدلية من طرف السرير. أما أنا فأنام جنب الجدار لأن تلك الفكرة تخطر على بالي دائماً ولذلك كان على بيكولا أن تنام في الوسط.

كانت أماناً قد أخبرتنا، قبل يومين، بأن «شخصاً» سيأتي إلى بيتنا، فتاة لا تملك مكاناً آخر تلجأ إليه. اختار مجلس البلدية بيتنا لتبقى فيه بضعة أيام حتى يقرروا ماذا يفعلون بها، أو، بشكل أدق، حتى يلتئم شمل عائلتها ثانية، وعليها أن نكون لطيفتين معها. وأن لا نتشاجر معها.

لم تعرف أُمِّي «ماذا حصل لأولئك الناس»، ماعدا أن ذلك العجوز «دوغ بريدلوف» قد أحرق بيته، وجنن زوجته، فوجدوا أنفسهم في العراء.

العراء، كما عرفنا، هو الرعب الحقيقي في الحياة. أن تكون مهدداً بالقذف في العراء، أصبح شيئاً مألوفاً في تلك الأيام. ولذلك كان ينبغي تجنب أي إفراط. فإذا أكل شخص أكثر مما يجب، فإنه قد ينتهي إلى العراء، وإذا استخدم الفحم أكثر مما يجب، فإنه قد ينتهي إلى العراء.

وقد يقامر الأشخاص في العراء، ويدمنون على الشراب في العراء. وأحياناً ترمي الأمهات أبناءهن في العراء، وعندما يحصل ذلك، فإن الجميع يتعاطف مع الابن المطرود بغض النظر عما فعله؛ إنه في العراء، وأن أسرته قد فعلت ذلك.

أن يقذفك مالك البيت إلى العراء شيء آخر - أمر تعس، ولكنه جانب من جوانب الحياة لا تستطيع أن تتحكم فيه. مادمت لا تستطيع أن تتحكم بدخلك. ولكن أن تكون متوانياً للدرجة التي تقذف فيها شخصاً في العراء أو تكون عديم القلب للدرجة التي تلقي فيها قريباً لك في العراء، فذلك هو فعل إجرامي.

هناك فرق بين أن تطرد من المنزل وبين أن تقذف في العراء. إذا طردت من المنزل، فبإمكانك أن تذهب إلى مكان آخر، وإذا قذفت في العراء، فليس هناك مكان يمكن أن تذهب إليه. الاختلاف بينهما دقيق ولكنه نهائي. العراء هو نهاية شيء، متعذر التغيير، واقعة مادية تعين وتكمل شرطنا الميتافيزيقي. ولكوننا أقلية، في الطائفة والطبقة، فإننا نتحرك على حافة الحياة باتجاه أي شيء، مكافحين لبث القوة في ضعفنا حتى نستمر، أو نندس في ثنايا الثوب الكبيرة. إن وجودنا الهامشي، على أية حال، هو شيء تعلمنا التعامل معه بسبب أنه وجود مجرد على الأرجح. ولكن مادية وجودك في العراء، هي أمر آخر مثل الفرق بين مفهوم الموت وبين أن تكون ميتاً فعلاً. الميت لا يتغير. والعراء هو هنا ليبقى.

ولدَ فينا العراء الجوع للملكية والتملك. امتلاك نهائي لفناء، لشرفة، لعريشة عنب. لقد صرف المالكون السود كل طاقاتهم، وكل حبههم في بناء أعشاشهم. انهمكوا، مثل طيور مستقلة مسعورة، بزخرفة كل شيء: كانوا قلقين وأولوا اهتماماً أكثر مما ينبغي لبيوتهم التي امتلكوها بصعوبة. لقد علّبوا وخزنوا طوال الصيف ليملأوا الصوانات والرفوف، ودهنوا، وكسروا، وأحدثوا ثقباً في كلّ ركن من بيوتهم التي كانت تلوح مثل عباد الشمس في مستنبت زجاجي وسط صفوف من الأعشاب الضارة. يلقي المستأجرون السود نظراتٍ عجلى مختلصة على الفناءات والشرفات الملوكة، ويعلمهم ذلك يقطعون على أنفسهم التزامات راسخة بأن يشتروا «مكاناً صغيراً لطيفاً» فتراهم يشقون في جمع المال، ويقترنون، ويكدّسون ما يستطيعونه في أكواخهم المستأجرة متطلعين إلى اليوم الذي يمتلكون فيه بيتاً.

آنثى، وبعد أن قذف بعائلته إلى العراء، حكم كولي بريدلوف، وهو مستأجر أسود، على نفسه بالدمار خارج كل الاعتبارات الانسانية. لقد أنضم إلى فصيلة الحيوانات وفي الحقيقة، كان، هو نفسه، كلباً عجوزاً، أفعى، زنجياً شبيهاً بفأر. بقيت السيدة بريدلوف مع السيدة التي تستخدمها. أما الولد، سامي، فقد بقي مع عائلة أخرى. وجاءت بيكولا لتعيش معنا. ودخل كولي السجن.

جاءت بدون أي شيء، حتى بدون حقيبة صغيرة تحوي ملابسها، أو ثوب نوم، أو سروال تحتاني. ظهرت مع امرأة بيضاء ثم جلست. توقفتنا، فريدا وأنا، عن العراك، وركزنا نظراتنا على ضيفتنا، محاولتين جهدنا أن نشعرها أنها في بيتها.

حين اكتشفنا أنها لا تريد أن تسيطر علينا أحببناها. وكانت تضحك حين أقوم بحركات بهلوانية، وتتقبل بلطف الأكل الذي تقدمه لها أختي. «هل تحبين البسكويت؟»

«لا بأس» فنجلب لها أربع قطع من البسكويت في صحن صغير. مع حليب في قدح «شيرلي تمبل» الأزرق والأبيض، قضت وقتاً طويلاً في شرب

الحليب وهي تحديق مبهورة في سطح الكوب المنعكسه عليه نقاط مظلمة. وتحدثت هي وفريدا حديثاً ودوداً عن «شيرلي تمبل» وعن فتنتها. لم أشاركهما اعجابهما بشيرلي لأنني كنت أكرهها، ليس لأنها فاتنة، ولكن لأنها كانت ترقص مع «بوجانفل»، والذي كان صديقي، وعمي، وأبي، والذي كان ينبغي عليه أن يرقص معي ويضحك معي، بدلاً من ذلك، راح يستمتع بالرقص مع الفتيات البيض اللواتي لاتنزلق جواربهن أبداً إلى كعوبهن، ولذلك قلت لهما: «أنا أحب جين ويدرز»

نظرتا إليّ بحيرة، وكأنهما لم يفهما ما قلته، ثم واصلتا ما تتذكرانه عن «شيرلي» العجوز الحولاء.

كنت أصغر من فريدا وبيكولا، ولذلك لم أكن قد وصلت إلى النقطة الحاسمة في تطوري النفسي، التي تسمح لي بأن أحبه. ماكنت أشعر به، في ذلك الوقت، هو كراهية خالصة. ولكن، قبل ذلك، كنت أملك شعوراً غريباً، مخيفاً أكثر من الكراهية، تجاه كل من على شاكلة «شيرلي تمبل» في العالم.

بدأ هذا الشعور مع أعياد الميلاد وتقديم الدمى كهدايا، كانت الهدية الكبيرة، الخاصة، المحببة هي دائماً «بيبي دول» الزرقاء العينين. فهمت من أصوات الكبار التي تفرق^(١٠)، بأن هذه الدمية تمثل، كما اعتقدوا، رغبتني الأثيرة. أريكتني هذه اللعبة، والطريقة التي تنظر بها. ما المفروض أن تكون علاقتي معها؟ أظاهر بأنني أمها؟ لم أكن أهيم بالأطفال ولاحتى بفكرة الأمومة. كنت مهتمة بعمرى وحجمي. ولم أستطع أن أولد في داخلي أية حماسة تجاه تصوّر كوني أمّاً. الأمومة تأتي في عمر متقدم، وكل الاحتمالات الأخرى البعيدة.

وعلى أية حال، عرفت سريعاً ماذا ينتظرون مني أن أفعل مع الدمية أن أهددها، اختلق حكايات لها، وحتى أنام معها. الكتب المصورة مليئة بفتيات صغيرات ينمن مع لعبهن، وخاصة لعب «راجدي آن»، ولكن هذا

^(١٠) الفرق: صوت الدجاجة وبخاصة إذا دعت صغارها.

ليس وارداً أبداً. كنت أشعر بالاشمئزاز في جسدي، والرعب من تلك العيون المدوّرة البلهاء، والوجه المسطح، والشعر المجعد.

أما الدمى الأخرى، التي من المفروض أنها تجلب لي المتعة، فقد نجحت في إحداث العكس تماماً. فعندما أخذتها معي إلى السرير، قاومت أطرافها المتصلبة القاسية، وخمشت رؤوس أصابعها المستدقة على تلك اليدين المبعثتين لحمي. كانت رفيقة منام غير مريحة، وعدائية بشكل واضح. لم يعد إبقاؤها معي مناسباً. فالشاش المثني، والدانتيل على الثوب القطني يهيجان جلدي حين احتضنها. كانت عندي رغبة واحدة: أن أجد أمزقها حتى أرى من أي شيء هي مصنوعة، أن اكتشف قيمتها، أن أجد جمالها، الرغوبية فيها التي فاتني، أنا وحدي كما هو واضح، فهما. البالغون، الفتيات الأكبر سناً، المخازن، المجلات، الصحف، واجهات المحلات... كل العالم متفق على أن هذه اللعبة ذات العينين الزرقاوين، والشعر الأصفر، والجلد الوردي هي ماتعتبره كل طفلة كنزاً يقولون: «هنا، تعالي، إذا كنت جديرة بها، فستحصلين عليها». تحسست وجهها بأصابعي متعجبة من حاجبيها المسد أحدهما برفق باتجاه واحد. نقرت على أسنانها البلّورية المنغرزة مثل مفتاحي بيانو بين شفتين حمراوين معقودتين، تتبعث الأنف البارز، لكزت المقلتين الزرقاوين الزجاجيتين، وفتلت الشعر الأصفر. لم يكن بإمكانني أن أحبها. ولكن كان بإمكانني أن أتفحصها لأرى ماهي هذه التي يقول كل العالم عنها أنها شيء محبوب. أكرس الأصابع الصغيرة، ألوي الأقدام المسطحة، أحلّ الشعر، أدير الرأس جانباً، فيطلق ذلك الشيء صوتاً واحداً «ماما»، الصوت الذي يقولون عنه أنه صرخة عذبة حزينة، ولكنه يبدو لي مثل ثغاء حبل يموت، أو، بتعبير أدق، مثل صوت مفصل باب ثلاثتنا الصدى في حيزران. أنزع المقلتين الغبيتين الباردتين، يبقى الثغاء مستمراً «آه. ه. ه. ه»، اخلع الرأس، أنشر النشارة، ألطم الظهر على قضبان السرير النحاسية، فتبقى تثغو. مزقت ظهرها المصنوع من الشاش، واستطعت أن أرى القرص بثقوبه الستة: سر الصوت. مجرد قطعة مستديرة معدنية.

عبس الكبار واهتاجوا: «أنت - لا تعرفين - أن - تهتمي - بأي - شي.
- أنا - لم - أملك - في - حياتي - كلها - أية - لعبة - أطفال - وكنت -
أبكي - بكاء - مريراً - من - أجل - اللعب - والآن - أنت - عندك - لعبة -
جميلة - ولكنك - تمزقنيها - ماذا - جرى - لك؟».

كم كان غضبهم عنيفاً. وهددت دموعي سطوتهم المتعالية ولا مبالاتهم
إن انفعال سنوات من الرغبات العنيفة غير المتحققة يرشح في أصواتهم. ل
أعرف لماذا كسرت الدمى. ولكنني أعرف أن لا أحد سألني عما أرغب به في
عيد الميلاد. ولو أن أحد الكبار، ممن له القدرة على تحقيق رغباتي،
سألني عما أريد، لعرف بأنني لم أكن أرغب في امتلاك أو اقتناء أي شيء.
أردت، بالأحرى، أن أشعر بشيء آخر في عيد الميلاد. كان ينبغي أن
يكون السؤال الحقيقي هكذا. «كلوديا العزيرة.. أي تجربة تحبين أن تمرى
بها في عيد الميلاد؟» ولأجبت بوضوح: «أريد أن أجلس على مقعد صغير في
مطبخ الأم الكبيرة، وحضني مليء بالليل، وأصغي إلى الأب الكبير وهو
يعزف الكمان من أجلي وحدي». لقد صنع الكرسي الواطيء من أجل
جسمي الصغير، الأمان والدفء في مطبخ الأم الكبيرة، رائحة الليل،
صوت الموسيقى، ومادام من الأفضل أن تنهمك كل حواسي في ذلك، فلا
بأس من تذوق خوخة واحدة.

ولكن بدلاً من ذلك، تذوقت وشممت الرائحة اللاذعة لصحون وأكواب
قصديرية مصممة لحفلات الشاي التي تضجرتني، وشاهدت بنفوس ثياب
جديدة تتطلب استحماماً كريهاً في بانيو مطلي بالزئبق قبل ارتدائها:
الانزلاق فوق الزنك فقط، لا وقت للعب، أو غمر نفسك بالماء لأننا
يبرد سريعاً. لا وقت لتستمتع بعريك، هناك وقت فقط لتعمل حجاباً من
الماء اللئى برغوة الصابون: المنحدر بشكل مائل بين الساقين. ثم
هناك المناشف الواخزة، والغياب النغيض والمهين للقدارة، النظاف
المثيرة للغضب التي لا يمكن تخيلها. اختفت بقع الحبر من الأرجل
والوجه. اختفى كل ما خلفته وراكمته طوال النهار، وحل محله بثور
سخيفة.

حطمت دمي الأطفال البيضاء. ولكن تمزيق الدمى لم يكن هو الرعب الحقيقي. الشيء الأكثر رعباً كان انتقال النزوة نفسها إلى الفتيات البيض الصغيرات. واللامبالاة التي كان بإمكانني أن أضربهن معها ضربات قاطعة، لم تزعزعها سوى رغبتني في فعل التالي: أن اكتشف ما فتني أدراكه، سر الفتنة التي ينسجنها حول الآخرين. ما الذي يجعل الناس ينظرون إليهن ويقولون: «أوه، أوه، أوه» لهن، ليس لي؟ العيون الزائغة للنساء السود حينما يقتربن منهن في الشارع، والرقعة الأخاذة حينما يمسكن بهن.

إذا قرصتهنّ، فإن عيونهن - بخلاف الومضات المخبولة في عيون لعب الأطفال - سترتعش من الألم. ولن تكون صرخاتهن مثل صوت باب الثلاجة، ولكن صرخات ألم آسرة، وعندما أدركت كم كان هذا العنف لمجرد العنف منفراً، منفراً لأنه لمجرد العنف، أصبحت اتخبط في خزيي بحثاً عن ملاذ، كان الحب هو الملاذ الأفضل. وهكذا كان التحول من السادية البدائية إلى الكراهية المصطنعة إلى الحب المخادع. خطوة صغيرة باتجاه شيرلي تمبل. وتعلمت، بعد ذلك بفترة طويلة، أن أعيدها. كما تعلمت أن أجد بهجة في النظافة. وكنت أعرف، بشكل مواز، أن هذا التغيير كان تكيفاً بدون تحسين.

«حتى البارحة بقي ثلاثة أرباع قنينة الحليب. ثلاثة أرباع كاملة. والآن لا يوجد شيء. ولاقطرة واحدة. ليس عندي اعتراض أن يأخذ الشعب ما يريد، ولكن ثلاثة أرباع القنينة بحق الشيطان، أي شخص يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب؟».

«الشعب» الذي تشير إليه أمي هو ثلاثتنا: بيكولا وفريدا وأنا. كانت في المطبخ في حالة احتياج بسبب كمية الحليب التي شربتها بيكولا. كنا نعرف أنها مولعة بكوب «شيرلي تمبل»، وكانت تنتهز أية فرصة لتشرب الحليب منه، لتمسك به وترى وجه شيرلي فقط. وكانت أمي تعرف أن فريدا وأنا لا نحب شرب الحليب، فافترضت بأن بيكولا قد شربته رغم أنها ليست جائعة. وبالطبع لم يكن بمقدورنا أن «نتجادل» معها. ولم نكن نبادر بالحديث مع الكبار، وإنما كنا نجيب على أسئلتهم فقط.

جلسنا هناك شاعرتين بالخجل من الإهانات التي انصبت على رأس صديقتنا. تناولت شيئاً من المربي، وكانت فريدا تقضم أظافرها بأسنانها، بينما راحت أصابع بيكولا تتبع بعض الندب على ركبتيها، ورأسها مائل جانِباً.

كانت مناجاة أُمي الغاضبة لنفسها تثيرنا دائماً وتصيبنا بالأحباط. مناجاة مطوّلة، مهينة، وموجعة بطعناتها رغم أنها لم تكن مباشرة (إنها لا تسمى أحداً أبداً باسمه، فهي تتحدث فقط عن «الشعب» وبعض الناس). كانت تستمر لساعات على هذا النوال. تصل الهجوم بالهجوم حتى تتقيا كل الأشياء التي كدّرتها. ثم، وبعد أن تصب لعناتها على كل شيء وكل شخص، تنفجر بأغنية وتظلّ تغني بقية اليوم. ولكن كان يمرّ وقت طويل قبل أن يأتي هذا الفصل الغنائي. وكنا، بين تلك الفترتين، نصغي بعدد فارعة وأعناق محترقة، متجنبات النظر إلى بعضنا البعض، وشاغللات أنفسنا بتناول شيء من المربي أو أي شيء آخر.

«... لا أعرف ما المفروض أن أدير هنا. جناح خيري كما أعتقد. حان الوقت لأخرج من مجال العطاء إلى مجال الأخذ. أعتقد أنه ليس من المفروض أن أملك شيئاً. من المفروض أن تكون نهايتي في الملجأ. يبدو أن لا شيء مما أعمله سيجنبني هذا المكان. الشعب يقضي كل وقته في استنباط طرق لأرسالي إلى الملجأ. وتضاعفت كثيراً مشاغلي مع مجيء فم جديد عليّ أن أطعمه مثل القطة، كما لو أنني لأملك ما يكفي من المتاعب وأنا أحاول أن أطعم أطفالاً وأجنههم الملجأ. والآن عندي شيء آخر هنا سيمتصني ويقذفني هناك. لا، لن تستطيع أن تفعل ذلك. لن تستطيع مادمت أملك قوة في جسدي ولساناً في فمي. هناك حدود لكل شيء. أنا لأملك شيئاً لأبدده. لأحد يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب. هنري فورد نفسه لا يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب. إن ذلك خطيئة صريحة. إنني راغبة في عمل كل ما أستطيع من أجل الشعب. لا يستطيع أي شخص أن يقول أنني لست كذلك ولكن كل هذا ينبغي أن يتوقف. وأنا بالضبط من سيوقف ذلك. الإنجيل يقول: احترس وصلّ أيضاً».

الناس يلقون عليك بأطفالهم ثم يستمرون في أعمالهم. لا أحد يلقي عليك حتى نظرة عجلى ليرى إذا كان الطفل يملك كسرة خبز أم لا، إنهم كما يبدو يختلسون النظر ليروا فقط فيما إذا كنت أملك كسرة خبز لاعطيها إياها. ولكن لا، تلك الفكرة لا تخطر على بالهم. مرّ يومان كاملان على خروج ذلك العجوز القافه كولي من السجن، ولم تأتِ إلى هنا بعد ليرى فيما إذا كانت ابنته الصغيرة حية أم ميتة. كان يمكن أن تكون ميتة لكل الأسباب التي يعرفها. لم يأت الأم أيضاً. أي نوع من المخلوقات هؤلاء؟

عندما وصلت ماما في حديثها إلى هنري فورد وأولئك الناس الذين لا يهتمون فيما إذا كانت تملك كسرة خبز أم لا، كان وقت ذهابنا قد حان. لم نكن نريد أن نصغي إلى ذلك الجزء حول روزفلت ومعسكرات سي سي سي.

نهضت فريدا وهبطت السلم، وتبعناها، بيكولا وأنا، مشكلتين منحنىً واسعاً لتجنب مدخل المطبخ. وجلسنا على درجات المدخل حيث لاتصل إلينا كلمات أمي إلا على شكل دفقات.

كان يوم أحد موحشاً. فاحت من البيت رائحة النفثالين، والرائحة الحادة للخردل الممزوج بالخضار. كانت أيام السبت موحشة. مليئة بالهرج والمرج. أيام زلقة والاسوأ منها أيام الآحاد المتوترة، الرتيبة، المليئة بأقراص السعال. والأوامر.

حين تكون أمي في مزاج غنائي، فإن الأمر يصبح أقلّ سوءاً. كانت تغني حول الأوقات الصعبة، الأزمان الرديئة، عن شخص «فعلها ومضى وتركني للزمن». كان صوتها عذباً جداً، والأغنيات الجميلة التي تقدمها تصهر القلب، فأجدني أحن إلى تلك الأوقات الصعبة، وأتوق إلى أن أكبر بدون أن تضاف تلك الصفات الغريبة إلى اسمي. كنت أتطلع إلى تلك الأوقات العذبة حين سيقترني «رجلي»، حين «سأكره أن أرى غروب شمس المساء» لأنني سأعرف حينها أن «رجلي قد غادر هذه المدينة»^(١). إن

(١) مقاطع من الأغنيات التي تغنيها الأم.

البؤس الملون بالأخضر والأزرق في صوت أُمي يسحب كل الأحزان من الكلمات، ويتركني مقتنعة بأن ذلك الألم ليس محتملاً فقط، ولكنه عذب أيضاً.

ولكن أيام الآحاد، بدون غناء، تجثم فوق رأسي مثل قفة فحم، وإذا كانت أُمي محتاجة، مثلما هي الآن، فيبدو الأمر وكأن شخصاً يقذف رأسي بحجر «وأنا هنا فقيرة مثل صحن بطاطا؟ من تظنني؟ نوعاً من الساندي كلو؟ حسناً أنهم يستطيعون خلع جواربهم، فالיום ليس عيد الميلاد...»

شعنا بالضجر، فقلت فريدا:

- «دعينا نفعل شيئاً» فسألته:

- «ماذا تريد أن نفعل؟»

- «لا أدري. لاشيء» حددت فريدا في أعالي الأشجار، ونظرت بيكولا إلى قدميها.

- «تريد أن تصعدي إلى غرفة السيد هنري، وتري مجلاته النسائية؟»

بدا العبوس على وجه فريدا. لم تكن تحب أن نرى الصور البذئية. وواصلت كلامي: «حسناً، نستطيع أن نرى إنجيله، فهو أفضل» حككت فريدا أسنانها مصدرة صوت «بي».

- «حسناً، نستطيع أن نلضم أبر السيدة العمياء. وستعطينا مقابل ذلك بنساً».

أطلقت فريدا صوتاً كالشخير: «تبدو عيناها مثل المخاط. لأحب النظر إليهما. ماذا تريد أن تفعل يا بيكولا؟»

- «لايهم.. أي شيء تريدانه».

وكانت عندي فكرة أخرى فقلت: «نستطيع أن نذهب إلى الزقاق، ونرى ما في براميل القمامة».

فردت فريدا: «الجو بارد جداً» وبدت ضجرة ومستاءة.

- «أنا أعرف. نعدّ بعض الحلوى».

- «هل تمزحين إضافة إلى هرج ومرج أمي؟ حين تغضب فإن غضبها يستمر طوال اليوم. لن تسمح لنا بذلك».

- «حسناً، لنذهب إلى الفندق اليوناني ونستمع إلى شتائمهم».

- «أوه، من يريد أن يقوم بذلك؟ إضافة إلى أنهم يرددون الكلمات نفسها».

نفد مخزوني من الأفكار، وبدأت أركز تفكيري على البقع البيضاء في أظافر أصابعي. دل مجموعها على عدد الأصدقاء الشبان الذين سأعرفهم! سبعة. حلّ الصمت شيئاً فشيئاً محلّ مناجاة أمي: «يقول الأنجيل: أطعم الجوعى. هذا رائع. هذا حسن. ولكني لا أطعم أفيالاً.. أي شخص يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب ليعيش، عليه أن يخرج من هنا. إنه في المكان الخطأ. ما هذا المكان؟ شركة لصنع الزبدة والجبن؟

فجأة انتصبت بيكولا وعيناها مفتوحتان على سعتيها من الرعب، ثم صدر عنها صوت أنين: «ما بك؟» وقفت فريداً أيضاً.

ثم نظر كلانا إلى الموضع الذي كانت تحدّق فيه بيكولا. كان الدم يسيل على ساقيهما، وسقطت بضغ قطرات منه على الدرجات. قفزت من مكاني: «لقد جرحت نفسك. انظري! الدم على ملابسك».

بقعة دم حمراء غيرت لون ثوبها من من الخلف استمرت بالأنين وهي واقفة وساقاها منفرجتان.

قالت فريداً: «أوه يا إلهي! أنا أعرف. أعرف ما هذا».

- «ماذا؟» وضعت بيكولا أصابعها على فمها.

- «أنه الطمك»

- «ما هذا؟»

- «أنت تعرفين»

- «هل ساموت؟»

- «لا لا ، لن تموتي. هذا يعني فقط أنه بإمكانك أن تنجبي طفلاً»

- «ماذا؟»

- «كيف عرفت ذلك؟» كانت معرفة فريدا بكل شيء تجعلني أشعر بالمرض والتعب.

- «أخبرتني ميلدريد وكذلك ماما».

- «لأصدق ذلك».

- «لاتصدي ياغبية. اسمعي. انتظري هنا. إجلسي يا بيكولا هنا»
كانت فريدا تتمتع بالحيوية والسلطة. ثم خاطبتني: «وأنت..أذهبي واجلسي كمية من الماء».

- «ماء؟»

- «نعم، أيتها الغبية. كوني هادئة وإلا ستسمعك ماما».

جلست بيكولا ثانية، وخوف أقل في عينيها، وذهبت أنا إلى المطبخ.
وسألتني أمي التي كانت تشطف الستائر: «ماذا تريدان يا صبية؟»

- «ماء ماما»

- «حيث أعمل؟ بالطبع..حسناً خذي كأساً. لا يوجد كأس نظيف.
خذي تلك الجرة».

أخذت جرة وملأتها ماء من الحنفية، وبدأ أن ذلك استغرق وقتاً طويلاً.

- «لا يطلب أحدكم أي شيء حتى يراني عند المغسلة، ثم تأتون كلكم لتشربوا ماء..»

تحركت لمغادرة الغرفة عندما امتلأت الجرة.

- «إلى أين تذهبين؟»

- «خارجاً»

- «اشربي الماء هنا».

- «لن أكسر شيئاً»

- «أنت لا تعرفين ماذا ستفعلين».

- «نعم يا أمي. أعرف. دعيني آخذها. لن أسكب منها قطرة».

- «لا تراهني على ذلك».

ذهبت إلى المدخل ووقفت هناك مع جرة الماء. كانت بيكولا تصرخ:

- «لماذا تصرخين؟ يؤمك؟ - هزّت رأسها - إذاً، أوقفني مخاطك»

فتحت فريدا الباب الخلفي. وبدا أن شيئاً اندس في بلورتها. نظرت إليّ بحيرة وأشارت إلى الجرة: «ما المفروض أن نفعل بهذا؟»

- «أنت قلت لي. قلت: إجلبي ماء».

- «ليس جرة عتيقة صغيرة. كميات من الماء لتنظف الدرجات بها ياغبية!»

- «وكيف من المفروض أن أعرف ذلك؟»

- «نعم. كيف من المفروض أن تعرفي. تعالي».

سحبت بيكولا من ذراعها واتجهتا إلى جانب المنزل حيث الشجيرات الكثيفة.

- «هاي، وماذا عني؟ أريد أن أذهب معكما»

- «اخر..ر..سي» همست فريدا في أذني بشكل مسرحي: «ستسمعك ماما. اغسلي أنت الدرجات»

اختفتا عند زاروية البيت.

كان سيفوتني شيء ثانية. هناك شيء مهم كان سيحدث، ولكن كان يتوجب عليّ أن أبقى، وأن لا أرى أي شيء منه سكبت الماء على الدرجات. حركته بحذائي ثم ركضت لألتحق بهن.

كانت فريدا منحينة، وقطعة قطن بيضاء مستطيلة قريبها على الأرض. نزعَت سروال بيكولا التحتي: «هيا تحركي» نجحت في خلع السروال وقذفته بقوة إلي: «ما المفروض أن أعمل به».

- «احرقيه ياغبية».

أخبرت فريدا بيكولا أن تبقي القطن بين ساقيهما.
- «وكيف ستمشي بهذا الشكل؟» لم تجبني، وبدلاً من ذلك نزع
دبوسين من ثنايا تنورتها، وبدأت تشبك نهايات المنديل على ثوب بيكولا
بالدبوسين.

حملت السروال باصبعين وبحثت حولي عن شيء لأحفر به حفرة.
أجفلني صوت خشخشة في وجه أبيض كالعجين.
كانت «روزمري» تراقبنا. أمسكت بوجهها، ونبشت أظفاري في أنفها،
فصرخت وقفزت عائدة.

سمعتها تصيح: «مدام ماكثير.. مدام ماكثير. فريدا وكلوديا في الخارج
تقومان بأفعال قذرة.. مدام ماكثير..»
فتحت أُمي النافذة ونظرت إلينا:
- «ماذا؟»

- «تقومان بأفعال قذرة مدام ماكثير.. وكلوديا ضربتني لأنني رأيتهما»
صفقت أُمي النافذة بقوة، وأنت راکضة من الباب الخلفي.
- «ماذا تفعلن لكنّ هنا؟ أوه.. أوه.. آه تقومان بأعمال قذرة.. ها؟»
- «كان من الأجدر بي أن أربي خنازير بدلاً من فتيات قذرات، على
الأقل أستطيع أن أذبح الخنازير».
أخذنا نصرخ: «لا ياماما، لا ياماما، لم نفعل ذلك إنها تكذب. لا
ياماما، لا ياماما، لا»

أمسكت ماما بفريدا من كتفها. وأدارتها ثم جلدها ثلاث أو أربع
جلدات على رجلها: «تفعلن أفعالاً رذيلة، ها؟ الآن لا تستطعين».
انهارت فريدا. لقد سبب لها الجلد جروحاً، وأحسست بالاهانة، ثم
نظرت ماما إلى بيكولا: «وأنت أيضاً؟ سواء أكنت ابنتي أم لا..» أمسكت
ببيكولا وجعلتها تدور حول نفسها. أنفك الدبوس من أحد طرفي المنديل،
ورأته أُمي يسقط من تحت الثوب، تآرجح السوط في الهواء، بينما كانت
أُمي تنظر بذعر: «بحق الشيطان، ماذا يجري هنا؟»

بدأت فريدا تنشج. وبدأت أنا، وكنت واقفة خلفها، أشرح الأمر:
«نزفت دماً، وكنا نحاول وقف النزيف».

نظرت ماما إلى فريدا للتحقق من كلامي. أومات فريدا برأسها موافقة:
«كنا نسعفها.. كنا نساعدنا فقط».

تركت ماما بيكولا ووقفت تنظر إليها، ثم سحبتهما كلاهما باتجاهها،
واحتضنتهما. كانت عيناها مليئتين بالأسف: «حسناً، حسناً. والآن توقفا
عن البكاء. لم أكن أعرف. تعالا الآن، ولنذهب إلى البيت.. اذهبي إلى
البيت ياروزمري. انتهى العرض».

اندفعنا إلى البيت. كانت فريدا تنتحب بهدوء، وأنا أحمل السرورال
الداخلي للفتاة الصغيرة التي تحولت إلى امرأة.

قادتنا ماما باتجاه الحمام. حثت بيكولا على الدخول، وأخذت
الملابس الداخلية مني ثم أمرتنا أن نبقى خارج الحمام.

كان بإمكاننا أن نسمع صوت الماء المتدفق في بانيو الحمام، «هل
تعتقدين أنها ستغرقها؟».

- «آه كلوديا. أنت غبية جداً. ستغسل ملابسها فقط، وهذا كل شيء».

- «هل ينبغي أن نضرب روزمري؟».

- «لا، دعيها وشأنها».

استمر الماء متدفقاً، ولكن موسيقى ضحكة أمي على صوته.

اضطجعنا، تلك الليلة، ثلاثتنا في السرير بلا حراك. كنا تملأنا الرهبة
والاحترام لبيكولا. فأن تتمدد جوار شخص حقيقي كان ينزف دماً لهو
شيء مقدس فعلاً.

ابتداءً من الآن، هي مختلفة عنّا، شبيهة بالبالغين. وهي، نفسها،
أحست بالمسافة بيننا، ولكنها أثبت أن تتسلط علينا.

سألت بكل رقة بعد فترة صمت طويلة: «هل أستطيع أن ألد طفلاً

الآن؟»

فقال فريدا وهي نعسانة: «بالتأكيد. بالتأكيد تستطيعين ذلك» فسألت بيكولا بصوت تخنقه الدهشة: «ولكن كيف؟» فأجابت فريدا:

- «أوه، يجب أن يحبك شخص ما».

- «أوه».

حل صمت طويل فكرنا خلاله أنا وبيكولا بالأمر.

افترضت أن ذلك يشمل «رجلي» الذي سيحبني قبل أن يتركني. ولكن ليس هناك أطفال في الأغاني التي تغنيها أمني. ربما لهذا السبب النساء حزينات. يتركهن الرجال قبل أن يصبح بإمكانهن أن يلدن. ثم سألت بيكولا سؤالاً لم استوعبه: «كيف تفعلين ذلك؟ أعني كيف تجعلين شخصاً يحبك؟ ولكن فريدا نامت، وأنا لم أعرف الجواب.

* * *

هناك مخزن مهجور في الزاوية الجنوبية الشرقية من «برودوي» وشارع «٣٥» في يورين، أوهيو. لا هو يختفي في تلك الأرض ذات السماء الرمادية، ولا هو ينسجم مع البيوت الرمادية الخشبية الهياكل. بدلاً من ذلك، يدس نفسه في عيون العابرين، بطريقة بغیضة وكثيية أيضاً. ويتعجب الزائرون الذين يغدون إلى هذه المدنية الصغيرة بسيارتهم من عدم تهديمه، بينما يدير المشاة الساكنين في الجوار عيونهم عنه ببساطة.

في وقت من الأوقات، عندما افتتح في البناية محل بيتزا، كان الناس يرون فقط الأولاد المراهقين البطييء الخطوات محتشدين حول الركن. كان هؤلاء يلتقون هناك، يتحسسون أعالي أفخاذهم ويدخنون السكاثر، ويخططون لاعتداءات خفيفة. كانوا يستنشقون دخان سجائرهم بعمق ليملأوا به رئاتهم، وقلوبهم، وأفخاذهم، ولينمنع ارتعاشات وحيوية الشباب. إنهم يتحركون ببطء، ويضحكون ببطء، ولكنهم ينفضون رماد سكاثرهم بسرعة وبكثرة، فاضحين أنفسهم، لمن يهتم بمراقبتهم، على أنهم مبتدئون في هذه العادة. قبل وقت طويل من استعراضات هؤلاء الشباب

الرخيصة، ومشاهد تباهيهم، كانت البناية قد أجرها خباز هنغاري اشتهر «بالبريوش»^(٦)، وأرغفة القمح بلونها الأحمر الفاتح. وقبل ذلك كان هناك مكتب عقاري، وفي وقت أبكر من ذلك، استخدم بعض النجر البناية كقاعدة لعملياتهم. ومنحت عائلة غجرية سمة وتميزاً للنافذة البلورية الكبيرة. فقد كانت فتحات العائلة يتبادلن الجلوس بين ياردات من ستائر أجواخ شرقية مخملية معلقة على النوافذ. كن ينظرون إلى الخارج، ويبتسمن من حين آخر، أو يغمزن بعيونهن أو يومئن بأيديهن - فقط من حين الآخر وغالباً ماكن يبدون بملايسهن الفضفاضة ذات الأكمام الطويلة والتنانير الفضفاضة، خافيات العري الكامن في عيونهن.

كان سكان المنطقة يتغيرون باستمرار، وقبل وقت طويل، طويل جداً ربما لا يتذكره أحد، قبل زمن النجر، وزمن أولئك المراهقين، عاشت عائلة «بريدلوف» هناك، وعاشوا معاً في شقة متفرعة عن حانوت، متقيحين دماً تحت رحمة نزوات أحد السماسرة، منسلين من وإلى تلك العلب ذات الطلاء الرمادي المتقشر، بدون أية حركة في الجوار، أو نائمة في العمل، أو إشارة يد في مكتب رئيس البلدية. كل فرد من العائلة مسجون في زنزانه وعيه، كل يرقع لحاف واقعه بجمع شظايا تجربة من هنا، وبعض معلومات من هناك. ويخلقون، من انطباعات صغيرة يلتقطونها من بعضهم البعض، حساً بالانتماء، ويحاولون أن يجدوا لهم علاقة بطريقة الحياة التي وجدوا بعضهم بعضاً فيها.

كانت خطة بناء هذه المساكن في المنطقة خطة خيالية تفتق عنها ذهن ملاك يوناني من الجيل الأول. لقد فصلت مساحة «المخزن» الواسعة إلى غرفتين بواسطة ألواح خشبية مضغوطة من الفايسبر لاتبلغ السطح. كانت هناك غرفة الجلوس، التي تسميها العائلة الغرفة الأمامية، وغرفة النوم حيث يقضون وقتهم. وتوجد أريكتان في الغرفة الأمامية. وبيانو عمودي الأوتار، وشجرة عيد ميلاد اصطناعية صغيرة مزينة يغطيها الغبار منذ

(٦) البريوش: خبز محلى يعد مع قليل من الزبدة والبيض.

سنوات، أما في غرفة النوم، فهناك ثلاثة أسرة: سرير حديدي ضيق لـ«سامي»، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، وآخر لـ«بيكولا» ذات الأحد عشر عاماً، وسرير مزدوج لـ«كولي» و«بريدلوف». وانتصب موقد من الفحم في وسط الغرفة من أجل توزيع متساو للحرارة. ووضع قرب الحائط صندوق ثياب، وكراس، ومائدة صغيرة و«خزانة» كارتونية. وكان المطبخ في الجانب الخلفي من هذه الشقة، منفصلاً عن باقي الغرف. أما الحمام فلا توجد فيه أية لوازم، ماعدا مقعد تواليت لا تبصره عين المستأجر، ولا تسمع منه شيئاً.

لا يوجد شيء أكثر يمكن قوله حول الأثاث. لقد تم وصفه، وتصوره، وصنعه، وشحنه بالسفن، وبيع في حالات مختلفة من عدم التفكير، والطمع، واللامبالاة لقد أصبح بالياً دون أن يصبح أليفاً. ملكه أناس ولكنهم لم يعرفوه قط. لم يضيّع أحد بنساً أو بروشاً تحت وسائل أي من الأريكتين وتذكر المكان الذي أضاعه فيه أو وجده فيه. لم يقوِّ أحدهم كالدجاجة قائلاً: «ولكنه كان معي قبل لحظه فقط. كنت جالساً هناك أتحدث مع...» أو «أنه هنا. لابد أنه انزلق مني بينما كنت أطعم الطفل» لم تلد احداً فوق أي سرير من الأسرة - أو تتذكر بحنين الجدران المقشرة الدهان لأن الطفل، وهو يتعلم أن يقف، اعتاد أن ينزعها. لم يدس طفل علكة تحت المائدة. لم يجلس سكير سعيد - صديق للعائلة ذوق رقية غليظة، غير متزوج كالعادة، والله وحده يعرف كم كان يأكل - إلى البيانو ليعزف: «أنت بهجتي» لم تنظر أية صبية إلى شجرة عيد الميلاد الصغيرة، وتتذكر الوقت الذي زينتها فيه، أو تتساءل فيما إذا كانت تلك الكرة الزرقاء ستصمد، أو «إنه» سيأتي ليراها ثانية.

لم تكن هناك ذكريات بين هذه القطع لاذكريات هناك ليعتروا بها. من حين لحين، يثير موضوع ما رد فعل جسدي: زيادة في الحموضة أعلى الجهاز المعوي، رشح خفيف من العرق خلف الرقية، حينما تستذكر الظروف التي أحاطت بقطعة أثاث، ولناخذ الأريكة مثلاً. لقد اشتروها جديدة، ولكن القماش أنشق عمودياً في الوقت الذي جلبوها فيه، والمخزن لايحتمل أية مسؤولية..

- «انظر يا أخ، لقد كانت بحالة جيدة عندما وضعتها في عربة النقل، لا علاقة للمتجر بها بعد أن تصبح في العربة».

- «ولكنني لأريد أريكة ممزقة حتى لو كانت جديدة»

عيون ملتمة، وخصي مشدودة

- «أنت جلف يا أخ، اللعنة..»

يمكن أن تكره أريكة بالطبع، هذا إذا كنت قادراً على كره أريكة. ولكن لا يهم ذلك.

وإذا كنت تكسب ٤,٨٠ دولاراً في الشهر، وتدفع ٤,٨٠ دولاراً في الشهر من أجل أريكة أخذت تتمزق، فهذا شيء غير جيد ومذلل. لا يمكنك أن تجد أي سعادة في امتلاكها. ثمانية التعاسة تتخلل كل شيء. رائحتها الكريهة تمسكك عن طلاء الجدران بالفايبر، ومن الحصول على قطعة خشبية لتصليح الكرسي، تمسكك حتى عن خياطة الشق الذي أصبح تصدعاً، الذي أصبح فجوة فاجرة فاها، تفضح الهيكل الرخيص والتنجيد الأرخص. أنها تحول دون أن يستريح النائم في نومه، وتفرض عليك أن تمارس الحب فوقها خلصة. إنها مثل سن متقرح لا يرضى أن ينبض بالألم بمفرده، وإنما ينشر ألمه إلى بقية الأجزاء والأخرى من الجسم - فيجعل التنفس صعباً، والرؤية محدودة، والأعصاب متوترة. وهكذا فإن قطعة مكروهة من الأثاث تسبب ضيقاً مزعجاً يؤكد نفسه في أرجاء البيت، ويضع حداً لبهجتك بأشياء ليست ذات صلة به.

كان الشيء الوحيد في بيت «بريدلوف» موقد الفحم الذي بقي مستقلاً عن كل شيء وعن كل شخص. وسواء أكانت ناره «مطفأة» أو «كومة رماد» أو «موقدة عالياً»، فإنه حرّ في تصرفه، بالرغم من حقيقة أن العائلة هي التي تغذيه وتعرف كل التفاصيل عن طريقة عمله! انتشري أيتها النار، لا تتحولي إلى كومة رماد، هذا كثير... ولكنها تعيش، تخمد أو تموت طبعاً لنظامها هي.

وفي الصباح، على أية حال، ترى دائماً أن الوقت حان لموت.

* * *

لم تعيش عائلة «بريدلوف» في ذلك البيت الذي هو جزء من حانوت لأنهم واجهوا مصاعب وقية بسبب تخفيض الانتاج في المصنع. لقد عاشوا هناك لأنهم فقراء وسود، وبقوا هناك لأنهم كان يعتقدون انهم قبيحون. بالرغم من أن فقرهم كان تقليدياً وسخيفاً، فإنه لم يكن فريداً. ولكن قبحهم كان فريداً. ولم يستطع أحد أن يقنعهم أن هذا القبح ليس عدوانياً وقاسياً. وماعدا الأب كولي، الذي كان قبحه (نتيجة للياس، والانغماس في اللذات، والعنف المسلط على الأشخاص الهامشييين و الناس الضعفاء) يمكن في سلوكه، فإن بقية أفراد العائلة - السيدة بريدلوف، سامي بريدلوف، بيكولا بريدلوف - يلبسون قبحهم، يرتدون إذا صح التعبير، رغم أنه لا يعود إليهم. إن العيون، العيون الصغيرة وضعت باتقان تحت جباه ضيقة. مفرق الشعر المنخفض غير المتناسق يبدو حتى أقل تناسقاً بالمقارنة مع الحاجبين المستقيمين الكثيفين. اللذين يكادان يلتقيان. أنوف قوية، ولكن معقوفة، ذات مناخر شامخة. عظام وجنات بارزة، وآذان ملوثة إلى أمام، شفاه جميلة لاتجذب الانتباه إليها، وإنما إلى بقية الوجه. تنظر إليهم فتتعجب لماذا هم قبيحون، وحين تنظر إليهم عن قرب أكثر، لاتستطيع أن تجد مصدر هذا القبح. ثم تدرك أن ذلك نابع عن اقتناع، اقتناعهم هم، كما لو أن سيداً غامضاً عارفاً بكل شيء، أعطى لكل منهم ساعة قبح ليلبسها. وكلّ منهم قد قبل ذلك راضياً. كان السيد الغامض قد قال: «أنتم اناس قبيحون»، فنظروا إلى أنفسهم فلم يروا شيئاً يناقض هذا الإعلان، بل رأوا، في الواقع، دعماً له يطل عليهم من كل لوحة إعلان، وكل فيلم، وكل لمحة. لقد أخذوا القبح بأياديهم، ورموه فوقهم مثل عباءة، وأخذوا يطوفون العالم معه. كان كل منهم يتعامل معه حسب طريقته. فقد استخدمته السيدة بريدلوف كما يستخدم ممثل البروفة: علاقة الشخصية مع الشخصيات الأخرى، ودعم دور تصورت مراراً أنه

دورها: الشهادة. واستخدم سامي قبحه كسلاح ليسبب الألم للآخرين. كان يكيّف سلوكه معه، ويختار رفاقه على أساسه، الرفاق الذين، يكمن أن يذهلهم، وحتى يرعبهم هذا القبح. بيكولا؟ لقد توارت وراء قبحها: مخفية، محجّبة، منكسفة نادراً ما تختلس النظر من وراء حجابها، وإذا ما فعلت ذلك، فإنها تفعله لتحنّ إلى قناعها فقط.

في صباح يوم أحد من أكتوبر/ تشرين الأول/ بدأت هذه العائلة، واحداً بعد الآخر، تتحرك لتخرج شيئاً فشيئاً من أحلام الرفاهية والثّار، لتدخل في حالة بؤس لا يمكن تسميته في ذلك البيت.

انسلت السيدة بريدلوف من سريرها بهدوء. وضعت كنزة فوق ثوب النوم الذي كان ثوباً بالياً تلبسه في النهار أيضاً، واتجهت إلى المطبخ أحدثت قدمها السليمة وقعاً ثقيلاً كأنه نقر عظام على مشمّع الأرضية، أما قدمها الأخرى الملتوية فقد مسته مساً خفيفاً. أحدثت بفتحها الباب، والحنفية، واستخدمها المقلاة ضجيجاً في المطبخ، ضجيجاً أجوف، ولكن التهديد الذي ينطوي عليه لم يكن كذلك. فتحت بيكولا عينيها، وظلت متمددة محدقة في موقد الفحم الخامد. وتمتم كولي، وتقلب في فراشه لدقيقة ثم همد.

كان بإمكان بيكولا، حتى من مكانها وهي مضطجعة، أن تشم رائحة الويسكي الصادرة من كولي. أصبح الضجيج أعلى في المطبخ، وأقل كتماناً. هناك غرض في حركات السيدة بريدلوف لاعلاقة له بإعداد طعام الفطور. هذا الإدراك، الذي تدعّمه شواهد من الماضي، جعل بيكولا تقلص عضلات معدتها وتقطع أنفاسها.

لقد أتى كولي إلى البيت مخموراً. ولسوء الحظ كان مخموراً جداً لدرجة لا يستطيع معها الشجار، ولذلك سينفجر الموضوع كلّ هذا الصباح. وسيقتصر العراك إلى العفوية لأنه لم يحدث في وقته. سيكون محسوباً، غير ملهم، ومهلكاً. دخلت السيدة بريدلوف بخفة إلى الغرفة، ووقفت عند السرير حيث ينام كولي:

- «أريد بعض الفحم في هذا البيت».

- «لم يتحرك كولي».

- «هل تسمعي؟» ولكزته في قدميه.

فتح كولي عينيه ببطء. كانتا حمراوين متوعدتين. كان كولي يملك أخبث عينيْن في المدينة.

- «آه... آه يا امرأة!».

- «قلت أريد بعض الفحم. أشعر بالبرد مثل عصفور صغير في هذا البيت. عليّ أن أقوم بعدة أشياء. ولا أريد أن أتجمد من البرد».

- «دعيني وحدي».

- «ليس قبل أن تحضر لي بعض الفحم. أليس من حقي أن أحس بالدفع وأنا أعمل كالبغلة. لماذا أعمل كل ذلك؟ أنت لاتقوم بأي شيء، وإذا بقيت الأمور بهذا الشكل فسنموت كلنا. كان صوتها مثل وجع الأذن في الدماغ» إذا كنت تعتقد بأنني سأخرج في هذا البرد وأجلب الفحم بنفسِي، فمن الأفضل لك أن تعيد التفكير بذلك».

- «اللعة، لايهمني كيف تحصلين عليه».

- «هل ستنهض ياسكير من هذا الفراش. وتجلب لي بعض الفحم أو لا؟»

صمت.

- «كولي!».

صمت.

- «لاتعيني هذا الصباح يارجل. كلمة أخرى منك واشقك نصفين».

صمت..

- «حسناً.. حسناً. ولكني إذا عطست مرة، مرة واحدة فقط، فستكون

نهايتك».

استيقظ سامي أيضاً، ولكنه تظاهر بالنوم. كانت بيكولا ماتزال تشد على عضلات معدتها. وتمسك أنفاسها. كانوا يعرفون كلهم أن السيدة بريدلوف تستطيع، وسوف تفعل وقد فعلت ذلك سابقاً، أن تحضر الفحم من الحظيرة، أو إنها ستأمر سامي أو بيكولا أن يجلباه. ولكن تلك الليلة

التي لم يتشاجرا فيها، ظَلَّت معلقة مثل النغمة الأولى لترنيمة جنائزية في الهواء الطلق المشيع بالحزن.

إن السكر الطائش كانت له خاتمة الشعائرية، بغض النظر عن روتينيّتها، لقد تحددت أيام السيدة بريدلوف العادية، وتماهت مع هذه الشجارات. لقد منحت مادة للحظات وساعات كانت ستكون بدونها باهتة لاتذكر.

وخففت من ضجر الفقر، أضفت فخامة على الغرف الهامدة. كان بإمكانها في انفجارات العنف المتكررة هذه، التي أصبحت هي نفسها روتيناً، أن تكشف عن الأسلوب والخيال اللذين تعتقد أنهما يمثلان ذاتها الحقيقية. وتجريدها من هذه الشجارات يعني تجريدها من نكهة ومعقولة الحياة. وكان كولي، بسكره المعتاد ومزاجه الفؤار، يزودهما كلاهما بالمادة التي يحتاجانها لجعل حياتهما محتملة. كانت السيدة بريدلوف تعتبر نفسها امرأة مسيحية مستقيمة يثقل على كاهلها رجل لايعتمد عليه أراد لله أن يعاقبها به. وبالطبع فإن تخليص كولي أمر ميئوس منه، والتخليص ليس هو المسألة، فلم تكن كولي مهتمة بيسوع المخلص، بل بيسوع القاضي. وغالباً ما سمعت تخاطب يسوع بخصوص كولي، مناشدة إياه أن يساعدها على «ضربه في صميم كبريائه» كانت تصرخ كلما رآته يترنج مخموراً عند الموقد ذي النار الحمراء: «خذ يا يسوع! خذ!» لو توقف كولي عن الشرب، فإنها لن تسامح يسوع على ذلك أبداً. إنها تحتاج إلى خطايا كولي بشدة. فكلما انحدر أكثر، وكلما أصبح مستهتراً وعنيفاً أكثر، كلما ازدادت هي روعة، وازدادت مهمتها روعة.

باسم يسوع.

لم تكن حاجة كولي إليها أقل. إنها، بالنسبة له، واحدة من الأشياء البغيضة القليلة التي يستطيع أن يلمسها وبالتالي يؤذيها. لقد صبَّ عليها كل عنفه الغامض ورغباته المجهضة. كان يستطيع، من خلال كرهها، أن يترك نفسه سليماً. عندما كان مايزال في بداية شبابه، فاجأه بين الشجيرات رجلان أبيضان حينما كان يحاول مجامعة فتاة ريفية

صغيرة. سلطا ضوءاً كاشفاً على ظهره، فتوقف مرعوباً، فضحكا ضحكة خافتة. ظل الشعاع مثبتاً على ظهره، ثم قال له: «استمر، وانتبه، فالزنجي يفعل ذلك جيداً» لم يتحرك ضوء المصباح اليدوي. لم يشعر كولي، لسبب ما، بكره تجاه الرجلين. وإنما شعر بكره واحتقار للفتاة. كان مجرد تذكر هذا المشهد، ولو نصف تذكر، وماعرفه من اذلال، وهزائم، واخصاءات لأتخصى. يجعله ينغمس في موجات عن الانحلال بشكل يدهشه - يدهشه هو فقط. وبطريقة أو بأخرى، لم يستطع أن يُدهش أحداً. كان يمكن أن يُدهش فقط. وهكذا تخلى عن ذلك أيضاً.

كان كولي والسيدة بريدلوف يتقاتلان بـ«شكلية» وحشية غامضة لا يوازيناها إلا فعلهما الحب. لقد اتفقا، ضمناً، على أن لا يقتلا بعضهما البعض. كان يقاتلها بالطريقة نفسها التي يقاتل فيها جبان رجلاً شجاعاً - بالأقدام، والأكف، والأسنان، وكانت هي بالمقابل، تقاتله بطريقة أنثوية بحتة - بمقلاة القلي، والمسعار، وأحياناً بالمكواة التي تقلع باتجاه رأسه. لم يكونا يتحدثان، أو يئننان، أو يلعلنان خلال الضرب المتبادل. كان يُسمع فقط الصوت المكتوم للأشياء المتساقطة، وصوت اللحم فوق اللحم.

أما بالنسبة لردود أفعال الأطفال، فكان هناك اختلاف بينهما تجاه هذه المعارك. كان سامي يصب اللعنات لفترة من الوقت، أو يغادر المنزل، أو يلقي نفسه في أتون المعركة. عُرف عنه، منذ الرابعة عشرة من عمره، هروبه من البيت ليس أقل من سبع وعشرين مرة. وكان يعود، سواء بالقوة أو لظرف قاهر، غاضباً متوعداً.

ومن ناحية أخرى، جربت بيكولا، التي كان يقيدنها شبابها وجنسها، كل أساليب التحمل. وبالرغم من أن هذه الأساليب كانت متنوعة، فإن الألم كان ثابتاً بقدر ما هو عميق.

كانت رغبة طاغية تنازعها بأن يقتل أحدهما الآخر، وأمنية عميقة بأن تموت هي نفسها. كانت تهمس: «لاتفعلي ذلك، ياسيدة بريدلوف، لاتفعلي...». لقد كانت، مثل سامي وكولي، تدعو أمها بالسيدة بريدلوف دائماً.

«لاتفعلي ذلك ياسيدة بريدلوف...لاتفعلي».

ولكن السيدة بريدلوف فعلت ذلك. بفضل الله بلاشك، عطست السيدة بريدلوف. مرة واحدة فحسب.

ركضت إلى غرفة النوم وهي تحمل وعاءً مليئاً بالماء البارد قذفته في وجه كولي. جلس، وهو يشرق بالماء ويبصق على الأرض، ثم قفز من السرير عارياً شاحب الوجه، وأمسك بشكل خاطف بزوجته من خصرها. وسرعان ما ارتميا معاً على الأرض. رفعها كولي وضربها بظهر يديه، فسقطت على مؤخرتها وظهرها مستند إلى سرير سامي. لم تتخلّ عن الإناء، وبدأت بضرب كولي على ساقيه وأعلى الفخذين في ذلك المكان المفقود للحس الذي كانت تثيره منه. وضع قدميه على صدرها، فاسقطت الإناء. وبينما هو يسقط على ركبتيه، ضربها عدة مرات في وجهها. ربما كانت قد استسلمت مبكراً لو لم ترتطم يداها بالسرير المعدني عندما تفادت زوجته الضرب. استغلت السيدة بريدلوف هذا التوقف القصير للضرب، وانزلت من بين يديه. فجأة بدأ سامي، الذي كان يراقب بصمت صراخهم من طرف السرير، يضرب أباه حول رأسه بكلتا قبضتيني وهو يصرخ: «ياقوّاد، ياقوّاد..» أعلى فأعلى فاعلى. ركضت السيدة بريدلوف، التي انقلبت الجولة لصالحها، على رؤوس أصابعها نحو كولي الذي كان يحاول أن ينهض، وضربته ضربتين.

ثم ألقته، وهي تلهث، لحافاً عليه وتركته مستلقياً.

وزعق سامي: «اقتليه ! اقتليه !»

نظرت السيدة بريدلوف إلى سامي بدهشة

«توقف عن هذا الضجيج يا ولد» أعادت غطاء الموقد إلى مكانه، واتجهت إلى المطبخ، ثم توقفت لفترة عند الباب لتقول لابنها: «انهض من الفراش. أنا بحاجة إلى بعض الفحم».

غطت بيكولا، بعد أن تركت نفسها تتنفس بهدوء، رأسها باللحاف، داهمها الشعور بالغثيان، الذي كانت تحاول أن تمنعه بالضغط على

معدتها، بسرعة رغم كل تدابيرها. واعتملت في نفسها الرغبة في التقيؤ، ولكنها كانت تعرف أن ذلك لن يحصل كالعادة.

«أرجوك يا إلهي» همست وراحة يدها على فمها: «أرجوك يا إلهي، دعني اختفي». ضغطت على عينيها لتغلقهما. إضمحلت بضعة أجزاء من جسمها. ببطة، بسرعة كبيرة، ببطة ثانية. اختفت أصابعها، الواحد بعد الآخر، ثم اختفت أذرعها إلى المرفقين. أقدامها الآن. نعم، تم ذلك بشكل جيد. كل رجليها الآن. كان الأمر أصعب مع الفخذين، إذ كان عليها أن تكون ساكنة تملأ ومسيطرة على انفعالاتها. قاومت معدتها ولكنها اختفت أخيراً، ثم صدرها، ثم رقبتها. كان الأمر صعباً مع وجهها أيضاً. ولكنها نجحت تقريباً. بقيت عيناها، عيناها المشدودتان فقط. إنهما بتيقان دائماً. لم تستطع، مهما حاولت بكل قوتها، أن تجعل عينيها تختفيان قط. ما المسألة إذن؟ لقد كان كل شيء كل شيء كان هناك، فيهما. كل تلك الصور، وكل تلك الوجوه. لقد تخلت، منذ وقت طويل، عن فكرة الهروب كي نرى صوراً جديدة، ووجوهاً جديدة، كما كان سامي يفعل غالباً. لم يأخذها معه قط، وهو لم يفكر بوجهة هربه مسبقاً، ولذلك لم يكن الأمر مخططاً له.

وعلى أية حال، لم يكن الأمر لينجح. فمادامت تنظر بتلك الطريقة، ومادامت قبيحة، فإنها ستبقى مع هؤلاء الناس. إنها تنتمي إليهم بشكل من الأشكال. كانت تجلس لساعات طويلة أمام المراة لتكتشف سر القبح، القبح الذي يجعل معلمها وزميلاتها في المدرسة يتجاهلونها ويحتقرونها، إنها التلميذة الوحيدة التي تجلس على طاولة مزدوجة في صفها. الاسم الأول من اسمها يحتم عليها الجلوس في الصف الأول دائماً. ولكن ماذا عن ميري أبولونيير؟ إنها أمامها، ولكنها تشترك مع لوك أنجيلينو في طاولة واحدة. كان معلموها يعاملونها بهذه الطريقة دائماً. لم يحاولوا قط أن يلقوا عليها نظرة خاطفة، وينادونها فقط عندما يطلب من كل شخص أن يجيب على الاسئلة. وكانت تعرف أيضاً أنه عندما تريد أية فتاة من فتيات المدرسة أن تهين ولداً معيناً أو تريد أن تحصل على ردة فعل فورية

منه، فإنها تقول له: «بوبي يحب بيكولا بريدلوف» وعندها تنجح في إحداث ضحك مدوي من أولئك الذين يسمعونها، وغضب زائف من الشخص المتهم.

خطر في بال بيكولا، في وقت ما، بأن عينيها، تائك العينين اللتين خزننا الصور والمشاهد.. لو أن تائك العينين كانتا مختلفتين. بكلمة أخرى لو كانتا جميلتين لأصبحت هي نفسها جميلة. كانت أسنانها بحالة جيدة، ولم يكن أنفها، على الأقل، كبيراً مسطحاً مثل أنوف بعض النساء اللواتي يُعتقد أنهن فانتات جداً. إذا أصبحت مختلفة، جميلة، فربما يصبح كولي مختلفاً أيضاً. السيدة بريدلوف كذلك. ربما سيقولان: «ياالعيني بيكولا الجميلتين.. لا يجب أن نقوم بأشياء سيئة أمام هاتين العينين الجميلتين».

عيون جميلة. عيون زرقاء جميلة. عيون واسعة زرقاء جميلة. اركض يا (جيب) اركض. جيب يركض. أليس تركض. أليس تملك عيوناً زرقاء. جيرري يملك عيوناً زرقاء. جيرري يركض. أليس تركض. إنهما يركضان بعيونهما الزرقاء. أربع عيون زرقاء جميلة. عيون بزرقة السماء. زرقاء مثل بلووزة مستر فورست. زرقاء مثل نجمة الصباح. أليس - و - جيرري - عيون - حكايات - زرقاء.

في كل ليلة كانت تصلي، بانتظام، من أجل عيون زرقاء. لسنة كاملة ظلت تصلي بحرارة. وبالرغم من ثبوت همتها نوعاً ما، إلا أنها لم تفقد الأمل. أن امتلاك شيء رائع كهذا يحتاج إلى وقت طويل. لن تعرف أبداً جمالها بعد أن تملكها اعتقاد راسخ بأن معجزة فقط ستلقدها، ولم تعد ترى إلا شيئاً واحداً: عيون الآخرين.

مشيت في الشارع باتجاه مخزن صغير للبقاليات يبيع سكر نبات بننس واحد. انزلقت البنسات الثلاثة في حداثها. واستقر البنس الرابع بين الجورب وباطن القدم. شعرت مع كل خطوة بضغط القطع المعدنية المؤلم على قدمها. تهيج عذب ممكن تحمله، لا يُنسى، مليء بالوعد والطمأنينة، حتى أنه يبعث على الاعتزاز. هناك وقت كاف لتفكر ماذا تشتري. مشيت

في الشارع العريض مُسافة بالصور المألوفة، المحببة لأنها مألوفة. أعشاب الهندباء البرية على قاعدة عمود التلفون تساءلت لماذا يسميها الناس بالأعشاب الضارة. فكرت بأنها جميلة. ولكن الكبار يقولون: «الآنسة دونيون تعتني كثيراً ببيتها ولاهندباء برية واحدة في أي مكان» دخلت نساء من أوروبا الشرقية بسلالهن لينتزعن أعشاب الهندباء البرية. لم يكن يردن الأطراف الصفراء. بل الأوراق الحادة الخشنة فقط. إنهن يعملن حساء هندباء، ونبيذ هندباء. لا أحد يحب رأس هندباء، ربما لأنها كثيرة جداً، وقاسية. وسريعة الذبول.

كان هناك تصدع جانبي يشبه حرف «Y» وتصدع، آخر شقّ الأسمنت عن الأرضية القذرة. قادتها خطواتها المنزقة مراراً إلى ذلك الشرخ القديم الأملس، حيث كان التزحلق سهلاً عليه، وكانت العجلات تنزلق عليه بشكل متواز، وأزيز خفيف. أما الأرصفة الأخرى المبلطة حديثاً، فقد كانت وعرة وغير مريحة، وكان صوت العجلات المنزقة مهيجاً للأعصاب.

لقد رأت وجربت هذه الأشياء، وأشياء أخرى بليدة. كانت هذه الأشياء بالنسبة لها، هي مفاتيح ووسائل اختبار للعالم، قابلة للنقل والامتلاك. امتلكت ذلك الشق الذي جعلها تتعثر، امتلكت تلك المجموعة من أشجار الهندباء التي أطاحت برؤوسها البيضاء في الخريف الماضي، والتي تحدى في رؤوسها الصفراء هذا الخريف. امتلاكها لها جعلها جزءاً من العالم، وجعل العالم جزءاً منها.

تسلقت أربع درجات خشبية باتجاه باب محل «ياكوبوسكي» الذي يبيع الخضراوات الطازجة، واللحم، وكل شيء. يرن الجرس حالماً تفتح الباب.

تنظر، وهي تقف أمام الطاولة، إلى مجموعة الحلويات. تحسم الأمر: كل أنواع حلوى ماري جينز كل ثلاثة قطع بنس واحد. تخلع حذاءها، وتستخرج الثلاثة بنسات. يلوح رأس السيد «ياكوبوسكي» الرمادي من فوق الطاولة. يرفع عينيه، بعد أن كان مستغرقاً

في التفكير ليوواجهها. عينان زرقاوان. كليلتان. يتحرك ببسطه، مثل صيف هندي تدريجياً، وبشكل غير محسوس، باتجاه الصيف، ينظر تجاهها. عند مكان ما بين بين الشبكية والجسم المنظور، بين الرؤيا والرؤية ترتد عيناه، متردتين، مرفرفتين. عند نقطة محددة في الزمان والمكان، يشعر أنه لا يحتاج إلى بذل جهد لإلقاء نظرة عجل على أنه لا يراها، فلا يوجد، بالنسبة إليه، شيء ليراه. كيف يمكن لصاحب دكان أبيض مهاجر في الثانية والخمسين من عمره، في فمه مذاق البطاطا والبيرة، وعيناه تتوقان لرؤية عيني العذراء ماري اللتين تشبهان عيني الغزال، والذي يعمي أحساسه توجس دائم من الخسارة، أن يرى فتاة سوداء صغيرة؟ لاشيء يوحي أن هناك عملاً مجيداً في حياته، هذا إذا لم نقل مرغوباً أو ضرورياً.

- «نعم؟»

تنظر إليه وترى الفراغ يستقر فيهما بدل الفضول. وشيء آخر. غياب كامل للإدراك الانساني - انفصال ذو غشاوة شبه زجاجية. لا تعرف مالذي يبغي نظراته معلقة، ربما لأنه بالغ أو رجل، وهي فتاة صغيرة. ولكنها رأت سابقاً اهتماماً، وقرفاً، وحتى غضباً في عيون ذكور بالغين. ومع ذلك، فإن هذا الفراغ ليس جديداً بالنسبة لها. إن له نهاية حادة في مكان ما، في أسفل الجفن، يستقر النفور، لقد رآته كامناً في عيون كل البيض. لا بد أن هذا النفور موجه لها، لسوادها. كل الأشياء داخلها في حال تغير دائم، ولكن سوادها سكوني ومفزع. السواد هو المسؤول عن ذلك، وهو الذي يخلق ذلك الفراغ المشبع بالنفور في عيون البيض.

أشارت بإصبعها إلى الحلوى التي اسمها «ميري جينز»، إصبع مثل قصبة صغيرة سوداء، يضغط طرفها المستدق فوق الواجهة. إصرار هادئ غير عدواني لطفلة سوداء تحاول أن تقيم اتصالاً مع رجل كبير أبيض. «هذه» كلمة أقرب إلى التنهيدة منها إلى كلمة ذات معنى «ماذا؟ هذه؟ هذه؟» البلغم ونفاد الصبر يمتزجان في صوته.

هزت رأسها، وثبتت طرف أصبعها على قطعة الحلوى.. لا يستطيع أن يفهم قصدها - زاوية رؤيته، وميلان إصبعها، جعل الأمر غير مفهوم له.

تتحرك يده الحمراء المكتنزة في الخزانة الزجاجية مثل رأس دجاجة مرتعش فقد جسده.

- «ياللمسيح. أليس بمقدورك الكلام؟».

تلامس أصابعه قطعة الحلوى.

تومئ برأسها علامة الموافقة.

- «حسناً لماذا لم تقولي ذلك؟ كم؟ واحدة؟»

فتحت بيكولا قبضة يدها لتريه الثلاثة بنسات. يقذف بثلاث قطع باتجاهها ثلاثة مستطيلات صفراء. تمد له يدها بالنقود. يتردد غير راغب بلمس يدها. لاتعرف كيف تحرك أصبع يدها اليمنى من فوق الواجهة، أو تمديدها اليسرى بالقطع المعدنية.

أخيراً يقترب منها، ويأخذ البنسات من يدها، فتخدش أظافره راحة يدها الرطبة.

تشعر بيكولا، في الخارج، أن خجلها الذي لايمكن تفسيره يتضاءل. أعشاب الهندباء البرية، تتدفق نحوها. دفعات من المحبة تتصاعد من داخل بيكولا. ولكنها لاتنظر إلى بيكولا، ولاتبادلها الحب. وتفكر بيكولا «إنها قبيحة. مجرد أعشاب ضارة» تطفر فوق شقوق الرصيف، مشغولة بهذا الكشف. غضبٌ يستيقظ ويتحرك داخلها. يفتح فاه ويلعق، مثل جرو جائع وعطشان، ماتبقى من خجلها.

الغضب أفضل. هناك معنى لكونك في حالة غضب. شيء حقيقي، موجود. إدراك للقيمة. جيشان جميل. تعود بأفكارها إلى عيني السيد ياكوبوسكي، وصوته المليء بالبلغم. ولكن الغضب لن يصمد. فمن السهل إشباع الكلب، وإرواء ظمأه بسرعة، فينام. ينبثق الخجل ثانية، وينزّ نهيره الطيني في عينيها. مالمعمل قبل أن تنهمر الدموع. تتذكر «ميري جينز».

كل غلاف أصفر باهت عليه صورة. صورة «ميري جينز» صغيرة، تيمناً بها سُميت هذه الحلوى. وجه أبيض مبتسم. شعر أشقر منفوش بلطف،

عينان زرقاوان تطل عليها من عالم مليء بالعزاء والنقاء. العينان شقيقتان وقحتان، ولكنهما، ببساطة، جميلتان بالنسبة لبيكولا. تأكل الحلوى، طعمها لذيذ. أن تأكل الحلوى فهذا يعني، نوعاً ما، أنك تأكل العيون. تأكل ميري جينز. أحبب ميري جينز. كن ميري جينز.

حققت لها ثلاثة بنسات تسع هزاتٍ من النشوة مع ميري جينز. ميري جينز الجميلة التي سُميت الحلوى تيمناً بها.



عاشت ثلاث عاهرات في الشقة التي فوق بيت بريدلوف. تشاينا، وبولند، والآنسة ماريا.

أحبتهن بيكولا، وكانت تقوم بزيارتهن وتأدية بعض المهام الصغيرة لهنّ. وكن هن، بالمقابل، لا يحتقرنها.

صعدت بيكولا السلم إلى شقتهن. واستطاعت، حتى قبل أن يُفتح الباب استجابة لطرقاتها، سماع غناء بولند - كان صوتها عذباً - قاسيا مثل فروالة في صباح ما من أكتوبر/تشرين الثاني، صباح «انتصار غطاء الموقد»، طازجة: «أهلاً يا قشدة. أين جورابك؟» نادراً ماتدعو ماريا بيكولا باللقب نفسه مرتين. ولكن كانت القابها دائماً ألقاباً محببة تختارها من الأطباق وقوائم الطعام الحاضرة أبداً في ذهنها قبل أي شيء آخر.

- «مرحباً آنسة ماريا. مرحباً آنسة تشاينا. مرحباً آنسة بولند».

- «لقد سمعتيني. أين جواربك؟ أنت عارية الرجلين مثل كلب زرائب».

- «لم أستطع أن أجد أيّاً منها».

- «لم تستطعي أن تجدي أيّاً منها؟ لا بد أن شيئاً في بيتكم يحب الجوارب».

ضحكت تشاينا ضحكة خافتة. عندما يفقد أي شيء فإن ماريّا تعزو اختفاؤه إلى «شيء ما يحبه». «شيء في هذا البيت يحب حملات الصدر». كانت تقول متوردة.

كانت بولند وتشاينا على أهبة الاستعداد. بولند تكوي الملابس دائماً، وتغني دائماً، تشاينا، الجالسة على كرسي المطبخ ذي اللون الأخضر الفاتح، تجعد شعرها دائماً. أما ماريّا فإنها لم تكن جاهزة يوماً قط. كنّ ودودات، ولكنهن بطيئات في المبادرة بالكلام فكانت بيكولا تبادر دائماً في الحديث مع ماريّا التي من الصعب أن تتوقف حالما يصيبها الألهام.

- كيف استطعت أن تحصلي على كثير من الأصدقاء آنسة ماريّا؟

- «أصدقاء؟ أصدقاء؟ لم أر ولداً منذ ١٩٢٧».

- «لم تر ولداً منذ ذلك الوقت» غرزت تشاينا أداة تجعيد الشعر في علبة «نوناييل»، فأصدر الزيت هسهسة عند ملاسته المعدن الحار.

أصرت بيكولا على سؤالها: «كيف حصل ذلك؟»

- «كيف حصل ماذا؟ لم أر ولداً منذ ١٩٢٧؟ لأنه لا يوجد شباب منذ ذاك الوقت. لقد انقطعوا منذ ذاك الوقت. وبدأ الناس يولدون شيوفاً».

- «تعين أن ذلك حصل عندما أصبحت أنت عجوزاً».

- «أنا لم أكبر أبداً. لقد سمعت فقط».

- «نفس الشيء».

- «هل تعتقدين أن الناس يظنون أنك شابة لأنك نحيفة؟ يمكن أن تفعل ذلك بحزام».

- «وأنت تبدين مثل بغلة عجفاء».

- «كل ما عرفه أن رجلك المتقوستين مترهلتان مثل رجلي».

- «لاتقلقي بشأن رجلي المتقوستين. إنهما أول شيء يفتحونه».

ضحكت النساء الثلاث. ألقت ماريأ رأسها إلى الخلف، وأتى صوتها المنبثق من أعماقها مثل صوت أنهار متجهة معاً، حرة، عميقة، عكرة، لتصب في بحر مفتوح. وقهقهت تشاينا قهقهة متشنجة. كان كل لهاث يبدو وكأنه أُنْتزَع منها بواسطة يد غير مرئية تهز وترأ غير مرئي. وضحكت بولنדה، التي نادراً ماتت كلم إلا إذا كانت مخمورة، دون صوت، إنها تدندن في الأغلب، عندما لا تكون مخمورة، أو تغني أغاني «البلوز» التي تعرف عنها الكثير.

مدت بيكولا أصبعها لتلمس وشاحاً موضوعاً على الجانب الخلفي من الأريكة: «لم أر أحداً قط لديه عدد كبير من الأصدقاء مثلك آنسة ماريأ. كيف حصل أنهم كلهم يحبونك؟».

فتحت ماريأ قنينة من جعة الجذور^(١).

- «وأي شيء آخر يفعلونه؟ أنا غنية وجميلة. إنهم يريدون أن يضعوا أصابع أقدامهم في شعري المجعد حتى يصلوا إلى مالي».

- «أنت غنية آنسة ماريأ؟»

- «ورثت فلوس ماما ياحلوة».

- «من أين حصلت على المال وأنت بلا عمل؟».

وقالت تشاينا: «نعم، من أين حصلت على المال؟».

- «من هوفر. قدمت له مرة معروفاً لمصلحة أف.بي.آي».

- «ماذا فعلت؟»

- «أسديت له معروفاً. كانوا يريدون أن يقبضوا على هذا المحتال.

اسمه جوني كما تعرفن. كان حقيراً وحالماً...».

- «نعرف ذلك» قالت تشاينا وهي ترتب شعرها.

- «...كان مطلوباً جداً من أف.بي.آي. لقد قتل أناساً أكثر من السل. أما

إذا قاومتيه؟ ياييسوع إنه سيركض خلفك مادامت هناك أرض. حسناً، كنت صغيرة وفاتنة في ذاك الوقت. لم يكن وزني أكثر من تسعين باونداً، رطبة دائماً».

^(١) شراب غازي أو فوار مستخلص من الجذور والأعشاب.

فقال تشانيا: «لم تكوني رطبة في يوم من الأيام».

- «وأنت لم تكوني جافة قط. اسكتي. دعيني أخبرك يا حلوة. وأخبرك بصدق، وأنا الوحيدة التي استطاعت أن توجهه حين كان يذهب ويسرق بنكاً أو يقتل بعض الناس، كنت أقول له: «جونى، لا ينبغي أن تفعل ذلك. فيقول لي أنه ينبغي عليه أن يشتري لي أشياء جميلة، سراويل دانتيل وكل شيء. وكل مساء سبت كنا نشرب قنينة بيرة ونقلني سمكاً. ونقلني خليط جريش وبيض، وعندما يسمر ويصبح هشاً. نفتح البيرة الباردة...» تصبح عينا ماريا أكثر صفاء كلما تذكرت مثل هذه الوجبات، في أي وقت وأي مكان، وتنشّل حركتها. كل حكاياتها كانت تتوقف عند وصف الطعام. رأت بيكولا أسنان ماريا على رقائق ظهر سمك الشبص، رأت الأصابع الدهنية تمتد لتضع في فمها رقائق صغيرة من زلال البيض، وقطعاً من اللحم الأبيض الحار تسقط من فمها، سمعت «فرقة» سداة قنينة البيرة الباردة تحرق لسانها، انتهت حلم الليقة هذا قبل ماريا بفترة طويلة. ثم سألتها: «ولكن ماذا حول الفلوس؟».

فضحكت تشانيا ضحكاً كالعواء: «إنها تتصرف وكأنها السيدة ذات الرداء الأحمر التي وشت بـ«ديلنجر» ديلنجر لن يقترب منك قبل أن يذهب إلى أفريقيا ويصطاد لك فرس النهر».

- «حسناً، فرس النهر هذا له مؤخرة مستديرة في شيكاغو إهوو، يايسوع. تسع وتسعون!»

- «كيف يمكنك أن تقولي دائماً «يايسوع» وتذكرى رقماً؟»

- «لأن أمي علمتني أن لا ألين أحداً أبداً...».

فسألت تشانيا: «ألم تعلمك ألا تسقطي سروالك؟».

- «لم أكن أملك أي سروال. لم أر سروالاً داخلياً حتى بلغت الخامسة عشرة من عمري. عندما تركت جاكسون واشتغلت في النهار في سينسيناتي. أعطتني سيدتي البيضاء بعض سراويلها القديمة، فاعتقدت أنها نوع من القلنسوات الطويلة، فوضعتها على رأسي لأحتمي بها من الغبار. وعندما رأته سيدتي أرادت أن تتعارك معي».

- «لابد أنك كنت فتاة غبية» أشعلت تشانيا سيكارة، وبردت المكواة.
- «وكيف كان بإمكانني أن أعرف؟» توقفت ماريا ثم قالت: «وما الفائدة من لبس شيء ستنزعينه بعد ذلك كل الوقت؟ لم يسمح لي «ديوي» أن احتفظ بها لفترة طويلة حتى لا أعتاد عليها». - «من هو ديوي؟» أنه شخص جديد بالنسبة لبيكولا.
- «ديوي من؟ دجاجة! ألم تسمعيني أتحدث عن ديوي؟» أحست ماريا بالصدمة نتيجة أهمالها هذا.
«لا مدام»

«أوه يا حبيبتي. لقد ضيعت نصف حياتك. قف يا يسوع! واحد تسعة. خمسة. أية نعمة! لقد قابلته عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. هربنا وعشنا معاً كزوجين لثلاث سنوات. هل تعرفين سادة القوم أولئك الذين ترينهم يجررون هنا؟ لو جمعت خمسين منهم معاً فانهم لا يعادلون عظمة واحدة من ركبة الأمير ديوي. آه يا إلهي كم كان يحبني!». كانت تشانيا ترتب خصلات من شعرها محدثة صوتاً مسموعاً: «إذن لماذا تركك تبيعين مؤخرتك؟».

- «يا صبية، حينما اكتشف أنني أستطيع أن أبيعها، وأن أحداً ما يدفع لي نقداً من أجلها، فإنك تستطعين أن تطرحيني أرضاً. بريشة». ضحكت بولند دون صوت!

- «وأنا أيضاً. جلدتني عمتي، في المرة الأولى، حين أخبرتها بأنني لم آخذ فلوساً. قلت لها: فلوس؟ لماذا؟ إنه ليس مديناً لي بشيء». فقالت: «الجحيم أنه ليس مديناً لك».

غرقن كلهن في الضحك.

ثلاثة جارجو يلات^(١) مرحات. ثلاث عجائز شكسات مرحات. يسليين أنفسهم بتذكر زمن الجهل الذي مضى عليه وقت طويل. لم يكن منتميات

^(١) جارجويل: مثال أو شخص بشع الوجه.

إلى تلك الأجيال من العاهرات التي ابتكرتها الروايات، ذوات القلوب
الكريمة اللواتي كرسن أنفسهن لجعل حيوات الرجال النكدة حياة
محتملة، واللواتي يأخذن نقوداً عرضاً وتبذل لقاء «تفهمهن».

وليس هن من الصنف الحساس من الفتيات المشابات اللواتي أدت بهنّ
الأقدار إلى الزلل، وأجبرن على تنمية هشاشة خارجية ليحمين شباهن
من صدمات إضافية، ولكنهن كن يعرفن أنهن صالحات لأشياء أفضل.
وقادرات على أسعاد الرجل المناسب. ولم يكن، أيضاً، من نوع العاهرات
القذرات غير القادرات على كسب عيشهن من العهر فقط، فيتحولن إلى
استهلاك المخدرات والاتجار بها، أو إلى قوادات ليكملن تدميرهن الذاتي،
إنهن يتجنبن الانتحار فقط من أجل معاقبة ذكرى أب غائب، أو ليغذين
بؤس أم صامتة، وماعدا حب ماري الخرافي للأمير ديوي، فإن تلك النسوة
كرهن الرجال، كل الرجال، دون خجل، أو اعتذار، أو تمييز. إنهن
يُشن معاملة زوّارهن ويحتقرنهم بشكل أصبح آلياً نتيجة الممارسة. رجال
سود، رجال بيض، بورثوريكان، مكسيكيون، يهود، بولونيون، أيا كانوا
كلهم غير مناسبين، كلهم ضعفاء كلهم كانوا يمرون تحت عيونهن
الحاقدة، وكن يستقبلن غضبهم ولا مبالاة لهم. لكن يجدو متعتهن في
خداعهم. وهناك حادثة تعرفها كل المدينة. فقد أغوين مرة يهودياً على
السلم، وانقضضن عليه ثلاثتهن، ثم حملنه من كعبيّ قدميه، بعد أن
بعثرن كل شيء في جيوب بنطاله، وقذفنه من النافذة.

كذلك لم يكن يحترمن النساء اللواتي يخدعن أزواجهن، بشكل منتظم
أو غير منتظم، فهذا لا يغير من الأمر شيئاً، رغم أنهن لسن زميلات لهن
إذا صح التعبير. كن يسمينهن «العاهرات المظلمات بالسكر»^(١) ولم يكن
يتقن أن يحلن محلهن. كن يحترمن فقط النساء اللواتي يدعونهن به النساء
المسيحيات الملوّات الطيبات»، النساء اللواتي كانت سمعتن بلا شائبة،

^(١) في الأصل sugar-coated: يلبس بالسكر، أي يجعله جذاباً أو سائغاً على نحو سطحي أو
ظاهري.

اللواتي يرعين عوائلهن، اللواتي لا يشربن أو يدخن أو يجرين هنا وهناك. هاته النساء يملكن محبة لاثموت ولو أنها خفية. وينمن مع أزواج هاته النساء، ويأخذن نقودهم، ثاراً لهن.

لم يحمين أو يحرصن على براءة شبابهن، فهن ينظرن إليه على انه عهد الجهل، ويتأسفن على أنهن لم يستقدن أكثر منه. وكذلك لم يكن فتيات شابات في ملابس عاهرات، أو عاهرات يتندمن على فقدان البراءة، بل كن عاهرات في ملابس عاهرات، عاهرات لم يكن شابات قط، ولم يعرفن كلمة البراءة. كن مع بيكولا حرات كما مع بعضهن البعض. كانت ماريا تختلق القصص لها لأنها طفلة، وكانت قصصاً مرحة وغير مهذبة. ولو أن بيكولا عبرت عن نيتها أن تعيش الحياة التي يعشنها، لما حاولن ثنيها عن ذلك أو تحذيرها.

- «عندكم أطفال أنت وديوي برنس آنسة ماريا؟»

- «نعم، عندنا بعض الأطفال».

تململت ماريا، وسحبت دبوساً من شعرها، وبدأت تنظف أسنانها، وكان هذا يعني أنها لاتريد أن تتكلم أكثر.

اتجهت بيكولا إلى النافذة ونظرت إلى الشارع الفارغ. حزمة من العشب شقت طريقها إلى الأعلى من خلال شق في الرصيف، من أجل أن تستقبل ربح أكتوبر الرطبة.

فكرت بديوي برنس وكم كان يحب ماريا. كيف يبدو الحب؟ ماذا يفعل الكبار حين يحبون بعضهم بعضاً؟

يأكلون سمكاً سوية؟ قفزت إلى ذهنها صورة كولي والسيدة بريدلوف في الفراش. إنه يصدر أصواتاً كأنه يتألم، كأن شيئاً أمسكه من حنجرتة وأبي أن يتركه. ولكن مهما كان ضجيجهم مزعجاً، فإنه ليس أكثر ازعاجاً من ذلك السكون الذي تغرق فيه أمها وكأنها ليست هناك. ربما يكون هذا هو الحب.

نظرت بيكولا إلى النساء الثلاث وهي تدير عينيها عن النافذة. وكانت بيكولا قد غيرت رأيها بخصوص الخصلات القصيرة، وبدأت بعمل

تسريحة بومبادور صغيرة^(١). كانت بارعة في ابتداع عدة أشكال من تسريحات الشعر. ولكن بعد كل تسريحة تشعر بالانزعاج والضيق. ثم وضعت مكياجاً مبالغاً فيه، فعملت لنفسها حاجبين مذهشين وفماً مثل سهم كيوييد، وفيما بعد غيرت ذلك، فعملت حاجبين شرقيين، وفماً مشقوقاً بشكل شيطاني.

بدأت بولند بصوتها العذب كالفريز تغني أغنية أخرى:

أعرف فتىً أسمر اللون كسماء رائقة

أعرف فتىً أسمر اللون كسماء رائقة

يقفز التراب فرحاً حين تلامس قدماه الأرض

يتبختر كالطاووس

عيناه نحاس متوهج

ابتسامته شراب من عصير السكر

يقطر حلاوته شيئاً فشيئاً

إلى آخر قطرة

أعرف فتىً أسمر مثل سماء رائقة.

جلست ماريا تقشر فولاً سودانياً وتدسّه بسرعة في فمها. وظلت بيكولا

تنظر، وتنظر إلى هاته النساء. هل هن حقيقيات؟

ثم تجشأت ماريا بصوت خفيض، ناعم، لطيف.

^(١) تسريحة يرفع الشعر عالياً فوق الجبين.

الشتاء

وجه أبي يستحق الدراسة. يزحف إليه الشتاء ويتصدره. تصبح عيناه جرفاً من الثلج يذُر بكتلة جليدية ضخمة. ينثني حاجباه مثل فروع كبيرة سوداء في أشجار عارية من الأوراق. يتخذ جلده لون شمس الشتاء الأصفر، الباهت، الكثيب. فكة مثل حافة حقل محاصر بالثلج منقط بالقش. جبينه العالي مثل تيار متمجد في بحيرة «أيري»، تدفق مكتوم من أفكار باردة تدوم في الظلام. تحول قاتل الذئاب إلى مقاتل صقور. اشتغل ليل نهار ليرد غائلة الجوع. إله يحرس النار، ويعطينا تعليماته حول أي الأبواب يجب أن نغلقها أو نفتحها من أجل توزيع مناسب للحرارة، يضرم النار، يبحث بالتفصيل نوعية الفحم، ثم يعلمنا كيف نقلبه، ونغذي النار، ونكوم الفحم.

* * *

طوق الشتاء رؤوسنا بطوقه البارد وأذاب عيوننا. وضعنا مسحوق الفلفل في الجوارب. وفازلين على وجوهنا. وكنا نحدق خلال الصباحات المظلمة الباردة كالثلاجة في أربع قطع من البرقوق المجفف، وأكوام من دقيق الشوفان، وأوراق من الكوكا المجففة التي تغطيها القشور لكننا كنا، في أغلب الأحيان، ننتظر الربيع حين ستخضر الحدائق.

وفي الوقت الذي كان فيه الشتاء متيبساً في أنشطة بغیضة لا يمكن لأي شيء أن يحلها، شيء ما حلها، أو بالأحرى، شخص فك الأنشطة إلى خيوط فضية تشبكنا، تشربكنا، تجعلنا نتوق إلى ذلك الغيظ البليد الذي كان يسببه السأم في السابق.

مُزَّقُ الفصول هذا كان فتاة جديدة في المدرسة اسمها مورين بيل. فتاة خلاسية طويلة رائعة الجمال بشعر بني طويل مجدول في جديلتين متدليتين على ظهرها. كانت غنية، حسب مقاييسنا على الأقل، غنية مثل أغنى الفتيات البيض، وتبدو عليها الراحة والسعادة. وكانت نوعية ثيابها تجعلنا، فريدا وأنا، نفقد عقلينا. أحذية ذات جلد صقيل بإبزيم، كنا نحصل على أحذية رخيصة تقليداً لها في عيد «الفصح» فقط، وما أن يحل/ أيار، حتى تكون قد تمزقت. كنزات من الوبر لها لون قطرات الليمون مثبتة تحت تنورات ذات ثنيات مرتبة بشكل يصعقنا. جوارب قصيرة ملونة بحواش بيضاء، وسترة بنية مخملية محلاة بالفرو الأبيض، وفروة تنسجم معها. كانت هناك لمعة من الربيع في عينيها ذات الاخضرار الغامق، وشيء صيفي في بشرتها، ونضوج خريف ثري في مشيتها.

لقد سحرت المدرسة كلها. يبتسم لها المعلمون مشجعين حين يسألونها، ولا يدفعها الأطفال السود في الحفر، ولا يرمونها بحجر، ولا تصك الفتيات البيض على أسنانهن عندما تكون شريكتهن في العمل، وتحنني الفتيات السود جانباً حين تريد أن تستخدم حنفية التواليت، ويسبلن عيونهن تحت أجفانهن. لم تكن مضطرة للبحث عن زميلة لتأكل معها في الكافيتريا، فالكل يتسابق إلى الطاولة التي اختارتها، حيث تتناول وجبات فاخرة تجعلنا نحس بالخجل من خبزنا المتشرب بالجلي، وسندويش البيض مع السلطة المقسم إلى أربع قطع رقيقة، وأكواب كيك، ومرقة جزر وكرفس، وتفاخ كبير غامق. وكانت تشتري وتحب حتى الحليب.

كنا، فريدا وأنا، مذهولتين، ماثرتين. ومسحورتين بها. وكنا نحاول أقصى مانستطيع أن نكتشف أي عيب فيها لنستعيد توازننا، واكتفينا، في البداية، باختيار اسم بشع لها، فغيرنا مورين بيل إلى «ميرنجيو باي»^(١). وفرحنا فرحاً شديداً حين اكتشفنا، فيما بعد، أن لها ناباً - رغم أنه جميل حقاً - ولكنه ناب مع ذلك وضحكنا عندما اكتشفنا إنها ولدت بست أصابع

(١) أي حلوى تصنع من بياض البيض والسكر.

في كلّ يد، وقد ترك كل إصبع نتوءاً صغيراً بعد إزالته. كانت انتصارات صغيرة، ولكننا استفدنا منها قدر مانستطيع - ضحكات نصف مكتومة خلفها، وتسميتها بالحلوى ذات الست أصابع وناب. ولكن كان علينا أن نفعل ذلك وحدنا، فلم تتعاون أي من الفتيات الأخريات معنا في عداوتنا هذه. وعندما خصّصت لها خزانة بعد خزانتي، كنت أطلق لعنان لغيرتي أربع مرات في اليوم. وراودتنا الشكوك، أنا وأختي، بانهم يعدون، بشكل خفي، لجعلنا صديقات، هذا إذا سمحت هي بذلك. ولكني كنت أعرف أن هذه الصداقة ستكون صداقة خطرة، لأنني كلما تتبعت بعيني تلك النقوش البيضاء على حواشي جواربها ذات اللون الأخضر الضارب إلى الصفرة، وشعرت بارتخاء وتهدل جواربي البنية، أردت أن أركلها. كلما فكرت بذلك الترفع المروث في عينيها، أردت أن اضربها على يدها بباب الخزانة.

بدأنا نعرف بعضنا قليلاً بسبب قرب خزانتينا من بعضهما، واستطعت حتى أن أتبادل معها حديثاً معقولاً دون أن أتصورها ساقطة من جرف صخري، أو أفهقه مما أتصوره إهانة ذكية.

في أحد الأيام، بينما كنت انتظر أختي، اقتربت مني قائلة:

- «مرحباً»

- «مرحباً»

- «تنتظرين أخذك؟»

- «أي.. أي»

- «في أي طريق تذهبان إلى البيت؟»

- «شارع ٢١، إلى البرودواي».

- «لماذا لا تذهبان إلى الشارع ٢٢».

- «لأنني أعيش في شارع ٢١».

- «أوه، بإمكانني أن اتخذ هذا الطريق كما أعتقد... جزءاً منه على أية حال».

- «نحن في بلد حر».

أقبلت فريدا نحونا، وجواربها البنية ممطوطة عند ركبتيها، لأنها عقلت أصبع قدمها حتى تخفي شقاً في الجورب عند الكعب.
- «ستمشي مدرين جزءاً من الطريق معنا».

تبادلنا النظرات فريدا وأنا. كانت عيناها تتوسل تحفظاً مني، بينما بقت عيناها جامدتين. كان يوماً ربيعياً كاذباً، اخترق، مثل مورين، قشره شتاء مائت، فقد ضللتنا فيه البرك الموحلة، والطين، والدفء المغربي، إنه من تلك الأيام التي نثني فيها معاطفنا فوق رؤوسنا، ونترك فيها الكلوشات^(١) في المدرسة، فنأتي في اليوم التالي ونحن مصابات بالخناق. كنا نستجيب لأي تغيير في الجو في اللحظة ذاتها. وكنا فريدا وأنا، وقبل أن تتحرك البذور بوقت طويل، نحني أعناقنا ونلكز الأرض، نملأ أفواهنا بالهواء، ونشرب المطر. ما أن انطلقنا من المدرسة مع مورين، حتى بدأنا نتخلص من أغطية رؤوسنا ومعاطفنا. وضعنا الأغطية في جيوب المعاطف، ووضعنا المعاطف فوق رؤوسنا. كنت أتساءل في داخلي عن الطريقة التي ألقى فيها بقلنسوة مورين الصوفية في البالوعة مستغلة الزحام في ملعب الأطفال. كانت مجموعة من الأطفال تشكل، عند تجويف في الحائط، حلقة حول ضحيتها: بيكولا بريدلوف، إنهم باي بوي، وودروكين، وبودي، وويلسون، وجوني بوغ - مثل قلادة من أحجار شبه كريمة كانوا يطوقونها. وكانوا، وقد أسكرتهم رائحة المسك التي تفوح منهم، وإحساسهم بالانتشاء بقوتهم العددية البسيطة، يقومون بغارات متكررة عليها وهم مبتهجون:

«سوداء، ياسوداء أبوك ينام عارياً... ياسوداء، ياسوداء أبوك ينام عارياً... ياسوداء...»

كان يرتجلون بيتاً من الشعر مؤلفاً من إهانتين حول أمور خارج إرادة الضحية: لون جلدها، وتخمينات متنافرة جداً عن عادات النوم عند رجل كبير السن، فإن يكونوا هم أنفسهم سوداء، وقد يكون آباءهم لهم العادات نفسها في الاسترخاء، فهما أمران لاعلاقة لهما بالموضوع. إن احتقارهم

^(١) الكلوش: حذاء فوق مطاطي يلبس فوق الحذاء العادي.

لسوادهم هو مايمنح الإهانة الأولى تأثيرها المؤلم. كانوا يبدون وكأنهم أخذوا كل جهلهم الذي تربوا عليه، وكل الكره الذاتي العنيف الذي تعلموه، وكل ذلك اليأس الحاد المضر، وضعوا ذلك داخل قمة بركان مستعر من الاحتقار، ظلّ مشتعلًا لعصور في تجاويف عقولهم، ثم برد، ثم اندلق على الشفاه الغاضبة ملتهمًا كل شيء في طريقة. رقصوا رقصة الموت حول الضحية التي كانوا مهينين، من أجل سواد عيونهم، للتضحية بها حتى النفس الأخير.

ياسوداء، ياسوداء، أبوك ينام عارياً

تا...تا تا...تا

تا...تا تا...تا

تحركت بيكولا ببطء حول الحلقة وهي تبكي، وكانت قد ألفت دفاترها المدرسية، وغطت وجهها بيديها.

كنا نراقب ذلك خائفين من أنهم قد يلاحظوننا، ويهجمون علينا، ثم خطفت فريدا، بضراوة وعنف ماما نفسها، معطفها من رأسها ورمته على الأرض. اندفعت تجاههم وهوت بكتبها على رأس وودروكين. تفرق الأولاد، وأمسك «وودروكين» برأسه:

«مرحباً يا صبية!»

«توقف عن ذلك.. هل تسمع؟» لم نسمع صوت فريدا بهذه القوة من قبل، كان عالياً وواثقاً. ربما لأن فريدا كانت أطول منه، ربما لأنه رأى عينيها، أو ربما فقد اهتمامه بهذه اللعبة. وربما كان متعلقاً بفريدا.. على أية حال، بدا «وودروكين» مرعوباً لفترة منحت فريدا شجاعة إضافية.

«دعها وشأنها، وإلا أخبرتك كل شخص بما فعلت.»

لم يجب وودورا، واكتفى بتقليب عينيها في اتجاه آخر. أخذ باي بوي الكلام: «استمري يافتاة.. لن يزعجك أحد.»

- «أسكت أنت يا أحمرق» وجدت لساني أخيراً.

- «من دعاني بالأحمرق؟»

- «أنا دعوتك بالأحمرق. يا أحمرق.»

سحبت فريدا بيكولا من يدها
«تعالى» رفع باي بوي قبضته على: «تريدين لطة على وجهك؟»
- «نعم، هات واحدة».
- «ستنالين واحدة».

ظهرت مورين قربي. فبدأ الأولاد غير راغبين بالاستمرار أمام عينيها
المشرقتين المليئتين بالربيع. واللتين انفتحتا على سمعتهما اهتماماً. أخذوا
يلتوون، وتراجعوا مرتبكين غير راغبين بضرب ثلاث فتيات تحت نظراتها
المحدقة الليظة. لقد سمعوا نداء غريزة ذكورية آخذة بالنمو تأمرهم أن
يتظاهروا بأننا غير جديرين باهتمامهم.
- «تعال يارجل».

- «نعم، تعال. ليس عندنا وقت لنبدده معهن».
وانسحبوا مدممين بضعة ألقاب نابية بلا مبالاة.
التقطت دفاتر بيكولا المدرسية ومعطف فريدا، ثم تركنا أربعتنا الساحة.
- «صبي عنيد، يزعم الفتيات دائماً». اتفقت معي فريدا في ذلك.
- «تقول المعلمة فورستر بأنه فاسد لا سبيل إلى تقويمه».
- «حقاً؟ لا أعرف ماذا يعني ذلك. لكنه حكم يبدو منطبقاً على باي
بوي تماماً».

بينما كنا نتحدث باهتمام عن الشجار، وضعت مورين، وقد دبّت فيها
الحيوية فجأة، ذراعها ذات الأكمام المخملية على خصر بيكولا. وبدأت
تتصرف وكأنهما صديقتان حميمتان جداً.

- «لقد أتيت لتوي إلى هنا. اسمي مورين بيل. ما اسمك؟»
- «بيكولا».

- «بيكولا؟ أليس هذا هو اسم الفتاة في «محاكاة الحياة»؟»
- «لا أعرف. ماهذا؟»

«فيلم تكره فيه الفتاة الخلاسية أمها لأنها سوداء وقبيحة، ولكنها
تبكي كثيراً في جنازتها. كان فيلماً حزيناً جداً بكى كل شخص شاهده
حتى كلوديت كولبيرت».

«آه!» كان صوت بيكولا أقرب إلى التنهيدة.
«على أية حال، كان اسمها بيكولا أيضاً. كانت جميلة جداً، حين يعرض ثانية سأراه أيضاً. أمي رآته أربع مرات».
كنا، فريدا وأنا، نمشي خلفهن، مندهشتين من كون مورين تمشي مع بيكولا، ولكننا كنا مسرورتين مع ذلك، ربما أنها بعد كل شيء، ليست سيئة. وضعت بيكولا سترتها على رأسها ثانية، وأسرعنا نحن بملابسنا الجوخ مستمتعتين بالنسيم الدافئ وبطولات فريدا.
سألت مورين بيكولا:

ـ «أنت معي في صف الجمناستك.. أليس كذلك؟»

ـ «نعم»

أنا متأكدة أن هناك تقوساً في ساقبي الآنسة، وأنا أراهن أنها تظن أنهما جميلتان. كيف تلبس هي سروالاً قصيراً بينما نرتدي نحن تلك السراويل الطويلة القديمة الموضوعة؟ أتمنى أن أموت كلما لبستها.
ابتسمت بيكولا دون أن تنظر إلى مورين التي توقفت لفترة قصيرة قائلة: (هذا محل «إيزالي»).

هل تريدین بوظة؟ عندي فلوس. فتحت جيباً خفياً في الفروة الأسطوانية، وسحبت منه ورقة نقدية مدعوكة من فئة الدولار، وسامحتها على تلك الجوارب الطويلة.

ـ «لقد رفع عمي دعوى على محل إيسالي. رفع دعوى عليهم في «اكرون». قالوا أنه أخلّ بالنظام ولذلك لن يشغلوه، ولكن صديقاً له، شرطياً، أيّد شهادته فنجحت الدعوى».
ـ «ماهي الدعوى؟»

ـ «الدعوى هي عندما تريدین أن تتغلبی عليهم إذا أردت ذلك، ولا يستطيع أي شخص أن يفعل لك شيئاً».

عند مدخل «إيزالي» استدارت مورين إلينا وسألتنا:

ـ «هل تشتريين آيس كريم؟» نظرنا إلى بعضنا ثم قالت فريدا:

ـ «لا».

اختفت مورين مع بيكولا في المخزن.

نظرت فريدا بوداعة باتجاه الشارع، وفتحت فمي، ولكنني أغلقتة سريعاً. من المهم جداً أن لا يعرف العالم بأنني أتوقع تماماً من مورين أن تشتري آيس كريم، وإنني، خلال ١٢٠ ثانية مضت، انتقيت حتى النكهة، وأنني بدأت أحب مورين، وأن أي واحدة منا لم تكن تملك بنساً واحداً.

افترضنا أن مورين كانت لطيفة مع بيكولا بسبب الأولاد، وكنا مخرجتين أن يضبطنا أحد - حتى من قبل بعضنا البعض - بأنها ستعامل معنا مثل تعاملها مع بيكولا، وأننا نستحق ذلك بقدر ما هي تستحقه.

خرجت الفتاتان وكانت بيكولا تحمل علبتين من الأناناس والبرتقال، ومورين علبة توت عليق أسود.

وقالت لنا: «كان ينبغي أن تشتروا شيئاً. عندهم كل الأنواع» ونصحت بيكولا قائلة: «لا تأكله حتى نهاية العلبة».

- «لماذا؟».

- «لأن هناك ذبابة».

- «كيف عرفت؟»

- «أوه، إني امزح. أخبرتني فتاة مرة أنها وجدت ذبابة في أسفل العلبة. ومنذ تلك المرة وهي ترمي العلبة قبل نهايتها»
- «أوه».

اجتزنا مسرح «أرض الأحلام». وكانت «بيتي غرايل» تبتسم لنا.

سألت مورين: «ألا تحبونها؟»

فردت بيكولا: «أوه، نعم».

ولكنني اختلفت معها: («هيدي لامر» أفضل).

فوافقتني مورين: «أو، أو، نعم. أخبرتني أمي أن فتاة تدعى أودري ذهبت إلى محل للتجميل في المنطقة التي كنا نعيش فيها سابقاً، وسألت الدام أن تصف شعرها مثل شعر هيدي لامر، فقالت السيدة: «نعم، عندما تربين شعراً مثل هيدي لامر» ضحكت طويلاً بعدوبة.

قالت فريدا: «يبدو أنها مجنونة».

- «نعم بالتأكيد. أنها حتى لم تحض بعد وهي في السادسة عشرة وأنتن؟».

فقالت بيكولا وهي ترمقنا: «نعم».

- «وأنا كذلك». لم تبذل أية محاولة لإخفاء فخرها بذلك.

«منذ شهرين بدأ الطمث معي. قالت صديقتي التي تعيش في توليد وحيث عشنا سابقاً، بأنها عندما بدأ معها ذلك كانت خائفة حتى الموت، وظننت أنها قد قتلت نفسها».

وسألت بيكولا وكأنها تأمل أن تجد الجواب بنفسها: «هل تعرفين لماذا؟».

«من أجل الأطفال». قالت مورين ذلك رافعة حاجبيها، متعجبة من سذاجة السؤال: «يحتاج الأطفال إلى الدم عندما يكونون داخلك، وعندما تحملين بطفل، فإن الطمث يتوقف. ولكن عندما لاتحملين، فانك لاتحتاجين إلى توفير الدم فيخرج».

وسألت بيكولا:

- «كيف يحصل الأطفال على الدم؟»

- «من خلال الحبل السري، أنتن تعرفين، حيث السرة، حيث ينمو الحبل السري ويضخ الدم إلى الطفل».

- «حسناً، إذا كان الحبل السري ينمو من السرة ليعطي الدم إلى الجسم، وأن الفتيات وحدهن يحملن، فكيف نفسر أن الأولاد لهم سرة أيضاً».

ترددت مورين وأقرت أنها لاتعرف، ثم أردفت قائلة: «ولكن الأولاد يملكون كل الأشياء التي لايحتاجونها».

كان ضحكها الرنان أقوى نوعاً مامن ضحكنا العصبي. تدلى لسانها قريباً من حافة العلبة، وغرقت كمية من ذلك الآيس كريم مما جعل عينيها تدمعان. كنا ننتظر علامة التوقف الحمراء، بينما استمرت مورين تغرف الآيس كريم من حافة العلبة بلسانها. لم تعض الحافة كما كنت سأفعل، بل كانت تدور لسانها فقط.

انتهت بيكولا من أكل الآيس كريم. كان من الواضح أن مورين تحب أشياءها حتى النهاية. وبينما أفكر في بوظتها، فلا بد أنها كانت تفكر في ملاحظتها الأخيرة لأنها سألت بيكولا:

- «هل رأيت رجلاً عارياً؟».

- «لا. أين يمكنني أن أرى رجلاً عارياً؟».

- «لا أعرف. مجرد سؤال».

- «لن أنظر إليه حتى لو رأيته. شيء قدر. من تريد أن ترى رجلاً عارياً؟»

كانت بيكولا مضطربة. «لا يتعري أي أب أمام ابنته حتى لو كان أباً قذراً».

- «لم أقل «أباً» قلت فقط «رجلاً عارياً؟».

- «حسناً...».

- «كيف خطر لك أن تقولي «أباً؟» أرادت مورين أن تعرف».

«وأي شخص آخر يمكن أن تريه يا ذوات الناب؟» كنت سعيدة بهذه الفرصة للتعبير عن غضبي. ليس فقط بسبب الآيس كريم، ولكن لأننا رأينا أباناً عارياً، ولم نبال بأن يذكرنا أحد بذلك، ونشعر بالخجل لغياب هذا الخجل. اجتاز الردهة خارجاً من غرفة الحمام إلى غرفة النوم أمام باب غرفتنا المفتوحة حيث كنا نتمدد وعيوننا مفتوحة، وكان هو يتوقف وينظر إلى الداخل محاولاً أن يرى إذا كنا ناثمات حقاً في تلك الغرفة المظلمة. هل تراهي له أن هناك عيوناً مفتوحة تنظر إليه؟ من الواضح أنه اقنع نفسه أننا ناثمات. تحرك مقتنعاً بأن بناته الصغيرات لا يتمددن وعيونهن مفتوحة، تحديق، وتحديق، وعندما ابتعد لم يغيب الظلام عريه فقط، إنما غيبة هو أيضاً. بقي ذلك المشهد معنا وكأنه صديق.

قالت مورين: «لست أتحدث معك. بالاضافة إلى أنني لا أهتم إذا كانت ترى أباه عارياً. تستطيع أن تنظر إليه طوال اليوم إذا أرادت ذلك. من يهتم؟»

فقال فريدا: «أنت تهتمين. هذا كل ماتحدثين عنه».

- «ليس صحيحاً».

- «إنه صحيح. الأولاد، الأطفال، الأب العاري. لابد أنك مجنونة بالفتيان».

- «من الأفضل أن تهدأي».

- «من سيرغمني على ذلك؟» وضعت فريدا يدها على وركها.

- «سترغمن كلكن على ذلك. أمك ستفعل».

- «كفي عن الحديث عن ماما».

- «وأنت كفي عن الحديث عن بابا».

- «من تحدث عن أبيك العجوز؟».

- «أنت فعلت».

- «حسناً. أنت بدأت ذلك».

- «لم أكن أتحدث معك. كنت أتحدث مع بيكولا».

- «نعم، حين رآته عارياً».

- «وماذا لو رآته».

فصرخت بيكولا: «لم أر بابا عارياً أبداً... أبداً».

فردت مورين بجفاء: «لقد رأيته.. باي بوي قال ذلك».

- «لم أره».

- «لقد رأيته».

- «لم أره».

- «لقد فعلت.. لقد رأييت أباك».

رفعت بيكولا رأسها.. حركة مضحكة، حزينة، يائسة، نوع من إحناء الكتفين، وانزال الرقبة وكأنها تريد أن تغطي أذنيها.

قلت: «توقفي عن الحديث عن أبيها».

فسألت مورين: «وبماذا يهمني أبوك العجوز الأسود؟».

- «أسود؟ من تدعيه بالأسود؟».

- «أنت ا».

- «وأنت تظنين نفسك فاتنة! وجهت لها كلمة ولكنني أخطأتها، فجاءت في وجه بيكولا. رميت دفاتري المدرسية عليها، وقد ازداد هياجي بسبب عدم دقتي، فأصابتهما من الخلف لأنها كانت قد استدارت وأسرعت عبر الشارع عكس حركة المرور.

صرخت بنا وقد شعرت بالأمان على الجانب الآخر:

- «أنا جميلة، وأنتن قبيحات. سوداوات وقبيحات، وأنا جميلة».

ركضت في الشارع، وبدت سيقانها. بسبب الجوارب الخضراء، مثل سويقتي هندباء برية فقدت، بطريقة ما، قممتها مرت ثانية أو اثنتين قبل أن نستعيد، فريدا وأنا، نفسينا ونصيح: «يا فطيرة الكريما ذات الأصابع الست والنان». ظللنا نترنم بذلك، بقوة أكبر من خزنينا من الأهانات، طوال رؤيتنا لتلك السيقان الخضراء وفرو الأرنب.

كان الكبار يقطبون جباههم لمشهد الفتيات الثلاث على حافة الرصيف، حيث تضع اثنتان منهن معطفيهما على رأسيهما، فتشكل الباقات أطراً حول الحواجب مثل رداء الراهبات، أما أربطة الجوارب فكانت تكشف عن مواضع الثقوب في أعلى تلك الجوارب البنية التي لاتكاد تغطي الركب. وبدت الوجوه الغاضبة معقودة وكأنها قرنبيط أسود.

وقفت بيكولا بعيدة قليلاً عنها، وعيناها مركزتان على الجهة التي اختفت فيها مورين. بدت منكشة على نفسها، مثل جناح مطوي. أثار ألها في نفسي شعوراً عدائياً. أردت أن أهاجمها، أن أهشم أطرافها، أن أهوي بعضاً على عمودها الفقري المتقوس المحدوب، وأن أرغمها على الوقوف منتصبه، وبصق ذلك البؤس في الشارع. ولكنها كانت تتمسك به وتحتضنه في عينيها. انتزعت فريدا سترتها من فوق رأسها: «تعال ياكلوديا مع السلامة يابيكولا».

انطلقنا مسرعتين أولاً، ثم بشكل أبطأ، ونحن نتوقف، بين الحين والآخر، لنشد أربطة جواربنا، وأحذيتنا، ونهرش أو نتفحص ندوبنا القديمة. كنا نعوص تحت وطأة كلمات مورين الأخيرة، الحكيمة والدقيقة، النابته. إذا كانت جميلة - وإذا كان كل شخص يعتقد أنها جميلة - فهذا يعني أننا لسنا جميلات. ماذا يعني هذا؟ يعني أننا أقل شأناً قد نكون ألطف، أذكى، ولكن أقل شأناً. بإمكاننا أن نحطم الدمى، ولكننا لانستطيع أن نحطم الأصوات العذبة للأمهات والآباء، والإذعان في عيون قريناتنا، والضوء الغامض في عيون المعلمين عندما يواجهون مورين بيلرز، للؤلؤة

العالم. ماهو السرّ؟ ما الذي نفقتر إليه؟ وهل هو شيء مهم؟ دون نفاق، دون غرور، كنا مانزال، حينئذ، مفتونات بأنفسنا. نشعر بالراحة داخل جلودنا، ونستمتع بكل شيء جديد تطلقة حواسنا، ونعجب بقذاراتنا، ونتعهد ندوبنا بالرعاية، لم نستطع قط فهم عدم جدارتنا. فهمنا الغيرة واعتقدنا أنها شيء طبيعي.. رغبة في أن تمتلك مملكه شخص آخر، ولكن الحسد كان شيئاً غريباً عنا. عرفنا، في تلك الأوقات، أن مورين بيرل ليست «العدو» ولا تستحق منا هذه الكراهية الشديدة. إن «الشيء» الذي يجب أن نخشاه هو «الشيء» الذي جعلها «ها» جميلة؟ ولم يجعلنا كذلك. كان البيت هادئاً حين فتحنا الباب. وملأت أنوفنا رائحة اللفت اللاذعة، وغطى خدودنا بخاره النتن.

«ماما».

لاجواب، ولكن صوت أقدام فقط. كان السيد هنري يجرجر أقدامه عند منتصف السلم، ثم ظهرت من ثوب الحمام ساق مكتنزة بلا شعر. «أهلاً غريتا غاربو، أهلاً جتجر روجرز» صدرت منا تلك القهقهات التي تعود أن يسمعا «أهلاً سيد هنري. أين ماما؟»

«ذهبت إلى جدتك. وتركت لكن أمراً بأن تقطعن اللفت، وتأكلن البسكويت حتى تعود. كل شيء في المطبخ».

جلسنا بصمت في المطبخ، نتفت البسكويت إلى قطع صغيرة. وبعد فترة أتى السيد هنري مرتدياً، هذه المرة، بنظلاً تحت الروب.

- «قلن لي. تحبان القشدة؟»

- «أوه، نعم، ياسيد».

- «خذن ربع دولار، وذهبن إلى محل «إيزالي» واشترين بعض القشدة.

أنتن فتيات عاقلات. أليس كذلك؟»

أعادت كلماته الطيبة الحيوية إلى يومنا: «نعم، ياسيد، شكراً سيد هنري. هل تخبر أمنا حين تعود؟»

«بالتأكيد. ولكنها لن تعود خلال هذه المدة».

تركنا البيت دون معاطف، وقطعنا الطريق باتجاه المحل، ولكن فريدا قالت فجأة: «لأريد أن أذهب إلى محل إيزالي».

- «ماذا؟».

- «لأريد بوظة. أريد شبساً»

- «إنهم يبيعون الشبس في محل إيزالي».

- «أعرف، ولكن لماذا نذهب بعيداً. الآنسة بيرثا تبيع الشبس»

- «ولكنني أريد بوظة».

- «أنت لا تريدين بوظة ياكلوديا».

- «أريد بوظة».

- «حسناً، اذهبي إلى إيزالي، وأنا أذهب إلى محل الآنسة بيرثا».

- «ولكن أنت عندك الربع دولار، وأنا لأريد أن أقطع الطريق وحدي».

- «إذن دعينا نذهب إلى محل «بيرثا». أنت تحبين حلواها، أليس كذلك؟»

- «لا، أنها غير طازجة. إنها دائماً تبيع حلوى قديمة».

- «اليوم جمعة، وهي تقدم أشياء طازجة في الجمعة».

- «ولكن ذلك المجنون العجوز سوفيد تشرتش يعيش هناك».

- «وإذا كان يعيش هناك. نحن معاً، وإذا فعل شيئاً فسنهرب».

- «إنه يخيفني».

- «حسناً، لأريد أن أذهب إلى «إيزالي». افترضني أن فطيرة الكريما^(١)

تتسكع هناك. هل تريدين أن تصطدمي بها ياكلوديا؟».

- «تعال يافريدا... سأشتري حلوى».

كانت الآنسة بيرثا تملك حانوتاً صغيراً للحلوى، والسعوط، والتبغ.

وكانت هناك حجرة قرميدية في الباحة الأمامية عليك أن تختلس النظر من

بابها، وإذا لم تكن هي هناك فعليك أن تطرق الباب.

أما هذا النهار، فقد كانت جالسة على طاولة تقرأ الأنجيل تحت خيط

شعاع من الشمس. اشترت فريدا الجبس، ثم اشترينا ثلاث قطع من

^(١) تقصدان مورين بيرل.

«الباورهاوس» بثلاثة بنسات، وبقيت عندنا عشرة بنسات. هرعنا إلى البيت لنجلس تحت شجيرات الليلك على جانبه. كنا نرقص دائماً هناك «رقصة الحلوى»، حتى يكون بمقدور «روزمري» أن تسمعنا فتشعر بالغيرة. وكانت هذه الرقصة خليطاً من الددمات، والفقزات، والنقر، والأكل، والتمطق. نرقصها وتستبد بنا كلما كانت عندنا حلوى.

وبينما كنا نزحف بين الشجيرات جانب البيت، سمعنا أصواتاً وضحكاً، فنظرنا من نافذة غرفة الاستقبال متوقعات أن نرى ماما. ولكن بدلاً من ذلك، نرى السيد هنري مع امرأتين. كان السيد هنري، بطريقة تشبه طريقة الجدات في مداعبة الأطفال، يمص أصابع إحدى المرأتين التي كانت ضحكاتها تجلجل في ذلك الحيز الصغير. أما المرأة الأخرى فكانت تزرر سترتها، عرفنا فوراً من تكونا. إحدى المرأتين كانت تشاينا، والثانية تدعى ماجينو لاين^(١). شعرتُ بحكة فوق رقبتي. هؤلاء هن بنات الهوى ذوات الأظافر القرمزية اللامعة اللواتي تكرهن أُمي وجدتي، وفي بيتنا!

لم تكن تشاينا بغیضة، في تصورنا في الأقل. كانت نحيفة، متقدمة في السن، شاردة الذهن، وغير عدوانية. ولكن هذه «ماجينو لاين»؟ إنها من النوع الذي تقول عنه أُمي إنها «لن تسمح له أن يأكل في صحن من صحنها»، ومن النوع الذي لا تسمح نساء الكنيسة لعيونهن أن تقع عليه. إنها هي التي تقتل الناس، تكويهم بالنار، تغليهم في محلول القلي. وبالرغم من اعتقادي بأن وجه ماجينو لاين، المخفي تحت سمنتها، كان جميلاً، فأنني قد سمعت عدة كلمات شائنة وغاضبة عنها، ورأيت عدة أشخاص يزعمون شفاهم بمجرد ذكر اسمها، مما جعلني لا أمعن النظر في الميزات المعوضة التي قد تملكها. بدت تشاينا، وهي تكشف عن أسنانها البنية، مستمتعة حقاً بصحبة هنري الذي يذكر منظره، وهو يمص أصابعها، بالمجلات النسائية في غرفته. هبت ريح باردة في مكان ما في داخلي رافعة معها أوراقاً صغيرة من الرعب والتوق الغامض. وأظنني رأيت

(١) خط ماجينو: هو الأول الذي أقامة الفرنسيون لصدد الهجوم الألماني.

وحشة خفيفة تعبر وجه ماجينو لآين. ولكن قد تكون صورتي هي التي رأيت في ارتجاف المنخرين البطيء، وفي العينين اللتين تذكراني بشلالات رأيتها في فيلم حول «هاواي».

تثاءبت ماجينو لآين ثم قالت: «هيا ياتشاينا. لا يمكننا أن نبقى هنا نتسكع طوال النهار. سيأتي أهل البيت قريباً».

انبطحنا، فريد وأنا، على الأرض، ونحن ننظر إلى بعضنا البعض بعيون مفتوحة على سعتها. وعندما ابتعدت المرأتان لمسافة قصيرة، دخلنا إلى البيت. وكان السيد هنري في الداخل يفتح قنينة شراب غازي.

- «عدتم للتو؟»

- «نعم، ياسيد».

- «أكلتم كل الكريما؟» بدا بأسنانه الصغيرة اللطيفة جداً بلا حول. هل كان ذلك حقاً هنري «نا» الذي مصّ أصابع تشاينا؟
- «اشترينا حلوى بدل الكريما».

- «فعلت ذلك؟ آه يا ذوات الأسنان الحلوة مثل غريتا غاربو».

مسح ما رشح على فوهة القنينة، ثم رفعها إلى شفثيه - حركة سببت لي الضيق -.

«من تلك المرأتان ياسيد هنري؟» شَرَقَ بشرابه ونظر إلى فريدا: «ماذا تقولين؟»

فكررت: «تلك المرأتان اللتان غادرتا للتو. من كانتا؟»

فقال ضاحكاً، ضحكة الكبار السريعي خاطر في الكذب، تلك الضحكة التي نعرفها جيداً: «أوه، تلك المرأتان من الصف الذي ندرس فيه الكتاب المقدس. نحن نقرأ الكتاب المقدس معاً، ولذلك جاءتا اليوم لهذا الغرض».

قالت فريدا: «أوه». ورحت أنظر إلى خُفِّه المنزلي لتجنب النظر إلى تلك الأسنان اللطيفة وهي تلفّق تلك الأكذوبة. مشى باتجاه السلم، ثم استدار إلينا: «ولكن لا تذكرن ذلك لماما. إنها لاتحب دراسة الكتاب المقدس، ولا تحب أن أستقبل زوّاراً حتى لو كانوا مسيحيين صالحين».

- «لا، ياسيد. لن نفعل».

وتسلق السلم بسرعة.

وسألت فريدا: «هل ينبغي أن نخبر ماما؟» فتنهدت فقط. أنها حتى لم تفتح حلوى «الباور هاوس» أو كيس الشبس.

بدلاً من ذلك، أخذت تتبّع الحروف المرسومة على الغلاف بإصابعها، ورفعت رأسها فجأة في أنحاء المطبخ.

- «لا، لا أعتقد. لا توجد صحون فارغة».

- «صحون؟ عن ماذا تتحدثين؟».

- «لا توجد صحون فارغة. ماجينو لاين لم تلتهم أيّاً من صحون أُمي. إضافة إلى ذلك، ستثير أُمي ضجة طوال اليوم إذا أخبرناها».

جلسنا نحدق في أكوام البسكويت التي عملناها. ثم قالت فريدا: «من الأفضل أن نقطع اللفت. سيحترق وتجلدنا أُمي».

- «أعرف».

- «ولكن إذا تركناه يحترق، فلن نضطر إلى أكله».

ففكرت: «آه، يالها من فكرة لطيفة».

- «أيهما تريدين؟ جلد بلا لفت، أم لفت بلا جلد؟»

- «لا أعرف، قد نستطيع أن نحرقه قليلاً، فيستطيع بابا وماما أن يأكلانه، أما نحن فبإمكاننا أن نقول أننا لانستطيع».

- «حسناً».

عملت جبلاً من أكوامي.

- «فريدا؟».

- «ماذا؟».

- «ما الذي عمله «وودرو» وكنت ستخبريني عنه؟».

- «بَلّ فراشه. السيدة كين أخبرت أُمي بذلك. إنه لم يتوقف عن ذلك».

- «القذر».

أظلمت السماء، ونظرت إلى الخارج من النافذة، فرأيت الثلج يتساقط. دسست إصبعي في فوهة الجبل فتداعى وتناثرت الحبيبات الذهبية مشكّلة دَوَامَات صغيرة، وكان قِدر اللفت ما يزال يطرق.

انظر إلى القطة أنها تظلّ تموء تعال
والعب مع جانيت الهريرة لن تلعب مع جانيت
لن تلعب لن تلعب لن تلعب

يأتين من «موبيل»، «إيكن»، ومن «نيوبورت نيوز». يأتين من ماريتا.
من مريديان نطق أسماء هذه الأماكن بأفواههن يجعلك تفكر بالحب. عندما
تسألن من أين هن، يملن رؤوسهن ويقلن «موبيل»، فتظن إنهن قد
قبلنك. يقلن «إيكن» فتري فراشة بيضاء تطير عبر السور بجناحيها
الخفّاقين. يقلن: «ناجادوتشيز» فتريد أن تقول «نعم، سأفعل..» أنت لا
تعرف كيف تبدو هذه المدن، ولكنك تحب ما يحدث للهواء عندما يفتح
شفاهن ويدعن تلك الأسماء تنطلق حرة.

مريديان. إن ترجيعه يفتح نوافذ غرفة مثل النفحات الأربع الأولى في
ترتيلة. قليلات يستطعن لفظ أسماء مساقط رؤوسهن بمثل هذا الحنان
المرواغ، ربما لأنهن لا يملكن رؤوس، ولكن مجرد أماكن ولدن فيها. ولكن
هؤلاء الفتيات يمتصن عصارة مساقط رؤوسهن، ولن يغادرهن أبداً. انهن
فتيات سمراوات نحيلات حدقن طويلاً في نبات الخبيز في الباحات
الخلفية للميريديان، و«موبيل» و«إيكن» و«باتون روج». إنهن هزيلات،
طويلات، ساكنات مثل نبات الخبيز. جذوره عميقة، وسيقانه صلبة.
وفقط زهراته في الأعلى تتمايل في الريح. لهن عيون أولئك الناس الذين
بامكانهم أن يخبروك عن الوقت من خلال لون السماء. مثل هؤلاء الفتيات
يعشن في منطقة مجاورة هادئة سوداء حيث يشتغل كل شخص بشكل
مجز، حيث تتدلى المراجيح من السلاسل، ويقطع العشب بالمناجل، حيث
الورود التي مثل أعراف الديكة، وعباد الشمس النامي في الباحات،
وأصص نبات «القلب الدامي» واللبلاب. والأزهار ذات الأطراف الحادة
تغطي الدرجات وعتبات النوافذ. مثل هؤلاء الفتيات كنّ يشتري البطبخ

الأحمر، واللوبياء من العربات الجوّالة. ويضعن في الشباك اللافتات الكرتونية المطبوع عليها المقياس بنظام الباوند على كل زاوية من الزوايا الثلاث - ١٠ باوند، ٢٥ باوند، ٥٠ باوند - ومكتوب على الطرف الرابع: لا يوجد ثلج. هؤلاء الفتيات السمرات الاستثنائيات من «موبيل» و «إيكن» لا يشبهن قسماً من أخواتهن، فهن لسن مشاكسات، أو عصبيات، أو صاخبات، وهن لا يملكن رقاباً سوداء جميلة ممتدة كأنما على ياقات غير مرئية، كما أن عيونهن لاتلسع. هؤلاء الفتيات من «موبيل»، ذوات السمار السكري، يمشين في الشوارع دون أن يثرن أية ضجة. إنهن حلوات وملساوات مثل كعك مصنوع من الزبدة، كواهل نحيلة، وأقدام طويلة ضيقة. يغتسلن بصابون «لايف بوي» ذي اللون البرتقالي، ويرششن على أجسادهن بودرة «كاشمير بوكيه»، وينظفن أسنانهن بقطعة قماش مغموسة بالملح، ويطرّين جلودهن بمستحضر «جيرجينس». رائحتهن مثل رائحة الغابات، والصحف، وعطر ثمر الفانيليا^(١) يملّسن شعورهن بـ«ديكسي بيج»، ويفرقنه على جانب. وفي الليل يلفنه بأوراق الأكياس البنية، ويريطن رؤوسهن بوشاح مزخرف، وينمن وأيديهن متقاطعة على بطونهن. أنهن لا يشربن، أو يدخن، أو يشتمن أحداً، ومازلن يسمين الجنس بـ«الجماع». إنهن يغنين السبرانو الثاني في الكورس، وبالرغم من أن أصواتهن واضحة وقوية، فإنهن لا يخترن للغناء المنفرد أبداً، يقفن في الصف الثاني ببلوزات بيضاء منشأة، وتنانير زرقاء، أرجوانية غالباً بسبب الكي.

يلتحقن بالكلديات الزراعية، ودور المعلمين الابتدائية كي يخدمن الرجل الأبيض بكل دماثة: الاقتصاد البيتي: لإعداد طعامه، والتعليم: لتعليم الأطفال السود الطاعة، والموسيقى: للترفيه عن السيد المتعب، وتهذبة روحه المكسوة. هنا يتعلمن بقية الدرس الذي ابتدأ في تلك البيوت الوادعة ذات الأرجوحات وأصص أزهار «القلب الدامي». كيف يحسن التصرف؟ التوسع الحذر في مصروفات البيت، الصبر، الأخلاق العالية، السلوك الجيد،

(١) الفانيليا: نبات أمريكي استوائي أو عطره الذي تعطر به بعض المأكول.

وباختصار كيف يتخلصن من الجبن، الجبن الرهيب أمام العواطف، والجبن أمام الطبيعة، الجبن أمام الانفعالات الانسانية الواسعة النطاق. حيثما ينفجر هذا الجبن فإنهن يجلدنه، وحالما تتكون له قشرة. فإنهن يذوّبنها، وحيثما يتقاطر أو يزدهر، ويتماسك فإنهن يجلدنه، ويحاربنه حتى الموت. إنهن يخضن هذه المعركة حتى القبر. الضحك المرتفع قليلاً، الكلام المرتفع قليلاً، والإيماءة الواسعة قليلاً. يقبضن على ثيابهن من الخلف خشية أن يرفعها الهواء، وعندما يضعن أحمر الشفاه، فإنهن لا يغطين به الفم كله مخافة أن تبدو الشفاه مكتنزة، وهن قلقات، قلقات، قلقات دائماً على أطراف شعورهن.

لا يبدو أن لهن أصدقاء. ولكنهن يتزوجن دائماً. رجال معينون يراقبونهن، دون أن يظهروا ذلك، ويعرف كل منهم أنه لو امتلك واحدة منهن في بيته، فإنه سينام على ملءات بيضاء غُسّلت بالماء المغلي، وعُلقت لتجفّ على شجيرات العرعر، ثم كُويت جيداً بمكواة ثقيلة. ستكون هناك صورة أمه المزخرفة بزهور من ورق، إنجيل كبير في غرفة الاستقبال. سيشعرون بالطمأنينة. ملابس العمل سترتق، وتغسل، وتكوى للتلبس في الاثنين. وأن قمصان الأحد ستموج على علاقة الثياب، منشأة بيضاء. ينظرون إلى يدها، فيعرفون ماذا ستفعل بعجينة البسكويت، يشمون رائحة القهوة، وفخذ الخنزير البري. يرون البرغل الأبيض المدخن مع نقطة سمنة فوقه، إن ركيها يؤكدان لهم إنها ستنجب أطفالاً بسهولة ودون ألم، وهم محقّون في ذلك.

الشيء الذي لا يعرفونه هو أن هذه الفتاة السمراء البسيطة سوف تبني عشاها عوداً عوداً، وتجعل منه عالمها الذي لاتنتهك حرمة، وتقوم بحراسة كل غرسة فيه، كل عشب، وكل قطعة قماش، حتى منه هو. بصمت ستعيد القنديل إلى المكان الأول الذي وضعت فيه، وتزيل الصحون من المائدة حتى يتناولون اللقمة الأخيرة. وتمسح مقبض الباب حالما تلمسه يد تلوثت بالزيت. ونظرة جانبية منها تكفي ليفهم أن عليه أن يدخن في الشرفة الخلفية. وسيفهم الأولاد فوراً بأنهم لا يستطيعون استرداد الكرة حين تسقط في باحة البيت. ولكن الرجال لا يعرفون هذه الأشياء. ولا يعرفون

أنها تمنح جسدها لزوجها بشكل شحيح وجزئي. فهو يجب أن يدخلها خلسة، ويرفع طرف ثوبها إلى السرة فقط. ويجب أن يسند ثقل جسمه على كوعيه حين يمارسان الحب، وسبب ذلك، ظاهرياً، هو أن تتجنب إيذاء صدرها، ولكن السبب الحقيقي هو منع نفسها من أن تلمس أو تحس مساحة كبيرة من جسده. وتظل تتساءل، بينما هو يتحرك داخلها، عن سبب عدم وضع الأجزاء الضرورية من الجسد، أي العورات، في أماكن أكثر ملائمة - كالأبط، مثلاً، أو راحة اليد. يستطيع المرء أن يبلغ أماكن كهذه بسهولة، وسرعة، ودون تعرّ. أنها تشعر بانفكاك أي من لفافات الورقية بسبب الحركة أثناء الممارسة، وتحدد في ذهنها أية لفافة قد انحلت، فتسارع لتثبيتها حالما تنتهي، وهي تأمل ألا تتعرق حتى لا تصل الرطوبة إلى شعرها، وأن تبقى جافة بين ساقها إنها تكره صوت التصاق ساقها عندما تكونان رطبتين. وعندما تشعر أن الهياج قد سيطر عليه، تقوم بحركات سريعة بوركيها، وتضغط بأظفارها أصابعها على ظهره، وتحبس أنفاسها متظاهرة بأنها وصلت إلى الذروة. وقد تتساءل، للمرة الألف، كيف ذلك الشعور بينما عضو زوجها ما يزال داخلها. الشعور الأقرب لهذا حدث عندما كانت تسير مرة في الشارع فانزلقت المحرمة الصحية من بين ساقها. تحركت بنعومة بين ساقها وهي تمشي. بنعومة... بنعومة بالغة، ثم تجمع إحساس خفيف ولذيذ في زاوية انفراج ساقها. وبينما تزايدت المتعة، كان عليها أن تتوقف في الشارع، وأن تضم فخذيها معاً لتقبض عليها. لا بد أن الأمر شبيه بذلك. ولكنه لا يحدث أبداً عندما يكون عضو زوجها داخلها. وعندما ينسحب تنزل ثوب النوم، وتنزلق من السرير مسرعة الحمام وهي تشعر بالراحة

من وقت لآخر، توقف محبتها على كائن ما، ربما على قط يحب النظام، والدقة، والانتظام مثلها، ويكون نظيفاً وهادئاً مثلها. يستكين القط على عتبة النافذة بهدوء، ويلاطفها بعينييه، تستطيع أن تحمله بين ذراعيها، وتدع مخالبه الخلفية تصارع لتستقر على صدرها بينما تكون مخالبة الأمامية متشبثة بكتفها. تستطيع أن تمسّد الفرو الناعم، وأن تلمس

الجلد المستسلم تحته، سينفش جلده، ويتمطى، ويفتح فمه. وستقبل هي ذلك الإحساس الجميل الغريب الذي ينتابها حين يتلوى تحت يدها، وتضيق عيناه بلذة حسية مفرطة. وعندما تقف لتعد الطعام فانه سيدور حول رجليها، ستصعد الرعشة التي يحدثها الفرو لولبياً من قدميها إلى فخذيهما جاعلة أصابعها ترتجف قليلاً في عجيبة الفطيرة.

أو، سيقفز القط إلى حضنها، بينما هي جالسة تقرأ مقال «الأفكار الصاعدة» في مجلة «البرتي»، وستربت على تلك الهضبة النائمة من الشعر، وتدع دفء جسد الحيوان يتسرب عميقاً إلى تلك المناطق الخاصة. وأحياناً تسقط المجلة، وتفتح ساقيهما قليلاً. يبقى الاثنان معاً قليلاً، أو قد ينتقلان إلى مكان آخر، أو قد ينامان معاً قليلاً، حتى الساعة الرابعة موعد عودة المفضل إلى البيت من العمل، قلقاً، بشكل غير مفهوم علي وجبة الطعام. سيرف القط دائماً أنه المفضل لديها، حتى بعد أن تنجب طفلاً، والحقيقة، إنها انجبت طفلاً، بسهولة، ودون ألم. طفل واحد فقط. ولد اسمه جونيور لويس.

فتاة مثل هذه من «مويل» أو «مريديان» أو «إيكن»، تتعرق في إبطها، أو بين فخذيهما، وتنفوخ منها رائحة الخشب والفانيليا، وتعد السوفليه^(١) في قسم الاقتصاد المنزلي، انتقلت مع زوجها لويس إلى لورين في أوهيو. كان اسمها جيرالدين، هناك بنت عشها، وكوت القمصان، وزرعت نبات «القلب الدامي»، ولعبت مع قطها، وولدت جونيور لويس.

لم تدع جيرالدين ابنها يبكي. فما دامت حاجاته جسدية، فقد كان باستطاعتها أن تلبيهما، الراحة والشبع، أسنانه ناصعة البياض دائماً، وجسمه نظيف، وينتعل حذاء دائماً، لم تكن جيرالدين تتحدث معه، أو تناغيه، أو تدلله، ولكنها كانت ترى أن كل رغباته متحققة. لم يمر وقت طويل قبل أن يكتشف الطفل الفرق بين سلوك أمه تجاهه وتجاه القط. وعندما أصبح أكبر، تعلم كيف يحول كراهيته لأمه إلى القط. وكان يقضي لحظات سعيدة وهو يراه يتعذب. ولكن القط نجاً لأن جيرالدين نادراً

^(١) السوفليه: كل طعام يُخبز على نحو منفوخ ويدخل في صنعه البيض المخفوق.

ماتغيب عن البيت، وكانت تخفف من ألم الحيوان عندما يسيء الابن معاملته.

عاشت جيرالدين، ولويس، وجونيور لويس الابن، قرب ملعب مدرسة «واشنطن ايرفنج». كان جونيور، يعتبر إن الملعب ملعبه، ولطالما اشتهمى تلاميذ المدرسة أن يملكوا حريته في النوم متأخراً، والذهاب إلى البيت القريب لتناول الغداء، ثم السيطرة على الملعب بعد انتهاء الدراسة. كان يكره أن يرى الأرجوحات وأماكن الانزلاق، والعوارض الخشبية فارغة، فيحاول أن يبقي الأطفال حولها، الأطفال البيض، فلم تكن أمه ترغب أن يلعب مع الزنوج. لقد شرحت له الاختلاف بين الملونين والزنوج. انهم، ببساطة، غير متمثلين. الملونون نظيفون وهادئون، والزنوج قذرون وصاخبون، وهو ينتمي إلى المجموعة الأولى: يرتدي قمصاناً بيضاء، وبناطيل زرقاء، وشعره حليق حتى فروة الرأس تجنب أي أثر لشعرات كثة مجمدة. وفي الشتاء، تضع أمه على وجهه مرهم «جيرجنس» حتى لا يصبح رمادياً.

وبالرغم من أن جلده فاتح اللون، فهناك احتمال أن يصبح رمادياً، إنَّ الحد الفاصل بين الملون والزنوجي ليس واضحاً دائماً، وهناك علامات دقيقة خطيرة يمكن أن تطمسه، ولذلك يجب الاحتراس المستمر.

كان جونيور يتوق للعب مع الأولاد السود. وكان يريد، أكثر من أي شيء آخر في العالم، أن يلعب معهم لعبة «ملك الجبال»، أن يراهم يدفعونه من فوق أكوام التراب يتدحرجون فوقه، ويحس بأجسادهم الخشنة تهصره، ويشم سوادهم الوحشي، ويقولون له «اللعنة عليك» بتلك اللامبالاة المحببة، كان يريد أن يجلس معهم على أحجار الطريق، يشاركهم في المقارنة بين حدة مدياتهم، ويتبارى معهم في البصاق، وأيهم يصل بصاقه إلى مسافة أبعد. وكان يرغب أن يتقاسم معهم أكاليل الغار التي ينالها من يتبول فترة أطول ومسافة أبعد. كان يعبد «باي بوي» و«بي.أل» في الوقت نفسه. وأخذ تدريجياً، يتفق مع أمه إنهما كلاهما غير مناسبين له، فأصبح يلعب مع «رالف نيسينسكي» الذي يصغره بعامين. والذي يضع نظارات، ولا يرغب في فعل أي شيء. أخذ جونيور يستمتع،

أكثر فأكثر، بمناكدة الفتيات، إنه من السهل أن تجعلهن يصرخن ويركضن، وكم كان يضحك حين يسقطن، ويرى سراويلهن التحتية. وكان يشعر بالسرور حين يراهنّ ينهضن ووجوهن حمراء متغضنه. وهو لا يضايق الفتيات الزنجيات كثيراً، فهن، عادة، يمشين في مجموعات، ألقى، مرة، حجارة على بعضهن، فطاردنه، وأمسكن به، واشبعنه ضرباً. وقتها كذب على أمه حين أخبرها أن باي بوي قد ضربه، فتضايقت أمه كثيراً. أما أبوه فقد استمر في قراءة «لوريان».

كان، عندما يتعكر مزاجه، يدعو أي طفل عابر ليلعب معه في المراجيح، وإذا رفض الطفل، أو انصرف سريعاً، فإنه يقذفه بالحصى. وهكذا أصبح رامياً ماهراً جداً.

أصبح الملعب، بمرور الأيام، بهجته الوحيدة، فقد كان يشعر بالوحدة والخوف في البيت. وفي أحد الأيام، وكان يشعر بالملل بشكل خاص، إذ لم يكن هناك أي شيء يفعله، رأى فتاة سوداء تمشي منكسة الرأس عبر طريق مختصرة في الملعب. كان قد رأى هذه الفتاة عدة مرات من قبل، واقفة وحيدة، دائماً وحيدة، أثناء الاستراحة. لم يكن أحد يلعب معها ربما لأنها، كما فكر، قبيحة جداً.

ناداها جونيور: «مرحباً! ماذا تفعلين في ملعبك؟».

توقفت الفتاة.

- «لا أحد يستطيع أن يجتاز هذا الملعب دون أن أسمح له بذلك».

- «إنه ليس ملعبك. إنه ملعب المدرسة».

- «ولكنني مسؤول عنه».

هَمَّت الفتاة بالتحرك، ولكنه اتجه نحوها:

- «انظري. تستطيعين أن تلعب في فيه إذا أردت. ما اسمك؟»

- «بيكولا. لا أريد أن أَلعب».

- «تعال، لن أزعجك».

- «يجب أن أذهب إلى البيت».

- «هل تريد أن أريك شيئاً؟ عندي شيء أريك إيّاه».

- «لا. ماهو؟».

- «تعالى إلى بيتنا. إني أعيش هناك. هيا. سأريك».

- «ترييني ماذا؟»

- «قططاً صغيرة. تستطيعين أن تأخذي واحدة إذا أردت».

- «قطط حقيقية؟»

- «نعم. هيا».

سحبها برفق من ثوبها. تحركت بيكولا باتجاه بيته. وعندما عرف أنها وافقت، سحبها راضاً وهو يشعر بالاثارة، وكان يتوقف فقط ليصيح بها أن تتقدم. فتح الباب لها مشجعاً، تسلفت بيكولا السلم وتوقفت هناك خائفة أن تتبعه بدأ البيت مظلماً، وقال جونيور: «لا أحد هنا. ماما خرجت وبابا في العمل. ألا تريدان أن تري القطط؟» أشعل الضوء فدخلت بيكولا.

فكرت كم هو جميل. كم هو جميل هذا البيت. كان هناك إنجيل كبير أحمر مذهب فوق المنضدة في غرفة الطعام، ومناديل ورقية في كل مكان - على أذرع الكراسي وخلفها، وفي وسط المائدة الكبيرة في غرفة الطعام، وعلى المناضد الصغيرة، وهناك أصص أزهار على عتبات النوافذ، وصورة ملونة للمسيح معلقة على جدار تُوَظَرها أزهار ورقية لم تر قبل جمالها، أرادت أن ترى كل شيء على مهل، ولكن جونيور لم يتوقف عن الكلام: «هيا يابنت تعالي، تعالي». سحبها إلى غرفة أخرى، أجمل حتى من الأولى، مناديل كثر، ومصباح كبير ذو قاعدة ذات لون ذهبي وأخضر، وأجمة بيضاء، وهناك سجادة على الأرض بازهار كبيرة ذات لون أحمر غامق. كانت مستغرقة في إعجابها بالسجادة حين صرخ جونيور: «خذني»، فاستدارت بيكولا: «هذا قطك الصغير» ورمى في وجهها بقط كبير أسود، حبست أنفاسها من الخوف، وأحسست بالشعر في فمها، خرمش القط وجهها وصدرها وهو يحاول أن يتوازن، ثم وثب برشاقة إلى الأرض. انفجر جونيور ضاحكاً، وهو يقبض على بطنه، وأخذ يركض في الغرفة،

تلمست بيكولا الخدوش على وجهها وشعرت بالدموع تطفّر إلى عينيها،
قفز جونيور أمامها حين اتجهت نحو المدخل.
«لا يمكنك أن تخرجي. أنت أسيرتي» كانت عيناه مرحتين ولكن
قاسيتين.

«دعني أذهب».

«لا». دفعها على الأرض، ثم ركض إلى الباب الفاصل بين الغرف
وأغلقه ووضع يديه عليه. زاد ضرب بيكولا على الباب من ضحكه العالي
المختلط باللهات.

انهمرت دموع بيكولا، وغطت وجهها بيديها، قفزت عندما تحرك
شيء ناعم حول رسني قدميها فرأت القط. لقد لفّ نفسه حول رجليها،
فجثمت، وقد نسيت خوفها للحظة، لتمسكه، كانت عيناه رطبتين من
الدموع. بدأ القط يحك جلده بركبتيها. كان أسود تماماً، وعيناه المائلتان
باتجاه أنفه، ذو لون أخضر مزرق، جعلهما الضوء يتألقان مثل ماستين
زرقاوين وأخذت بيكولا تمسّد رأس القط، فماء، وحرك لسانه مستمتعاً
بذلك. العيون الزرقاء في الوجه الأسود جعلت بيكولا تتسمّر في مكانها.

فتح جونيور الباب، وقد أثار فضوله عدم سماع نشيجها، فرأى القط
ماداً رأسه، مضيّقاً عينيه. كان قد رأى هذا التعبير عدة مرات عندما كان
الحيوان يستجيب للمسّات أمه.

«إعطني قطي». انفجر صائحاً، وبحركات بدت خرقاء وواثقة معاً،
خطف القط من رجليه الخلفيتين، وبدأ يؤرجحه حول رأسه بشكل دائري.
صرخت بيكولا: «توقف عن ذلك». وتصلبت أطراف القط الأمامية
مستعدة لتقبض على أي شيء يعيد له توازنه. كان فمه مفتوحاً على مداه،
وعيناه مندفعتين إلى الأمام من الرعب. مدت بيكولا يدها، وهي ماتزال
تصرخ، نحو ذراع جونيور الأصغر، وسمعت صوت تمزّق ثوبها تحت
نراعيها. حاول أن يدفعها، ولكنها قبضت على الذراع التي تدور القط.
سقط كلاهما. وأثناء السقوط، أطلق القط الذي اصطدم بقوة بالنافذة ثم انزلق

فسقط على جهاز التدفئة خلف الأريكة. بقي هامداً ماعدا بعض الارتعاشات. وانبعث رائحة خفيفة من فرو يحترق. فتحت جيرا الدين الباب.

«ما هذا؟» كان صوتها لطيفاً، وكأنها تلقي سؤالاً منطقياً تماماً. «من هذه الفتاة؟»

«لقد قتلت قطنا. انظري». اتجه نحو جهاز التدفئة حيث يستلقي القط. عيون الزرقاء مغلقة في وجه فارغ، أسود، بلا حول.

ذهبت جير الدين إلى جهاز التدفئة والتقطت القط. بدا منهكاً بين يديها، بينما أخذت تفرك وجهها على فروه. نظرت إلى بيكولا. رأت الثوب القذر الممزق، ولغافات الشعر المحلولة فوق رأسها.

بأن الشعر المصفور حيث انحلت اللغافات، وبرزت الأحذية المليئة بالوحل بحشوتها الصمغية التي ظهرت من بين النعلين الرخيصين، والجوارب المتسخة التي انزلقت أحدهما إلى كعب الحذاء. رأت الدبابيس التي ترفع حواشي الثوب. من فوق ظهر القط، نظرت إليها. ورأت من خلال هذه الفتاة الصغيرة كل حياتها. التدلي من النوافذ على الصالونات في «موبيل»، الزحف على مداخل تلك البيوت الملتصقة غرفها الضيقة مثل عربات القطار^(١)، الواقعة على أطراف المدينة، والجلوس في محطات الباص حاملة أكياساً ورقية، وهي تنادي على الأمهات اللواتي يصرخن بها باستمرار: «إخرسي».

شعر غير ممشط، وثياب مهترئة، وحذاء محلول الرباط، محشو بالتراب، كنّ يحدقن فيها بعيون مليئة باستغراب كبير. عيون لاتستفهم عن أي شيء، وتسأل عن كل شيء. بعيون مبهلقة مرتبكة، كانوا يحدقون فيها. نهاية العالم تكمن في عيونهم، وبدايته أيضاً، وبينهما كل الخراب.

كانوا في كل مكان. ينامون ستة في سرير واحد، ويختلط بولهم في الليل. كل منهم يبول في فراشه وهو يحلم بالحلوى والشبس. وكانوا، في

^(١) : في الأصل بيت ذو صف طويل من الحجرات الضيقة.

الأيام الطويلة الحارة، يتسكعون متبطلين. يلتقطون الجص من الحيطان، ويحفرون الأرض بعصيتهم. يجلسون في صفوف صغيرة على حافات الأرصفة، ويحتشدون على المقاعد الخشبية الطويلة، آخذين أماكن الأطفال الملونين اللطيفين المرتبين. يتصرفون كمهرجين في الملاعب، يكسرون أشياء في الأكشاك، ويركضون أمامك في الشوارع، ويتزحلقون على الثلج المتراكم على الأرصفة في الشتاء. تكبر الفتيات وهن لا يعرفن شيئاً عن المشدات، ويعلن الصبيان عن رجولتهم بقلب حافات العبقات إلى الخلف. لا ينمو العشب حيث يعيشون، تموت الأزهار وتسقط الظلال. تزهو علب الصفيح وإطارات العجلات حيث يسكنون. يعيشون على البازلاء الباردة غير الناضجة بعد، وعلى المشروبات الغازية. يحومون مثل الذباب، ومثل الذباب يستوطنون. وهذه الذبابة قد حطت في بيتها. من فوق ظهر القط نظرت إليها:

«اخرجي» قالت بصوت هادي. «أيتها الكلبة السوداء الصغيرة القذرة. اخرجي من بيتي». ارتجف القط وحرك ذيله.

تراجعت بيكولا في الغرفة محدقة في السيدة ذات اللون البني كالحليب وهي في بيتها الجميل الذهبي والأخضر، والتي كانت تتحدث إليها عبر فرو القط. كلمات السيدة الجميلة جعلت شعر القط يتحرك، ومع النفس المتصاعد مع كل كلمة يتطاير إلى أجزاء استدارت لتستدل على الغرفة الأمامية. ورأت يسوع ينظر إليها بعينين حزينتين غير مذهشتين. شعره البني الطويل مفروق في الوسط. والأزهار الورقية الرمادية تلتف حول وجهه.

في الخارج، كانت ريح آذار تصفر في شق في ثوبها. أبقت رأسها منخفضاً لتتجنب البرد، ولكنها لم تستطع أن تبقيه منخفضاً لفترة أطول لتتجنب رؤية ندف الثلج تتساقط ثم تموت على الرصيف.

الربيع

الغُصينات الأولى رفيعة، خضراء، طرية. تنحني لتشكّل دائرة كاملة، ولكنها لن تنكسر غير أن الأمل المعفم، اللذيذ الرائع، الذي تبعثه «الفورسيثيا»^(١). وشجيرات الليلك ليس إلا تغييراً في أسلوب الجلد. أنها تضربنا، بشكل مختلف، في الربيع. فبدلاً من الألم الفاتر لسوط الشتاء، هناك هذه السياط الخضراء الجديدة التي تبقى لساعاتها بعد انتهاء الجلد بفترة طويلة. هناك دناءة وحقارة في تلك الغصينات الطويلة تجعلنا نحنّ إلى الضربات المطرّدة للسوط، أو لتلك اللطعات القوية ولكن البرّئية لفرشاة الشعر. وحتى الآن فإن مجيئ الربيع يذكرني بالألم الذي كان يسببه لي الجلد، ولاتحمل لي شجيرات «الفورسيثيا» أي فرح.

في يوم سبت ربيعيّ، كنت، وأنا أغور في العشب في أرض خالية، أغلق نوى الصقلاب، وأفكر بالنمل، وسويقات الدّراق، والموت، وأتساءل أين مضى العالم حين أغمضت عينيّ. ولا بد أنني اضطجعت طويلاً فوق العشب لأن الظل الذي كان أمامي حين غادرت البيت، اختفى حين عدت. دخلت البيت الذي كان يلفه هدوء قلق. ثم سمعت أمي تغني شيئاً حول القطارات و«أركنساس». أقبلت من الباب الخلفي مع بعض الستائر الصفراء المطوية التي كانت تكوّمها فوق طاولة المطبخ جلست على الأرض لاستمع إلى قصص الأغاني، فلاحظت كم كانت تصرفاتها غريبة. كانت

(١) الفورسيثيا: شجيرة جرسية الأزهار من الفصيلة الزيتونية.

ماتزال ترتدي قبعتها، وأحذيتها مغبرة. وكأنها قد غاصت في التراب. وضعت ماءً لتغليه. وكنست المدخل. ثم جرت محفة الستائر. ولكن بدل أن تضع تلك الستائر اللعينة فوقها. كنست المدخل مرة أخرى. وكانت تغني طوال الوقت حول القطارات و«أركنساس».

عندما أنهت عملها. ذهبت لأبحث عن فريدا. وجدتھا في الطابق الأعلى متمدة على السرير وهي تبكي بذلك النشيج المتعب الذي يعقب النحيب الأول — لهاث وارتعاشات. تمددت على السرير. ونظرت إلى الباقة الصغيرة من الورود البرية المرقشة على ثوبها. لقد اضمحلت وبهتت ألوانها وخطوطها نتيجة الغسل الكثير.

«ماذا حدث يا فريدا؟» رفعت وجهاً منتفخاً من بين ذراعيها المعقودتين. جلست، وهي ماتزال ترتعش، ودلت ساقيهما النحيفتين على جانب السرير. جثوت ورفعت طرف ثوبي لأمسح أنفها الذي يسيل. لم تكن تحب مسح الأنف بالثوب، ولكنها دعتنني أفعل هذه المرة. كانت أمي تفعل ذلك دائماً بمريلتها.

- «جلدوك؟» هزت رأسها بالنفي.

- «إذن لماذا تيكين؟»

- «لأنه..»

- «لأنه ماذا؟»

- «السيد هنري».

- «ماذا فعل؟»

- «ضربه بابا».

- «لماذا؟ يسبب ماجينو لاين؟ هل عرف بالأمر؟»

- «لا».

- «حسناً، ما الأمر إذا؟ قولي يا فريدا. كيف يمكن أن لا أعرف بالأمر».

- «إنه.. ضايقتني».

- «ضايقتك؟ تعنين مثل سوفيد تشيرتش؟»

- «شبيه بذلك»

- «هل أراك عورته؟».
- «لا لا لا، لقد لمسني».
- «أين؟».
- «هنا وهنا». وأشارت إلى النهدين الصغيرين اللذين يشبهان جوزتي بلوط متدليتين، نثرا أوراق زهر باهتة على ثوبها.
- «حقاً؟ وكيف شعرت؟».
- «أوه، كلوديا» بدت متضايقة. لم أسال الأسئلة المناسبة.
- «لم أشعر بأي شيء».
- «ولكن أليس من المفروض أن تشعرني بشيء؟ شعور جميل..ها؟».
- حككت فريدا على أسنانها: «وماذا فعل هو؟ قرصهما فقط».
- تأوتت: «قال أولاً كم أنا جميلة. ثم أمسك بذراعي ولمسني».
- «وأين كان بابا وماما؟»
- «كانا يشذبان الحديقة».
- «وماذا قلت له حين فعل ذلك؟»
- «لا شيء». خرجت راکضة من المطبخ، وذهبت إلى الحديقة».
- «ولكن ماما قالت أننا لا يجب أن نقطع خطوط الغرس بمفردنا».
- «وماذا ستفعلين أنت؟ تجلسين هناك وتدعيه يقرصك؟»
- نظرت إلى صدري: «لأملك شيئاً ليقرصه، ولن أملك شيئاً أبداً».
- «أوه ياكلوديا. أنت تغارين من كل شيء. تريدينه أن يفعل؟»
- «لا، ولكنني تعبت من كوني آخر من يملك أي شيء».
- «لسنا كذلك. ماذا عن الحمى القرمزية؟ كنت أول من أصيب بها».
- «نعم، ولكن ذلك لم يستمر. على أية حال، ماذا حدث في الحديقة؟»
- «أخبرت ماما، وماما أخبرت بابا، وعندما عدنا كلنا إلى البيت، كان قد خرج، فانتظرناه، وعندما رآه أبي في المدخل، رمى دراجتنا القديمة على رأسه، ثم ضربه بقوة».
- «هل مات؟»

- «لا. نهض وبدأ يغني: «ربي أقرب إليك». ثم ضربته أمي بالكنسة وهي تقول له أن لا يذكر اسم الله على لسانه، ولكنه لم يتوقف، وكان أبي يلعن، وكل شخص يصرخ.

- «آه. استمري. دائماً تفوتني هذه المشاهد».

- «وأتى السيد بوفورد بمسدسه، وقالت له أمي أن يذهب إلى مكان ما ويجلس فيه، وقال أبي لا، أعطني المسدس، ففعل ذلك السيد بوفورد، وصرخت أمي، فخرس السيد هنري وبدأ يركض، فأطلق أبي الرصاص عليه، وخلع السيد هنري حذاءه واستمر يركض بجواربه، ثم أتت روزمري وقالت أن أبي سيذهب إلى السجن، فضربتها».

- «بقوة؟»

- «بقوة».

- «وعند ذلك جلدتك أمي؟»

- «لم تجلدني. لقد أخبرتك».

- «إذن لماذا تبكين؟»

- «أتت الآنسة دونيون بعد أن هدأ كل شخص، وكانت ماما وبابا يتشاجران حول من سمح للسيد هنري بالمجيء. وقالت لماما أنها يجب أن تأخذني إلى الطبيب لأنني ربما قد فقدت عفاي، «فبدأت ماما تصرخ من جديد».

- «عليك؟»

- «لا، على الآنسة دونيون».

- «ولكن لماذا تبكين؟».

- «لأنني لأريد أن أفقد عفاي».

- «ماذا تعني هذه الكلمة؟»

- «أنت تعرفين. مثل ماجينو لاين. أنها فقدت عفافها. أمي قالت

ذلك». وانهمرت الدموع ثانية.

قفزت إلى الذهن صورة فريدا، ضخمة، سمينة، رجلاها النحيلتان منتفختان، وطبقات من الجلد المحمر تحيط بوجهها. وترقرقت الدموع في عيني أنا أيضاً.

- «ولكن يافريدا، بإمكانك أن تمارسي الرياضة، وأن لاتأكلي كثيراً».

- هزت فريدا كتفيها مستهزئة.

- «وماذا عن تشاينا وبولند؟ إنهما فقدتا عذريتهما أيضاً، أليس كذلك؟ ولكنهما ليستا سمينتين».

- «لأنهما يشربان الويسكي. ماما تقول أن الويسكي أكلهما».

- «تستطيعين أن تشربي الويسكي».

- «ومن أين أستطيع أن أحصل على الويسكي؟»

فكرنا بذلك. لأحد سيبيع الويسكي لنا. كما أننا، على أية حال، لانملك نقوداً. ولايوجد ويسكي في بيتنا. من عنده ويسكي؟

قلت لفريدا: «بيكولا. أبوها يشرب دائماً. تستطيع أن تعطينا ويسكي».

- «تعتقدين ذلك؟»

- «بالتأكيد. كولي يشرب دائماً. دعينا نذهب ونسألها. ولسنا مضطرتين أن نسألها عن السبب».

- «الآن؟»

- «بالتأكيد، الآن»

- «وماذا سنقول لماما؟»

- «لاشيء. دعينا نخرج من الخلف، الواحدة بعد الأخرى، فلا تلاحظنا».

- «حسناً. إخرجي أنت أولاً ياكلوديا».

فتحنا بوابة السياج في آخر الحديقة الخلفية. وركضنا في الزقاق.

كانت بيكولا تعيش على الجانب الآخر من برودواي لم نذهب إلى بيتها من قبل، ولكننا نعرف مكانه. بناية رمادية ذات طابقين، في الأول يوجد مخزن. وفي الثانية شقة.

طرقنا الباب الأمامي ولكن لم يرد أحد، فذهبنا إلى الباب الجانبي، وعندما اقتربنا، سمعنا موسيقى منبعثة من راديو، وتطلعنا لنرى مصدر الصوت.

في شرفة الطابق الثاني، ذات الدرابزون القديم المهترى، كانت تجلس الماجينو لآين نفسها. نظرنا إليها ملياً: جبل من اللحم. كانت متمددة، أكثر من كونها جالسة، على كرسي هزاز. لم تكن تلبس حذاء، فبرز كلا قدميها من خلال الدرابزون: أصابع صغيرة، كأصابع طفل، في أعلى القدمين الغليظتين، كاحلان منتفخان بدا عليهما الجلد ناعماً ومشدوداً في آن، رجلان ضخمتان تنفرجان، بشكل واسع، عند الركبتين مثل جذعة شجرة، يمتد عليهما طريقان يؤديان إلى فخذين ناعمتين رخوتين تقبلان بعضهما البعض في ظل الثوب وتنغلقان، وبرزت في يدها المبقعة، مثل غصن محترق، قنينة شراب غازي ذي لون بني غامق.

نظرت إلينا من خلال الدرابزون، وأصدرت جشأة طويلة بصوت منخفض. كانت عيناها صافيتين مثل قطرتي مطر. فتذكرت، مرة أخرى، الشلالات. لم تستطع أي منها الكلام، وتخيلنا معاً أننا نرى أمامنا ماستصبحه فريدا. ابتسمت لنا ماجينو لآين ثم قالت:

«تبحثان عن شخص؟»

كان علي أن أسحب لساني من سقف فمي لأقول: «بيكولا، تعيش هنا؟» - «إي، إي. ولكنها ليست هنا الآن. ذهبت إلى مكان عمل أمها لتجلب الغسيل».

- «نعم مدام. ترجع؟»

- «إي، إي...عليها أن تنشر الغسيل قبل غروب الشمس».

- «أوه».

- «بإمكانكما أن تنتظراها. تريدان أن تأتيا وتنتظرا؟»

تبادلنا النظرات. ونظرت ثانية إلى الطرق الفسيحة من الغرفة، التي تلتقي في ظل ثوبها.

وقالت فريدا: «لا، يامدام».

«فردت ماجينو لآين، وقد بدت مهتمة بمشكلتنا».

- «حسناً، تستطيعان أن تذهبا إلى مكان عمل أمها، ولكنه هناك فوق، قرب البحيرة».

- «أين قرب البحيرة؟»

- «قرب بيت أبيض كبير فيه عربة يد مملوءة بالأزهار».

إنه بيت كنا نعرفه، وكانت تثير أعجابنا تلك العربة الكبيرة البيضاء ذات العجلات المائلة، المليئة دائماً بالأزهار الموسمية.

«أليس المكان أبعد من أن تمضيا إليه مشياً على الأقدام؟»

حككت فريدا ركبتها.

«لماذا لا تنتظرانها هنا؟ تستطيعان أن تنتظرا هنا تشربان شيئاً؟»

توهجت، ثانية، تلك العينان المتشربتان بقطرات المطر، وكانت ابتسامتها تملأ فمها، وليس مثل ابتسامات الكبار الآخرين الشحيحة المتمنعة.

تحركت لأصعد السلم، ولكن فريدا قالت: «لا يامدام، غير مسموح لنا».

اندهشت لشجاعتهما، وارتعبت من جوابها الوقح. اختفت ابتسامة

الماجينو لابين:

- «غير مسموح لكما؟»

- «نعم، مدام»

- «غير مسموح لكما ماذا؟»

- «أن ندخل بيتك».

- «صحيح؟» مازالت الشلالات في عينيها

- «لماذا؟»

- «أمي قالت ذلك. أمي قالت أنك فقدت. عفاذك».

بدأت الشلالات تجري ثانية. رفعت القنينة إلى شفيتها وأفرغتها كلها وبحركة رشيقة، لفظة سريعة جداً. وصغيرة جداً لم نرها حقاً، وإنما تذكرناها بعد ذلك، قذفت القنينة علينا من فوق الدرابزون. تكسرت شظايا عند أقدامنا، وتركت خدوشاً على أرجلنا قبل أن يكون بإمكاننا القفز.

وضعت ماجينو لابين يداً غليظة على بطنها وأخذت تضحك في البداية كان مجرد طنين في أعماق فمها المغلق، بصوت أعرض وأقوى. ضحك جميل ومخيف في الوقت نفسه. ثم أمالت رأسها على الجانبين، وأغلقت

عينيهما، وهزّت جذعها الضخم. وكانت ضحكاتها تتساقط مثل أوراق حمراء حولنا، ضحكات تتكسر تلفّ حولنا وتتبعنا ونحن نركض انقطعنا أنفاسنا كما أرجلنا وبعد أن استرحنا عند شجرة، ورؤوسنا على سواعدنا، قلت: «دعينا نذهب إلى البيت».

كانت فريدا ماتزال غاضبة، فقد كانت تقاتل، كما اعتقدت، من أجل حياتها. «لا، يجب أن نحصل عليه الآن».

- «لا نستطيع أن نقطع كل هذا الطريق إلى البحيرة».

- «بل نستطيع، تعالي».

- «ماما ستقتلنا».

- «لن تفعل. كل ما ستفعله هو أن تجلدنا».

كان ذلك صحيحاً. لن تقتلنا، أو تضحك علينا ذلك الضحك الرهيب، أو تقدفنا بقنينة.

مشينا في طرق تصطف على جانبيها الأشجار، وبيوت رمادية محنية مثل سيدات متعبات... تغيرت الشوارع، فبدت البيوت أكثر ثباتاً، طلاؤها أكثر جدة، ودعائم الشرفات أكثر استقامة، وفناءاتها أعرض. ثم وصلنا إلى بيوت قرميذية بعيدة عن الشارع، تمتد أمامها باحات في نهاياتها شجيرات مقصوصة بأشكال مخروطية ودائرية جميلة ذات لون أخضر مخملي كانت البيوت المواجهة للبحيرة هي الأجمل. أثاث الحدائق، والزخرفة، والنوافذ التي مثل نظارات صقيلة، ولكن لا يوجد أي أثر للحياة كانت هذه الحدائق تقع في منحدر أخضر يهبط إلى شريط رملي، ثم إلى بحيرة «إيري» الزرقاء، محيطة بكل الطريق إلى كندا، والسماء ذات البقع الصفراء في القسم الذي يقع فيه مصنع الصلب، لم تكن لتصل إلى هذا القسم من المدينة. السماء هنا زرقاء دائماً.

وصلنا إلى منتزه «ليك شور»، وهو منتزه واسع تنتشر فيه براعم الزهور، والنافورات، وملاعب البولنغ، والموائد كان فارغاً في ذلك الوقت. ولكن سرعان ما سيؤمه الآباء والأطفال البيض، الأطفال النظيفون، المهذبون، الذين سيلعبون في المناطق المظلمة على البحيرة، سيهرعون راكضين مرة،

متعثرين مرة على تلك المنحدرات المؤدية إلى الماء الذي سيستقبلهم بحرارة. لم يكن مسموحاً للسود بدخول المنتزه، ولذلك ملأ علينا أحلامنا.

قبل مدخل المنتزه مباشرة، كان هناك البيت الأبيض الفخم. ذي العربة الملثية بالأزهار وكانت أنصال الزعفران القصيرة مغمودة في القلوب الأرجوانية - البيضاء التي تكون أول من يتحمل برد ومطر أول الربيع. أما المشي فقط كان مرصوفاً بعدم نظام محسوب مخفياً التناسق الحاذق. مامننا من التسكع هناك هو الخوف ومعرفتنا بأننا لا ننتهي إلى هذا المكان درنا حول البيت الفخم، واتجهنا للخلف. على شرفة صغيرة محاطة بدرايزون - جلست بيكولا لابسة كنزة صوفية ذات لون أحمر فاتح، وثوباً قطنياً أزرق، وكانت هناك عربة صغيرة جنبها، بدت سعيدة بروتينا.

- «مرحباً»

- «مرحباً»

- «ماذا تفعلان هنا؟» ابتسمت وهي نادراً ما تبتسم، فأحسست، لدهشتي، بالسرور لذلك.

- «كنا نبحث عنك»

- «من أخبركم أنني أعيش هنا؟»

- «ماجينو لاين»

- «من تكون هذه؟»

- «تلك السيدة الضخمة السمينة. أنها تعيش فوق»

- «أوه، تقصدان الآنسة ماريا، اسمها ماريا»

- «حسناً، كل الناس يدعونها الآنسة ماجينو لاين. هل أنت خائفة؟»

- «خائفة من ماذا؟»

- «من ماجينو لاين».

بدت بيكولا حائرة حقاً. «لماذا؟»

- «هل تسمح لك أمك بالذهاب إلى بيتها، والأكل من صحنونها؟»

- «أمي لاتعرف أنني أذهب إليها. الآنسة ماريا لطيفة. كلهن لطيفات»

فقلت لها: «لقد حاولت أن تقتلنا».

- «من؟ الآنسة ماري؟ إنها لاتزعج أي إنسان».

- «إذن لماذا لاتسمح لك أمك بالذهاب إلى بيتها إذا كانت لطيفة؟»

- «لا، لأعرف. تقول أنها سيئة. ولكنهن لسن سيئات. إنهن يعطينني أشياء دائماً».

- «آية أشياء؟»

(أشياء كثيرة. ملابس جميلة وأحذية. حصلت منهن على أحذية أكثر مما لبست طوال حياتي به. إنهم يعطينني حلياً، وحلوى ونقوداً، ويأخذونني إلى السينما. ومرة ذهبت معهن إلى الكرنفال. ومرة أخذتني تشاينا إلى «سليغيلاند» لأرى الميدان، وأخذتني بولند إلى شيكاغو لأرى استعراض الطيران).

- «كذابة، ليس عندك ملابس جميلة».

- «نعم، عندي».

- «أوه، بيكولا، لماذا تخبريننا بكل هذه الأشياء التافهة؟»

- «ليست تافهة». انتصبت بيكولا مستعدة للدفاع عن أقوالها عندما

فتح الباب.

أخرجت السيدة بريدلوف رأسها من الباب قائلة: «ماذا يجري هنا؟ بيكولا، من هما هاتان الطفلتان؟»

- «فريدا وكلوديا سيدة بريدلوف».

- «بنات من؟» أقبلت من الشرفة، وبدت أكثر جمالاً من المرات السابقة

التي رأيتهما فيها، ببذلتها البيضاء وتسريحتها الصغيرة المرفوعة فوق جبينها.

- «بنات ماك تير ياماما».

- «أوه، نعم، الذين يعيشون في شارع ٢١»

- «نعم يامدام».

- «ماذا تفعلان هنا؟»

- «نتمشى فقط. جئنا لنرى بيكولا»

- «حسناً، من الأفضل أن تعودا مبكراً، تعالا الآن حتى أجلب الغسيل، وبعدها يمكن أن تتمشيا مع بيكولا»

دخلنا إلى المطبخ، وهو غرفة كبيرة فسيحة، كان جلد السيدة بريدلوف يبدو متورداً - مثل التفطة - في انعكاس الخزف الصيني الأبيض، والأدوات الخشبية البيضاء، والأواني المصقولة، والخزف النحاسي المتألق. وكانت رائحة اللحم، والخضراوات، وشيء محمص للتو تختلط مع رائحة نغف.

- «سأذهب لأجلب الغسيل، قفن هناك بلا حراك، ولا تعبثن بأي شيء». اختفت خلف باب أبيض دوار، وكان بإمكاننا أن نسمع وقع خطواتها المتقطع وهي تهبط إلى الدور السفلي.

فتح باب آخر، ودخلت فتاة صغيرة، أصغر سنًا وحجمًا منا جميعاً. كانت ترتدي ثوباً مفتوح الظهر، وشبشباً رقيقاً قرنفلتي اللون، تبرز في مقدمته أذنا أرنب. وكان شعرها الأصفر كالثمنج مربوطاً بشريط سميك. حينما رأتنا، تراقص الخوف في وجهها لثانية، ونظرت قلقة في أنحاء المطبخ. ثم سألت: «أين بولي؟»

أحسست بالغليان نفسه في داخلي، إن تسميتها السيدة بريدلوف (بولي)، في حين أنه حتى بيكولا تدعو أمها بالسيدة بريدلوف، بدت لي سبباً كافياً لأن أنبش أظفاري في وجهها. قلت لها: «تحت».

فنادت: «بولي».

وهمست لي فريدا: «انظري. انظري هناك». على الطاولة الطويلة، قرب الموقد، وفي حوض فضي، كان هناك إناء عميق مملوء بشراب التوت. وكان العصير الأرجواني يطفح هنا وهناك على السطح. اقتربنا منه. قالت فريدا: «ما يزال حاراً».

مدت بيكولا يدها لتمسك الوعاء، وترى فيما إذا كان حاراً.

ونادت الفتاة الصغيرة ثانية: «كولي، تعالي».

قد يكون ذلك بسبب العصبية، أو نتيجة حركة خرقاء، لأدري، إذ أن الوعاء مال تحت أصابع بيكولا وسقط على الأرض، وانتشر التوت

المسود على الأرض، وتناثر كثير من العصير على ساقى بيكولا، ولابد أن الحروق كانت مؤلمة لأنها أخذت تصرخ وتقفز، في الوقت الذي دخلت فيه السيدة بريدلوف بصرة الغسيل. في قفزة واحدة كانت فوق بيكولا، وبطحتها على الأرض وهي تضربها بظهر يدها. انزلقت بيكولا في العصير، وقد ألتفت إحدى رجليها تحتها. جرّتها السيدة بريدلوف من ذراعها، وصفتها ثانية، وشتمتها بشكل مباشر بصوت ضعيف من الغضب، وشتمتنا ضمناً: «حمقاء مجنونة... الأرض... الأرض... القذارة... انظري ماذا... العمل... مجنونة... الأرض... الأرض... الأرض».

كانت كلماتها أكثر حرارة وسواداً. من التوت المدخن. وانسحبنا إلى الخلف مرعوبتين.

أخذت الفتاة الصغيرة تصرخ، فاستدارت نحوها السيدة بريدلوف: «اهدئي ياطفتي، اهدئي، تعالي هنا. آه يا إلهي، انظري لثوبك. لا تبكي أكثر. ستغيره لك بولي».

اتجهت إلى المغسلة، وفتحت الحنفية على المنشفة. كانت تبصق علينا الكلمات مثل قطع فاسدة من تفاحة. ومن فوق كتفها

- «إحملي الغسيل، واخرجي من هنا، حتى أنظف هذه القذارة».

رفعت بيكولا صرة الغسيل المليئة بالملابس المبللة، وأسرعنا خارجتين. وفي الوقت الذي وضعت فيه بيكولا الغسيل على العربة، كان بإمكاننا سماع السيدة بريدلوف تهديء وتسترخي تلك الطفلة الصغيرة البنفسجية الصفراء.

- «من كنّ يابولي؟»

- «لا تقلقي أبداً».

- «ستعدين فطيرة جديدة؟»

- «بالطبع».

- «من كنّ يابولي؟»

- «اهدئي، لا تقلقي أبداً» همست وجاءت العذوبة في كلماتها لتكمل مشهد الغروب المسفوح على البحيرة.

انظر الأم الأم لطيفة جداً الأم
ستلعب مع جانيت الأم تضحك
اضحكي يا أم اضحكي

الشيء الأكثر سهولة هو أن تفسر مشكلتها انطلاقاً من قدمها. هذا هو ما فعلته هي. ولكن إذا أردنا اكتشاف الحقيقة حول كيفية موت الأحلام، فعلى المرء أن لا يصدق أي كلمة يقولها الشخص الحالم. ربما كان التجويف في أحد أسنانها الأمامية هو نهاية بدايتها الجميلة. وبالرغم من أنها الطفلة التاسعة من بين أحد عشر طفلاً، وأنها تعيش على قمة ألباما الطينية الحمراء التي تبعد سبعة أميال عن أقرب طريق، فإن تلك اللامبالاة التامة التي استقبلت فيها المسمار الصديء وهو يثقب قدمها خلال السنة الثانية من حياتها، هي التي أنقذت بولين وليمز من أن تكون مجهولة تماماً. تركها الجرح بقدم معوجة ترتفع وتنخفض عندما تمشي، ليس العرج هو الذي لوى، في النهاية، عمودها الفقري، ولكن طريقة رفع تلك القدم المزعجة، وكأنها تنتزعها من دوامات تهدد بابتلاعها. هذا التشوّه، الذي كان طفيفاً، أوضح لها عدة أمور ما كانت لتكون بدونه مفهومة. لماذا لا تملك وحدها، من بين جميع الأطفال، اسم دلع؟ لماذا لا يروي أحد الطرائف أو الحكايات حول الأشياء المسلية التي تقوم بها. لماذا لا يعلق أحد على إعدادها للطعام؟ ولا يحتفظ أحد بها بالرقبة أو الجناح؟ لماذا لم يطبخوا مرة البازلاء في قدر منفصل بدون أرز لأنها لا تحب الأرز؟ لماذا حتى لم يضايقها أحد؟ لماذا لم تشعر قط أنها في بيتها، أو أنها تنتمي لأي مكان؟ كانت تعتبر قدمها مسؤولة عن هذا الشعور بالعزلة وعدم الاستحقاق، بدأت تنمو، وقد حصرت نفسها كطفلة في هذه الشرنقة التي نسجت عائلتها، متعاً خاصة هادئة كانت تحب، أكثر من أي شيء آخر، ترتيب الأشياء، وتنظيمها في صفوف: مرطبات حفظ الأغذية على

الرفوف، نوى الدراق على السلم..العصي، والأحجار، والأوراق، وكان أفراد العائلة يتركون هذا الترتيب على حاله. وعندما يبعثر أحدهم، بلا قصد هذه الصفوف المنتظمة، فإنه يتوقف ليصلح الأمر، وهي لاتغضب أبداً، فذلك يعطيها فرصة لإعادة ترتيبها من جديد، ومهما كان عددها كبيراً. فإنها تنظمها في صفوف مرتبة حسب الحجم، والشكل، وتدرج شجرة الحور القطني في صف واحد، ولا تضع أبداً مرطبانات الطماطم بجوار الفاصولياء الخضراء. خلال سنواتها الأربع في المدرسة كانت تسحرها الأرقام وتسبب لها الكلمات الكأبة، وقد فقدت من دون أن تدري كثيراً من الأصباغ والأقلام قبل بداية الحرب العالمية الأولى بقليل، اكتشفت عائلة وليمز، من الجيران والأقارب العائدين، إمكانية العيش، بشكل أفضل، في مكان آخر. هاجروا في دفعات ومجموعات، ست رحلات في ستة أسابيع، مختلطين مع عوائل أخرى، إلى كنتاكي حيث المناجم والعمل في المطاحن.

«كان الوقت ليلاً عندما غادرنا ذلك القيو، وانتظرنا الشاحنة عند المحطة. هاجمتنا حشرات حزيران^(١) من كل مكان، أضاءت ورقة شجرة، ثم رأيت شريطاً أخضر يظهر بين وقت وآخر. كانت هذه آخر مرة أرى فيها حشرات حزيران حقيقية. الحشرات هنا هي ليست حشرات حزيران. إنها شيء آخر، يسميها الناس هنا حباب. ولكنها كانت تختلف هناك. إنني أتذكر ذلك الشريط من الإخضرار، أتذكره جيداً».

عاشوا في كنتاكي في بلدة حقيقية، عشر إلى خمسة عشر بيتاً في شارع واحد بأنابيب مياه تصل إلى المطبخ. وجد «آدا» و«فاولر وليمز» بيتاً خشبياً بخمس غرف بفناء يحيطه سياج، كان مرةً أبيض، زرعت عليه أم بولين زهوراً، واحتفظوا ببضع دجاجات داخل الفناء، التحق إخوانها بالجيش، وماتت إحدى أخواتها، وتزوجت اثنتان، فتوفرت بذلك مساحة أرحب. كان الارتحال إلى هذا المكان مريحاً، بشكل خاص، لـ«بولين» التي بلغت

(١) : هي حشرات تميز بأجنحة لصفها غشائي ولفها جلدي.

السن الذي تترك فيه المدرسة، عملت السيدة وليمز منظمة وطباخة عند وزير أبيض يسكن في الجانب الآخر من المدينة. أما بولين، التي أصبحت الأكبر سناً في البيت، فقد تولت العناية بشؤون البيت. كانت تقوم بإصلاح السياج، وتنصب الأوتاد المسننة التي تربط فيها أسلاكاً كهربائية، وتجمع البيض، وتكنس، وتطبخ، وتغسل، وتهتم بالطفلين الصغيرين - توأمان هما: «تشيلكن» و«باي». لم تكن جيدة في تدبير شؤون البيت فقط، إنما كانت تستمتع بذلك أيضاً. وكان الهدوء يريم على البيت حين يغادر الأبوان إلى مكان العمل، ويكون الأطفال في المدرسة أو في المناجم. إن السكون والعزلة يجعلانها تشعر بالهدوء والنشاط، فهي تستطيع أن تنظم الأشياء وتنظف بدون مقاطعة حتى الساعة الثانية حين يعود «تشيلكن» و«باي».

عندما انتهت الحرب، كان التوأمان في العاشرة من عمرهما، فتركا المدرسة، أيضاً، ليعملا، وبلغت بولين الخامسة عشرة ومازالت تدبر شؤون البيت، ولكن بحماس أقل. بدأت التخيلات حول الرجال والحب، والملامسات تصرف انتباهها ويديها عن العمل. بدأ التغيير في الجو يؤثر عليها مثلما تؤثر عليها مشاهد وأصوات معينة. وقد ترجمت هذه المشاعر نفسها على شكل سوداوية شديدة. فكرت بموت الأشياء الحديثة الولادة، والطرق الموحشة، والغرباء الذي يظهرون من لا مكان فقط ليمسكوا يد إنسان ما، والغابات التي تغرب فيها الشمس دائماً. كانت هذه الأحلام تكبر عندما تكون في الكنيسة بشكل خاص. كانت الأغاني تعانقها، وعندما تحاول أن تركز ذهنها على عاقبة الخطيئة، فإن جسمها يرتجف طالباً الانعتاق. والخلاص، وولادة ثانية غامضة قد تحدث دون بذل أي جهد من طرفها. لم تكن عدوانية قط في أي من خيالاتها، وكانت تقتل الوقت عادة بالتمشي على ضفة النهر، أو تجمع التوت في حقل عندما يظهر شخص ما بعيداً وديعة نافذة، شخص يفهمها - بدون أن يتبادلا الكلام - شخص تستقيم قدمها وتنسبل عيناها أمام نظراته، الشخص بلا وجه بلا شكل، بلا صوت، بلا رائحة. إنه طيف خالص. رقة تعانقها بقوة ووعد بالراحة.

ولم يكن من المهم أنها ليست لديها أية فكرة عما تفعل أو ماذا تقول
للطيف، بعد تعرف صامت ولسات بلا صوت، تحطمت أحلامها، ولكن
الطيف كان يعرف ماذا سيفعل. كان عليها فقط أن تضع رأسها على
صدره، وهو سيقودها إلى البحر، إلى المدينة، إلى الغابات... إلى الأبد.
كانت هناك امرأة تدعى إيفي يبدو أنها تحمل في فمها كل الأصوات
الضاحجة في روح بولين غنت إيفي، الواقفة بعيداً قليلاً عن الكورس، عن
الجمال الأسود الذي لا تستطيع أن تسميه بولين، غنت عن الموت الذي
تتوق إليه بولين، وغنت عن الغريب الذي عرف بالأمر...

أيها الإله الكريم خذ بيدي
قدني دعني أقف على قدمي
أنا متعبة، وضعيفة، منهوكة القوى
قدني خلال العواصف والليل
قدني إلى الضياء
خذ بيدي، يا إلهي الكريم، وقدني
حين تصبح طريقي موحشة
يبقى الإله الكريم قربي
عندما توشك حياتي على الرحيل
إسمع صرختي، اسمع ندائي
أمسك يدي حتى لا أسقط

خذي بيدي، أيها الإله الكريم، وقدني

هكذا كان الأمر عندما ظهر الغريب، الشخص غير المحدد. وشعرت
بولين بالامتنان، وليس بالدهشة، أتى مختالاً طالماً من من شمس كنتاكي
في يوم من أشد أيام السنة حرارة، أتى كبيراً، أتى قوياً، أتى بعيون
صفراء، ومنخرين متسعين، وأتى بموسيقاه الخاصة.

كانت بولين منحنية، على السياج، وذراعاها متكئتان على المشاجب
المتقاطعة بين الأوتاد، كانت وضعت لتوها عجيبة البسكويت، ونظفت

أظافرها من الطحين. خلفها، ومن مسافة معينة، سمعت صغيراً، لازمةً سريعة، عالية النغمة من النوع الذي يردده الأولاد السود وهم يكتسون، أو يجرفون، أو حين يتمشون فقط. نوع من موسيقى الشارع حيث الضحك يغطي على القلق، والفرح قصير وحاد مثل شفرة مطواة أصغت بانتباه إلى موسيقى، تاركة إياها تنتزع ابتسامة من شفتيها. أصبح الصغير أعلى، ومع ذلك لم تستدر بعد، لأنها أرادت أن يستمر. وبعد أن ابتسمت لنفسها متخلصة من أفكارها الكثيثة سريعاً، ضحكت بصوت عال، واستدارت لترى. كان الشخص، الذي أطلق الصغير، منحنياً يدغغ قدمها المكسورة، ويقبل ساقها. لم تستطع أن تتوقف عن الضحك، ليس قبل أن ينظر إليها، وترى شمس كنتاكي تغمر عيني كولي بريدلوف الصغراوين ذي الجفنين الكثيفين.

«أريدك أن تعرف أنني حين رأيت كولي لأول مرة. كان الأمر يشبه كسراً من الألوان عرفناها في تلك البيوت الشعبية، إذ كنا نلتقط التوت بعد الجناز، وأضع بعضاً منه في جيب ثوبي الذي ألبسه يوم الأحد، فينهرس ويلطخ وركي، كان الأرجوان يوسخ ثوبي، فلا ينظف أبداً لا الثوب ولا أنا. وكان بإمكانني أن أحس بذلك الأرجوان عميقاً في داخلي، وبمصير الليمون الذي تعده ماما حين يعود أبي من الحقل. إنه بارد ومصفر بحباته التي تعوم عند القعر، ولن أنسى ذلك الشريط الأخضر الذي عملته حشرات حزيران على الأشجار في الليلة التي غادرنا فيها تلك البيوت. كان الأمر يشبه التوت، يشبه عصير الليمون، يشبه الشريط الأخضر لحشرات حزيران. أتوا كلهم معاً. وكان كولي نحيلاً حينها ذا عيين مشرقتين حقاً. اعتاد أن يصفر، وعندما كنت اسمعه أحس بالعرشات في جلدي».

أحب بولين وكولي بعضهما البعض. وبدا أن كولي يستلطف صحبتها، وحتى يستمتع بطريقة حياتها الريفية. ونقص معرفتها بحياة المدينة. كان يتحدث معها حول قدمها ويسألها، عندما يمشيان في شوارع المدينة أو في الحقول، إذا كانت تشعر بالتعب. وبدلاً من أن يتجاهل عاهتها، متظاهراً

بعدم وجودها بالنسبة إليه ، فإنه جعلها تبدو وكأنها شيء خاص ومحبيب ، فشعرت بولين بأن قدمها المريضة هي ميزة لها.

كان يلمسها بحزم ولكن برقة ، كما كانت تحلم تماماً ، ولكن بلا كآبة الغروب ، وضفاف الأنهار الموحشة . وكانت تشعر بالأمان والعرفان ، لأنه كان حنوناً ومفعماً بالحياة . لم تعرف قبله أن هناك قدراً كبيراً من الضحك في العالم .

اتفقا أن يتزوجا ، ويذهبا إلى الشمال حيث مصانع الصلب هناك بحاجة إلى عمال كما أخبرها كولي ، ذهبا إلى «ترين» و«أوهيو» ، شابين ، محبين ، مليئين بالنشاط . وجد كولي مباشرة عملاً في مصنع صلب ، أما بولين فقد اهتمت بتدبير شؤون المنزل .

حينئذٍ فقدت سناً أمامياً . لابد أنه كانت هناك قطعة صلبة ، قطعة بنية اللون حسببتها قطعة طعام فاستقرت على المينا لشهور ، وانزعت هناك فلم تتزحزح ، ثم انزلقت مع معجنون الأسنان إلى تحت . ومع الأكل انزلقت حتى الجذر دون أن تمر بالعصب ، ولذلك لم تشعر بوجودها أو بالضيق منها ، ونتيجة لضغط حاد على الجذر الذي فقد قوته . وسقط السن تاركاً جعدة مسننة خلفه . ولابد أن وضعية أسنانها قد سمحت لهذه القطعة الصغيرة البنية أن تستقر هناك .

في هذه المدينة الفتية النامية ، أوهيو ، التي بُلطت شوارعها الجانبية بالأسمنت ، الواقعة على ضفة بحيرة زرقاء هادئة ، والمعتزة بارتباطها الوثيق مع «أوبرلين» ، محطة المترو ، الواقعة على بعد ثلاثة عشر ميلاً فقط ، في هذه المدينة ، - البوتقة الواقعة في طرف أمريكا ، المواجهة لكندا الباردة ولكن المفتحة - أي شيء يمكن أن يعكر الحياة؟

«أنا وكولي دبّرنا أمورنا بشكل جيد في ذلك الوقت . أتينا إلى الشمال . معتقدين أن هناك كثيراً من الأعمال وكل شيء . انتقلنا إلى غرفتين فوق محل للأثاث ، وابتدأت أنا بتدبير شؤون البيت . وكان كولي يشتغل في مصنع للصلب . وكان كل شيء يبدو رائعاً . لأعرف ماذا حدث . كل شيء

قد تغير. كان من الصعب أن نتعرف على الناس هنا. لقد افتقدت الناس الذين عرفتهم. لم أعتد على كل هؤلاء الناس البيض، الأشخاص الذين عرفتهم سابقاً كانوا كريهين، ولكنهم لم يكونوا يأتون كثيراً، أعني أنني لم أكن أتعامل معهم كثيراً، فقط من وقت لآخر في الحقل، أو في مخازن التموين. ولكن الناس هنا في الشمال في كل مكان، جوارنا، تحتنا، في الشوارع، والناس الملونون قليلون بعيدون. الملونون في الشمال مختلفون أيضاً، مغمورون، ليس أحسن من البيض في أخلاقهم. إنهم يجعلونك تشعر بأنك بلا وزن، ولكنني لم أكن أتقبل ذلك منهم. كان ذلك الوقت الأكثر وحشة في حياتي. أتذكر أنني كنت أنظر إليهم من النافذة وأنا انتظر عودة كولي إلى البيت عند الثالثة. لم أكن أملك حتى قطة لأتحدث إليها»

في وحدتها، كانت تلجأ لزوجها طلباً للطمأنينة، والترفية عن نفسها ولأشياء أخرى تملأ فراغها. لم يكن عمل البيت كافياً لملء الفراغ فهناك غرفتان فقط، ولا يوجد فناء لتعنى به أو تتمشى فيه كانت النساء في المدينة يلبسن أحذية ذات كموب عالية. وعندما حاولت بولين أن تلبسها ازداد الوضع سوءاً، فجرّها لقدمها أصبح عرجاً واضحاً. كان كولي مايزال حنوناً، ولكنه بدأ يقاوم اعتمادها الكامل عليه. وبدأ كلامهما مع بعضهما يقل أكثر فأكثر لم تكن هناك مشكلة بالنسبة إليه في إيجاد أشخاص، وأشياء أخرى ليشغل نفسه بها، فكان الرجال يصعدون السلم دائماً مسائلين عنه، وكان سعيداً بمصاحبتهم، تاركاً إياها وحيدة.

لم تشعر بولين بالراحة مع النساء القليلات اللواتي كانت تقابلهن. كن يضحكن منها لأنها لا ترتب شعرها، وعندما حاولت أن تضع مكياجاً على وجهها، مثل ما يفعلن، فعلت ذلك بطريقة سيئة، وأدت نظراتهن الغامزة، وضحكاتهن الخافتة بسبب طريقتها في اللبس، وفي الحديث «مثل الأطفال» كما يقلن، إلى زيادة رغبتها في الشراء. وقررت أن تعمل عندما بدأ كولي يتشاجر معها كلما طلبت نقوداً ساعدها عملها باليومية على شراء الملابس، وأشياء للشقة، ولكنه لم يكن ذا جدوى لكولي. وبدأ زواجهما يتصدع نتيجة

للشجارات المتكررة لم تكن بولين حينئذٍ أكثر من طفلة صغيرة، وكانت ماتزال تنتظر ذلك الطور من السعادة، يد ذلك الإله الكريم الذي يكون قريبها دائماً عندما يصبح طريقها أكثر وحشة، عندها فقط عرفت بوضوح ماذا تعني الوحشة أصبحت النقود محور مناقشاتهما، نقودها لشراء الملابس، ونقوده للشرب، والشيء المحزن هو أن بولين لم تكن تهتم حقاً بالملابس أو المكياج. كانت تريد فقط أن تلقي عليها النساء نظرات الأعجاب في الطريق.

بعد شهور من عملها بالمياومة، وجدت عملاً ثابتاً في بيت عائلة ذات موارد مالية ضئيلة، ولكنها عائلة مدعية وبخيلة.

«أصبح كولي أكثر دناءة، أكثر فأكثر وكان يريد أن يتشاجر معي طوال الوقت. أعطيته كل ما أحصل عليه كنت مضطرة لذلك. ما كنت أفعله هو العمل من أجل تلك المرأة كما يبدو والشجار مع كولي. كنت منهكة، ولكنني استمررت في عملي، ولو أن العمل لتلك المرأة كان أكثر من حماقة. لم تكن تهمني دناءتها كثيراً بقدر سذاجتها. كل العائلة كانت كذلك. لا أحد يتحمل الآخر. ولا بد أنك تعتقد أنه في بيت جميل جداً، وبالنقود التي تنهال عليه، فإن أفراد العائلة يستمتعون بصحبة بعضهم البعض. إنها تزجر وتصرخ لأبسط الأشياء. إذا قطع أحد أصدقائها المكالمة معها فأنها سوف تبكي. كانت سعيدة بالطبع بامتلاكها تليفون. لم أكن أنا أملك جهاز تليفون. أتذكر مرة أن أختها الذي أدخلته كلية الطب، أقام حفلة كبيرة ولم يدعها عملت ضجة كبيرة حول ذلك. بقي كل شخص ينتظر التليفون لأيام. واستمر الهرج والمرج. سألتني بولين: «ماذا كنت ستفعلن لو أن أختك أقام حفلة ولم يدعوك؟» فقلت إذا كنت راغبة حقاً بتلك الحفلة فأنني. كما أعتقد، سأذهب ولأهتم برغبته هو. فأصدرت صوتاً بأسنانها وكان ماقبلته هو منتهى الغباء بالنسبة إليها. كل الوقت كنت أفكر كم هي غبية. من أخبرها أن أختها هو صديقها؟ إن الناس لا يحبون بعضهم بعضاً لمجرد أن لهم أمّاً واحدة. حاولت نفسي أن أحب تلك المرأة، ولكنني لم أستطع أن أحبها.

أحياناً تفعل أشياء جيدة ولكني لم أستطع أن أحبها. فما أن أشعر تجاهها شعوراً طيباً حتى تقوم بفعل أشياء تجهلها، ومع ذلك تخبرني كيف أقوم بعملتي وكيف أنظف. إذا تركتها وشأنها فأنها ستفرق بالقذارة. لم أكن مضطرة أن التقط الأوساخ التي يخلفها «تشيكن» و «باي»، كما أنا مضطرة الآن. لأحد منهم يعرف جيداً كيف يسمح مؤخرته، أعرف ذلك لأنني أقوم بالغسل. وزوجها لا يعرف كيف يتخلص من فضلاته دون أن يلوث الحمام. الناس البيض القذرون يحومون حول الأشياء الأكثر قذارة. كنت أنتظر مجيء كولي. الذي سيبدأ سبابه، أتى سكران يريد بعض المال. عندما رآته تلك المرأة البيضاء أحمر وجهها. حاولت أن تتظاهر بأنها قوية، ولكنها كانت خائفة جداً. وعلى أية حال، طلبت من كولي أن يخرج وإلا طلبت الشرطة. لأنها وبدأ يجرّني. كان بإمكانني أن أهشم رأسه، ولكني لم أرد أن تتدخل الشرطة ولذلك أخذت أشياءي وغادرت. حاولت أن أعود، ولكنها قالت أنها لا تريدني في حالة بقيت مع كولي، وإنها ستدعني أبقى إذا تركت كولي. فكرت بذلك. من الغباء أن تترك امرأة سوداء رجلاً أسود لأجل امرأة بيضاء. لم تعطني حتى الأحد عشر دولاراً المدينة بها لي. ألمني ذلك كثيراً. قطعوا الغاز عني، ولم أستطع طبخ أي شيء. لقد توسلت فعلاً لتلك المرأة لتعطيني نقودي، ذهبت لأراها. كانت ترتعش من الغضب مثل دجاجة مبتلة. واستمرت تقول لي أنني مدينة لها ببذلات وسرير قديم مكسور كانت قد أعطتني إياه.. لم أعرف إذا كنت مدينة لها أم لا ولكني كنت بحاجة إلى المال لم تعطني أي شيء منه حتى عندما وعدتها بأن كولي لن يأتي إلى بيتها ثانية فقدت الأمل، فطلبت منها أن تقرضني هذا المبلغ ظلت هادئة لفترة، ثم أخبرتني بأنه لا ينبغي أن أسمح لرجل باستغلالي بهذا الشكل، وأنني ينبغي أن أحترم نفسي أكثر، وأنه من واجب زوجي أن يدفع المصروفات، وإذا لم يستطع، فعلي أن أتركه وأحصل على النفقة، وغير ذلك من هذا الهراء. هل سيدفع لي النفقة؟ إنها لم تفهم بأن كل ما أحتاحه منها دولاراتي

الأحد عشر لأدفع للرجل الذي يبيع الغاز حتى يكون بإمكانني أن أطبخ. لم يستطع رأسها التخمين أن يفهم هذا الشيء البسيط. «هل ستتركين يابولين؟» ظلت تقول لي. وظننت أنها ستعطيني نقودي إذا قلت لها أنني سأفعل. فقلت لها: «نعم يامدام». فقالت: «حسناً. اتركيه، وعودي للعمل، وسندع الماضي للماضي». فقلت: «هل أستطيع أن أحصل على نقودي الآن؟» فقالت: «لا، فقط عندما تتركينه. أنا أفكر فيك، وفي مستقبلك فقط. مانفعه، مانفعه لك يابولين؟» كيف يمكنك أن تجيب امرأة مثلها، لاتعرف ماالنفع من رجل، وتقول من زاوية فهمها أنها تفكر في مستقبلك ولكنها لاتعطيك فلوسك كي تشتري بها شيئاً إلى جانب النفاق لتأكل؟ ولذلك قلت: «لا، لانفع منه يامدام، لانفع منه. ولكن نفس الشيء، وأعتقد أنه من الأفضل أن أبقى معه». فانتصبت واقفة، وغادرت أنا. عندما أصبحت في الخارج، شعرت بالألم في أعلى الساقين، فضممت رجلاي معاً بقوة محاولة أن أجعل تلك المرأة تفهم ولكنها، كما أتذكر الآن، لم تستطع أن تفهم. كانت متزوجة من رجل ذي شقٍ في وجهه بدلاً من الفم «إذن كيف بإمكانها أن تفهم؟»

في شتاء ما، اكتشفت بولين أنها حامل. وعندما أخبرت كولي أدهشها سروره بذلك. بدأ يشرب أقل، ويلازم البيت أكثر. وأحسّ بالاسترخاء ثانية في علاقة تشبه علاقتهما أيام زواجهما الأولى. كان يسألها إذا كانت متعبة أو أنها تريده أن يذهب إلى المخزن لي جلب لها شيئاً. توقفت بولين، في فترة الاسترخاء هذه، عن عملها بالمياومة، وعادت للاهتمام بشؤون البيت. ولكن الوحدة في تانك الغرفتين لم تنته. فعندما سقطت أشعة الشمس القوية على الصبغ الأخضر المتقشر لكراسي المطبخ، وعندما كان الشراب في القدر يغلي، وكان كل ماتسمة هو صوت الشاحنة التي تنقل الأثاث تحتهم، فكرت بالعودة إلى مسقط رأسها، وفكرت كم كانت وحيدة أيضاً معظم الوقت حينها، ولكنها وحدة مختلفة. ثم توقفت عن التحديق في الكراسي الخضراء، وفي عربة نقل البضائع. وبدلاً من ذلك، ذهبت إلى السينما. هناك، في الظلام، انتعشت ذاكرتها، واستسلمت لأحلامها الأولى.

ومع فكرة الحب الرومانسي، تعرفت إلى فكرة أخرى - الجمال الجسدي -
قد تكون هاتان الفكرتان هما الأكثر تدميراً في تاريخ الفكر الانساني.
كلتاهما نشأتا في الحسد، وازدهرتا في انعدام الأمان، وانتهيتا بخيبة
الأمل، بوضعها الجمال الجسدي على قدم المساواة مع الفضيلة، تجردت
من عقلها، قيدته، وجمعت احتقارها لذاتها كومة بعد كومة. لقد نسيت
الشهوة، وأدنى اهتمام بها، واعتبرت الحب امتلاكاً جنسياً للآخر،
والرومانسية هدفاً للروح. سيكون بالنسبة لها ينبوعاً تغرف منه الانفعالات
الأكثر تدميراً، خداع المحب، والسعي إلى سجن العشوق وتقليص حريته
بكل طريقة.

لم تعد قادرة، بعد الدروس التي تعلمتها من السينما، أن تنظر إلى أيما
وجه إلا وتحدد صنفه في مقياس الجمال المطلق، وهذا المقياس تشربت به
بشكل كامل من الشاشة الفضية، هناك، أخيراً، الغابات المعتمة،
والطرق الموحشة، وضفاف النهر، والعيون الوديعية الفطنة، أصبح
الناقصون كاملين، أبصر العميان، ورمى الكسحيون والعرج عكازاتهم،
هناك مات الموت، وشارك كل الناس في جوقة الموسيقى. هناك امتزجت
الصور بالأبيض والأسود لتشكّل وحدة كاملة مهيبة - كل ذلك ظهر أمامها
من خلال شعاع الضوء المسلط من الأعلى والخلف.

إنها متعة بسيطة حقاً، ولكنها تعلمت هناك كل ماستحبه وكل
ماستكرهه.

«يبدو أن الوقت الوحيد الذي كنت أحس فيه بالسعادة هو وقت
ذهابي إلى السينما. كنت أذهب مبكرة، قبل أن يبدأ العرض. كانوا
يطفئون الأنوار، فيصبح كل شيء أسود، ثم تضيء الشاشة، فتثير الصور
مشاعري مباشرة، الرجال البيض يعتنون جيداً بنسائهم، وكلهن
يظهرن مرتديات ملابس رسمية في بيوت كبيرة نظيفة مزودة بحوض
استحمام في نفس الغرفة مع التواليت. كانت صورهن تمنحني سعادة
كبيرة، ولكنها تجعل عودتي إلى البيت صعبة، وتجعل رؤيتي لكولي
صعبة، لا أعرف، أتذكر ذهبت مرة لمشاهدة كلارك غيبل، وجين هارلو،

رتبت شعري مثلما رأيتها في مجلة، مفرق على جانب الرأس، وغرة على الجبين، بدت مثل غرتها تماماً، حسناً، مثل غرتها تقريباً على أية حال، جلست لمشاهدة العرض وشعري مرتب بتلك الطريقة، واستمتعت بوقتي. وظننت أنني سأشاهده إلى النهاية، وقمت لأشتري بعض الحلوى، عدت ثانية إلى مقعدي، قضمت قطعة كبيرة من الحلوى، فانخلع معها سناً أمامياً من أسناني، أحسست أنني سوف أصرخ كنت أملك أسناناً سليمة، ولا يوجد أي سن منخور في أسناني. لم أعتقد قط أن ذلك قد يحصل لي. هذي أنا، حاملة في شهري الخامس، أحاول أن أبدو شبيهة بجين هارلو، فيسقط سني الأمامي، انتهى كل شيء. لم أعد أهتم أن أبدو شبيهة بأي كان. أعدت شعري لطبيعته، وضفرتة، وتركته لتقبحه. كنت ما أزال أذهب إلى السينما، رغم ذلك، ولكن كولي ازداد دناءة، أردت استعادة سني لكزني كولي ساخراً مني، وعدنا نتشاجر من جديد، حاولت أن أقتله. لم يضربني بقوة لأنني كنت حاملاً كما أعتقد، ولكن الشجارات، ما أن بدأت ثانية، حتى استمرت. جعلني ازداد جنوناً أكثر من السابق، ولكني لا أستطيع أن أتخلى عنه. حسناً، هناك الطفل - ولد - وإضافة إلى ذلك أنا حامل بطفل آخر. ولكن الأمر لم يجر كما أردت.. إنني أحبهم، كلهم كما أعتقد. ولكنهم ملأوا حياتي هموماً، ربما بسبب المال، وربما بسبب كولي، فأجد نفسي أحياناً أصرخ فيهم وأضربهم، ثم أشعر بالأسف من أجلهم، ولكني لم أستطع كما يبدو أن أتوقف عندما ولدت الطفل الثاني، فتاة، أتذكر أنني قلت أنني سأحبها مهما يكن شكلها. كانت تشبه كرة سوداء من الشعر، لا أتذكر أنني أردت أن أحبل في المرة الأولى. ولكني في المرة الثانية حاولت فعلاً أن أحبل، ربما لأنني كنت قد أنجبت طفلاً، ولم أعد خائفة أن أفعل ذلك مرة أخرى. وعلى أية حال، كنت بحالة جيدة، ولم أفكر بالحمل، وإنما بالطفل فقط. اعتدت أن أتحدث معه وهو ما يزال في رحمي. كنا مثل صديقين حميمين أنتم تعرفون. كنت أنشر الغيسل، وأنا أعرف أن حمل أي ثقل مضر له، كنت أقول له إنتظر الآن حتى أنشر هذه البسطة

الجديدة، لاتكن كالضفدع، سأنتهي سريعاً، فيكفّ عن قفزاته. وأحياناً
أخلط عدة أشياء في القدر للطفل الآخر، ولكنني استمر في الحديث إليه
حتى في هذه الحالة. أنتم تعرفون. حديث أصدقاء. من البداية حتى
النهاية كنت أشعر شعوراً طيباً بخصوص ذلك الطفل. ذهبت إلى
المستشفى حين حان الوقت حتى تكون الولادة مريحة. لم أرد أن ألد في
البيت مثلما فعلت مع الولد. وضعوني في غرفة كبيرة مع عدد كبير من
النساء، أتى المخاض ولكنه لم يكن مؤلماً كثيراً، أتى طبيب عجوز
ليفحصني. كان يملك كل أنواع الأشياء. لبس قفازاً في يده، ووضع نوعاً
من الجلي عليها، ثم حشرها بين ساقي. عندما غادر أتى أطباء آخرون،
واحد عجوز والآخرون شباب. كان الطبيب العجوز يعلم الشباب،
ويريهم كيف يعملون مع الأطفال. عندما اقترب مني قال لهم هذي نساء
لاتصادفون معهن أية متاعب. أنهن يلدن مباشرة دون ألم مثل الخيول
تماماً. ابتسم الأطباء الشباب ابتسامات خفيفة. نظروا إلى بطني وبين
ساقَي. لم يقولوا أي شيء لي. واحد فقط نظر إليّ. أعني نظر إلى وجهي.
نظرت بدوري إلى وجهه مباشرة فاخفض عينيه وأحمر وجهه. ربما
عرف اني لن ألد مهراً كالحصان. ولكن الآخرين لم يعرفوا. مضوا
وسمعتهم يتحدثون مع نسايم البيض: «كيف حالكن؟ ستلدن توائم؟»
كانوا يمزحون فقط. حديث ودود لطيف. أصبحت عصبية جداً. وفرحت
عندما ازدادت آلامهن، فرحت لأنه كان هناك شيء آخر أفكر فيه. صدر
مني أنين مرعب. لم يكن الألم بهذه الدرجة، ولكنني أردت أن يعرف
هؤلاء الناس أن انجاب طفل هو أكثر من مجرد حركة في الأحشاء. تأملت
مثل نسايم البيض تماماً، فإذا كنت لم أتلو وأصرخ من قبل، فهذا
لايعني إنني لم أشعر بالألم. ماذا يعتقدون؟ لأنني أعرف أن أنجب طفلاً
بلا ضجة، فإن أردافي لا تقتلع وتوجعني مثل أردافهم؟ إضافة إلى ذلك،
فإن ذلك الطبيب لايعرف عما يتحدث. لابد أنه لم ير مهر فرس قط. من
يقول أنها تلد دون ألم؟ لأنها لا تصرخ فقط؟ لأنها لا تستطيع أن تعبّر
عن ألمها يعتقدون أنه غير موجود؟ لو ينظرون إلى عينيها ويرون مقتلبيها

كيف ترتحيان، ويرون نظراتها الحزينة، فسوف يعرفون. على أية حال، ولدت. طفلة كبيرة بصحة جيدة. بدت مختلفة عما فكرت به، أتذكر أنني تحدثت إليها كثيراً قبل أن استحضر في خيالي صورتها ولذلك عندما رأيتهما بدا الأمر مثلما تنظر إلى صورة أمك عندما كانت طفلة صغيرة. أنت تعرف من هي، ولكنها لا تبدو نفسها. ناولوني إياها لأرضعها، فبدت وكأنها تريد أن تنتزع حلمة الثدي فوراً. أمسكت به بسرعة. ليس مثل سامي الذي كان أصعب أطفالاً في الرضاعة. بدت بيكولا وكأنها تعرف ماذا تفعل. كانت طفلة ذكية. اعتدت أن أراقبها، أنتم تعرفون، أنهم يصدرون أصواتاً تدل على الشره. العينان لطيفتان نديتان. تهجين بين جرو وإنسان يموت. عرفت أنها قبيحة. الرأس مليء بشعر جميل، ولكنها، يا إلهي، قبيحة».

عندما كان سامي وبيكولا ما يزالان صغيرين، عادت بولين للعمل إنها أكبر الآن، ولاتملك وقتاً للسينما والأحلام. حان الوقت لأن تجمع كل الأجزاء معاً، وتجد الترابط الذي كان مفقوداً. فرض الأطفال هذه الضرورة، وهي، نفسها، لم تعد طفلة. لقد كبرت. وعملية صيرورتها تشبه صيرورة معظمنا: نمت كراهية للأشياء التي تربكها أو تعوقها، واكتسبت الفضائل التي من السهل المحافظة عليها، وحددت لنفسها دوراً في نظام الأشياء، وعادت إلى تلك الأوقات البسيطة لتشعر بالرضا.

لقد اضطلعت وأقرت بمسؤوليتها الكاملة عن إعالة العائلة، وعادت للذهاب إلى الكنيسة. انتقلت، أولاً، من تلك الغرفتين إلى طابق أول فسيح في بناية بُنيت أساساً كمخزن. وعاشت هناك مع نساء يحتقرنها، لأنها كانت أكثر أخلاقية منهن. وانتقمت لنفسها من كولي من خلال دفعه للانغماس أكثر في حالة الضعف التي تكرهها. التحقت بكنيسة حيث كانت تطلق صرخات الاستنكار، وخدمت في مكتب المالية وأصبحت عضواً في حلقة نسائية. وفي اجتماعات الصلاة كانت تئن وتندب سلوك كولي، وتأمل من الله أن يساعدها في حماية الأطفال من خطايا الأب. توقفت عن قول «جُهال» وأصبحت تقول «أطفال» بدلاً من ذلك. سقط لها سنّ ثانٍ،

وكانت تشعر بالغضب من النساء اللواتي يملأن وجوههن بالأصباغ، ويفكرن بالملابس والرجال فقط. حملت كولي، الذي تعتبره نموذجاً للخطيئة والفشل، مثل تاج من الشوك، وحملت أطفالها مثل صليب.

وجدت، لحسن حظها، عملاً ثابتاً في منزل عائلة ثرية أفرادها عطوفون، متفهمون وكرماء. كانت تنظر إلى بيوتهم. تشم رائحة الكتان، تلمس ملابسهم الحريرية، وكانت تحب كل ذلك: ثوب نوم الطفل القرنفلي، أكداً من أكياس المخدات البيضاء المطرزة الحواف، الملاءات ذات الحواشي المرسومة عليها القنطريون العنبري^(١) الأزرق. أصبحت مايسمونه «خادمة مثالية»، لأن هذا الدور قد سدّ، عملياً، كل حاجاتها. عندما كانت تحمّ الطفلة الصغيرة «فيشر»، فإن ذلك كان يتم في حوض استحمام من الخزف الصيني ذي حنفيات فضية تجري فيها كميات لا متناهية من الماء الحار الصافي، وكانت تجففها بمناشف بيضاء، وتلبسها ثياب نوم سميك، ثم تمسّط الشعر الأصفر مستمتعة بتموجه وانسيابه بين أصابعها. لا حوض استحمام من زنك، ولا دلواً من الماء المغلي على موقد، ولا مناشف خشنة مرمدة تترك زغباً على الجسم، تُغسل في مغسلة المطبخ، وتجفف في باحة الدار الخلفية المغبرة. توقفت عن محاولاتها في الاهتمام بشؤون بيتها، فكل الأشياء التي تمكنت من شرائها، وكانت رديئة الشكل والنوع، لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما استهلك في ذلك البيت الحقيق. أهملت بيتها أكثر فأكثر، وأولادها وزوجها، أصبحوا مثل الأفكار المتأخرة التي يفكر فيها المرء قبل النوم فقط، وفي الصباح الباكر، ونهايات المساء، النهايات المعمّمة التي تجعل حياتها في النهار مع عائلة «فيشر» تبدو أخفّ، وأرقّ، وأجمل. هنا تستطيع أن تنظم الأشياء، تنظف الأشياء، تصف الأشياء في صفوف مرتبة. هنا تستطيع أقدامها أن تنتقل من مكان لآخر على سجاجيد ذات وبر طويل. هنا وجدت الجمال، والنظام، والنظافة، والثناء.

قال السيد فيشر مرة: «أن قناعتها لكنز».



(١) القنطريون العنبري: نبات من الفصيلة المركبة.

أصبحت حاكمة على خِزانات مكدّس فيها إلى أعلاها طعام لن يؤكل لأسابيع وحتى لأشهر. وكانت ملكة على خضرافات معلّبة تشتري بالصناديق، وأقراص سكرية وحلوى بأشرطة ملونة في أطباق فضية صغيرة. وبدأ الدائنون وأصحاب المصالح الذين كانوا يذلّونها عندما تذهب إليهم باسمها يحترمونها، وحتى يرهّبونها حين تتحدث باسم عائلة فيشر. كانت ترفض لحم البقر إذا كان مسوداً قليلاً، أو غير مقطّع بشكل مناسب، وأصبحت ترمي السمك الذي تفوح منه، قليلاً رائحة عفنة، والذي كانت تقبل به لنفسها، في وجه صاحبه إذا أرسله إلى بيت فيشر، أصبحت القوة، والثناء، والرفاهية ملكها في هذه الأسرة.

لقد منحوها مالم تحصل عليه من قبل قط: اسم تحبب - بولي - وكانت سعادتها أن تجلس في المطبخ في نهاية اليوم لتقيم العمل الذي أنجزته، عارفة أن هناك دزينة من قطع الصابون، وشريحة من لحم الخنزير، وتجد متعة بالغة في رؤية القدور والمطاوي اللامعة، والأرضية المجلية، سامعة حديثهم وهم يقولون: «لن نسمح لها بتركنا أبداً. لن نستطيع أن نجد واحدة مثلها أبداً. إنها لا تترك المطبخ حتى يكون كل شيء في مكانه حقاً، إنها الخادمة المثالية».

احتفظت بولين بهذا النظام، بهذا الجمال لنفسها، عالم خاص لم تقدّمه قط إلى بيتها أو أطفالها الذين فرضت عليهم وجوب الاحترام، وبفعل ذلك علمتهم الخوف: الخوف من أن يتصرفوا بشكل أخرق، الخوف من أن يكونوا مثل أبيهم، الخوف من أن لا يحبهم الله، الخوف من أن يجنّوا مثل أم كولي قهرت. في داخل ابنها الرغبة العميقة بالهرب، قهرت في داخل ابنتها الخوف من النضوج، والخوف من الآخرين، والخوف من الحياة.

كل معنى حياتها كان في عملها. وحافظت جيداً على فضاءها، فقد استمرت تقوم بواجباتها الدينية بنشاط لم تدخن، أو تشرب، أو تنهتك. دافعت عن نفسها بقوة ضد كولي، حاولت أن تسمو عليه في كل شيء، كانت تشعر أنها تقوم بدورها كامّ وفق ما يمليه عليها ضميرها، حين تشير

إلى عيوبه حتى يتجنبوها، وكانت تعاقبهم عندما يبدر عنهم أي إهمال مهما كان طفيفاً، فهي تعمل ست عشرة ساعة من أجلهم. العالم كله يتفق معها في ذلك.

لكنها كانت تفكر أحياناً، أحياناً فقط، وبشكل نادر، بالأيام الخوالي، وكيف تحولت حياتها. كانت تأملات فقط، أفكاراً عقيمة، مليئة أحياناً بتلك الأحلام القديمة، ولكنها ليست من نوع تلك الأشياء التي تهتم بإمعان النظر فيها.

«كنت على وشك أن أتركه مرة. ولكن شيئاً قد حدث. مرة بعد أن حاول أن يحرق البيت، قررت أن أتركه. الآن لا أتذكر حتى مامنني من ذلك. نغص عليّ معظم حياتي. ولكن الأمور لم تكن سيئة تماماً. أحياناً يدخل إلى السرير غير سكران كثيراً. أظهار بالنوم لأن الوقت متأخر، ويأخذ من محفظة يدي ثلاثة دولارات في ذلك الصباح أو أي مبلغ. أسمعته يتنفس. ولكني لا أنظر إليه، أستطيع أن أتخيل ذراعيه السوداوين خلف رأسه، العضلات مثل صخور شاطئ ضخمة مغطاة بالرمل، بعروق تجري مثل أنهار صغيرة ترتفع مياها وتخفض. دون أن ألمسه أحس بذلك الارتفاع المتطاوّل على أطراف أصابعي. أرى راحتي كفيه تتصلبان مثل الغرانيث، والأصابع الطويلة تنعقف ثم تهمد. أفكر بشعر صدره الكثيف المليء بالعقد، وبالانتفاخين الكبيرين الناشئين عن عضلات صدره. أريد أن أفرك وجهي بقوة على صدره حتى يمزق شعره جلدي. أعرف تماماً أين تقل كثافة الشعر - فوق سرتة تماماً - ثم يستعيد نشاطه وينتشر. ربما يغيّر موضعه قليلاً، فتلامسني ساقه، أو أشعر بخاصرته تمسّ رديّ مساً خفيفاً. لا أتحرك مع ذلك. ثم يرفع رأسه، وينقلب، ويضع يده فوق خصري إذا لم أتحرك، فسوف يحرك يده ليسحب ويدلك بطني. بنعومة وبطء. لا أتحرك لأنني لأريده أن يتوقف. أرغب أن أظهار بالنوم. وأجعله يستمر بتدليك بطني. ثم سيحني رأسه ويعض حلمتي، ثم لا أريد منه أن يستمر بتدليك بطني أكثر. أريده أن يضع يده بين ساقي. أظهار بانني استيقظ، واستدير إليه

ولكنني لا أفتح عيني. أريده أن يفتحهما لي. يفعل ذلك، فأشعر بالنعومة والبطوبة في الأماكن التي تلمسها أصابعه القوية الصلبة. أصبح أكثر نعومة من أي وقت مضى. كل قوتي بين يديه. يلتف ذهني مثل أوراق ذابلة. إحساس مضحك. فارغ أحسه بين يدي. أريد أن أقبض على أي شيء، فأمسك برأسه تحت ذقني. ثم لأريد يده بين ساقي أكثر، لأنني أصبحت لينة تماماً. أمد ساقي مفتوحتين، يصبح فوقتي. ثقيل جداً لأحمله، وخفيف جداً لأن أمسك به. يضع شيء داخلني. داخلي. داخلي. لففت قدمي حول ظهره حتى لايفلت مني. وجهه قرب وجهي. أصوات زنبركات السرير كأصوات الصراصير العائدة إلى ماواها، يضع أصابعه بين أصابعي، ونمد أذرعنا مثل يسوع على الصليب».

انتظر مشدودة. أصابعي وأقدامي تنتظر مشدودة، لأن كل شيء آخر قد انهار، انهار. أعرف أنه يريدني أن أنتهي قبله. ولكنني لأستطيع. ليس قبل أن ينتهي هو. ليس قبل أن أشعر أنه يحبني. أنا فقط. يfokus في داخلي. ليس قبل أن أعرف أن جسدي هو وحده كل ما هو موجود في ذهني، وأنه لا يستطيع أن يتوقف حتى لو كان مضطراً لذلك. وأنه يفضل أن يموت على أن يخرج شيء من داخلي. من داخلي. ليس قبل. ليس قبل أن يدع كل ما يملكه يدخل في داخلي، ويمنحه لي. لي. عندما يفعل ذلك أشعر بالقوة. أصير قوية، أصير جميلة، أصير شابة، ثم أنتظر. يرتعش، ويتمايل رأسه. أنا الآن قوية كفاية، جميلة كفاية، وشابة كفاية لأدعه يجعلني أنتهي، أسحب أصابعي من بين أصابعه، وأضع يديه خلفه. تسقط ساقي ثانية على السرير. لأعمل أي ضجيج لأن الأطفال قد يسمعون. أبدأ أشعر بتلك الكسر من الألوان تطفو داخلي - عميقاً في داخلي - الشريط الأخضر لحشرات حزيران المضيئة، سائل القوت القرمزي يسيل قطرة قطرة على فخذي. شراب ليمون أبيض الأصفر يجري لذيذاً في داخلي. أشعر وكأنني أضحك بين ساقي. وأن ضحكاتي كلها تمتزج مع الألوان. وأخاف أن أنتهي وأخاف أن لا أنتهي. ولكنني أعرف أنني سأنتهي. وسيكون هناك قوس قزح في داخلي. سيبقى

طويلاً، طويلاً، طويلاً. أريد أن أشكره، ولكن لا أعرف كيف. فاضربه بلطف كما أضرب طفلاً. يسألني هل أنا علي مايرام، فأقول له نعم. يترجل عني ويتمدد لينام. أريد أن أقول شيئاً، ولكنني لا أفعل. لا أريد أن انتزع من ذهني قوس القزح. ينبغي أن أنهض، وأذهب إلى التواليت، ولكنني لا أفعل. كولي نائم وساقه فوقي. لا أستطيع أن أتحرك ولا أريد.

«ولكن الأمر لم يعد هكذا. أغلب الأوقات يشق طريقه إلى داخلي قبل أن أستيقظ، أو بين بين. وفي الأوقات الأخرى لا أستطيع حتى أن أتمدد قرب جسده المخمور النتن. ولكنني لم أعد اهتم بذلك. سيرعاني خالقي. أعرف أنه سيفعل. أعرف أنه سيفعل. إضافة إلى أن الأمر لم يعد يهمني في هذه الأرض الفانية. لا بد أن هناك سعادة في السماء. الشيء الوحيد الذي افتقده أحياناً هو قوس القزح، ولكنني لم أعد أتذكر ذلك كثيراً».

انظر إلى الأب إنه كبير وقوي أيها الأب

هل تلعب مع جانيت الأب

يبتسم ابتسم أيها الأب ابتسم

عندما كان عمر كولي أربعة أيام، لفّته أمه ببطانيتين وجريدة، ووضعتة على مزبلة قرب السكة الحديدية، ولكن عمّة أمه جيمي، التي رأت ابنة أخيها تخرج من الباب الخلفي حاملة رزمة، أنقذته. ضربتها بالنطاق ولم تسمح لها بالاقتراب من الطفل بعد هذه الحادثة. ربّت العمّة جيمي الطفل بنفسها، وكانت تشعر بالسرور أحياناً حين تخبره كيف أنقذته. فهم منها أن أمّه ليست سليمة العقل، ولكنه لم يملك الفرصة قط ليكتشف ذلك بنفسه، لأنها هربت بعد حادثة النطاق بوقت قصير، ولم يسمع عنها أحد شيئاً منذ ذلك الوقت. كان كولي يشعر بالجميل تجاهها لأنها أنقذته، ماعدا بعض الأوقات. في هذه الأوقات عندما كان يراقبها وهي تأكل الملفوف بأصابعها، كاشفة عن أسنانها الذهبية الأربع، وعندما كان يشمّ رائحة «أسافيتيدا» التي تضعها في كيس في رقبته^(١) أو عندما تجعله ينام معها في الشتاء طلباً للدفء فيكون بإمكانه أن يرى نهديها المترهلين متدليين تحت ثوب النوم، عندها كان يتساءل إذا كان من الأفضل له لو أنه مات هناك. مسحوقاً بعجلة تحت سماء جيورجيا السوداء.

مضت عليه أربع سنوات في المدرسة قبل أن يملك الشجاعة ليسأل العمّة جيمي من هو أبوه وأين هو. «ابن فولر ذاك» نعم أعتقد أنه كان ابنه. كان يتسكع هنا وهناك، ولكنه سرعان ما رحل سريعاً قبل أن تولد. أعتقد أنه رحل إلى ماكون. هو أو أخوه. ربما الاثنان. سمعت مرّة الرجل العجوز فولر يقول شيئاً حول ذلك.

(١) : مادة صمغية تستل من الأشجار عند قطعها أو جرحها وتستخدم في الطب الشعبي.

«ماذا كان اسمه؟»

«فولر، فوليش..»

«أعني اسمه الأول؟»

«أوه». أغلقت عينيها لتفكر، ثم تنهدت: «لم أعد أستطيع أن أتذكر هل كان سام؟ نعم، صموئيل. لا. لم يكن اسمه صموئيل. كان اسمه سامسون. سامسون فولر».

وسأل كولي بصوت منخفض: «كيف اتفق أنكم لم تسموني سامسون؟»

«لماذا؟ عندما ولدت لم يكن أبوك موجوداً. ولم تسمك أمك بأي اسم وقبل أن تكمل أيامك التسعة رمتك أمك فوق كومة النفايات تلك. وعندما التقطتك سميتك أنا باسم أخي الميت تشارلز بريدلوف. كان رجلاً طيباً اسم سامسون ليس فيه بركة»

لم يسأل كولي أي سؤال آخر.

بعد سنتين ترك المدرسة، واشتغل في مخزن للحبوب يملكه شخص يدعى «تايسون». كان يكنس، ويقوم بحمل السلع إلى الزبائن، ويزن الأكياس، وينقلها إلى عربات النقل، وأحياناً يدعونه يركب مع سائق العربة. وهو رجل عجوز لطيف يدعى بلوجاك. اعتاد بلوجاك أن يروي له قصصاً من الزمن الغابر، كيف استقبل إعلان إلغاء الرق، وكيف أخذ السود يصيحون ويصرخون ويغنون، وكذلك قصصاً عن الأشباح، وكيف قطع رجل أبيض رأس زوجته ودفنها في مستنقع، وكيف خرج الجسم المقطوع الرأس في الليل، وأخذ يتعثر هنا وهناك، ويتخبط لأنه لا يستطيع أن يرى، صارخاً طوال الوقت من أجل قبر. تحدثا عن النساء اللواتي عاشرن بلو، والمعارك التي خاضها عندما كان شاباً، وكيف تخلص مرة من الإعدام بشطارته بينما أعدم الآخرون.

أحب كولي بلو، وظلّ، بعد أن أصبح رجلاً، يتذكر لوقت طويل تلك الأوقات الطيبة التي قضياها معاً، وما حدث في الرابع من تموز حيث رأيا عائلة كانت في نزهة نظمتهما الكنيسة، تهم بكسر بطيخة حمراء. تجمع

بضعة أطفال ليراقبوا العائلة. وكان بلو يحوم حول الدائرة - ابتسامة توقع خفيفة كانت تضيء نعومة على وجهه. رفع الأب البطيخة عالياً فوق رأسه فبدت ذراعه الكبيرتان الطويلتان أطول من الأشجار بالنسبة لكولي، وحجبت البطيخة الشمس، بطوله، ورأسه الممتد إلى أمام، وعينييه المركبتين على صخرة، وذراعيه الأطول من أشجار الصنوبر، وكفيه اللتين تحملان صخرة - توقف للحظة ليهيئ حمله ويحكم التسديد. شعر كولي، الذي كان يراقب صورته المطبوعة على صفحة السماء الزرقاء المشرقة، بالبهرات المنكمشة تندفع فجأة على ذراعيه وعنقه. وتساءل فيما إذا كان الاله يبدو كذلك. كلا الإله رجل عجوز أبيض لطيف، بشعر أبيض طويل، ولحية بيضاء متدلّية، وعينين زرقاوين تحزنان حين يموت الناس ويشعر بالخجل حين يكونون سيئين. لا بد أن الشيطان يبدو كذلك، حاملاً العالم بين يديه، مستعداً أن يقذف به إلى الأرض، ويُسقط من عل أحشاء الحمراء حتى يستطيع أن يأكل الزنوج الأحشاء اللذيذة الدافئة إذا كان الشيطان كذلك، فإن كولي يفضل. لم يفكر، من قبل، بالرب قط. فكرة الشيطان فقط أثارت. والآن فان الشيطان القوي، الأسود هو الذي يحجب الشمس مستعداً أن يمزق العالم.

بعيداً عنهم كان شخص ما يعزف الهارمونيكا. أنسابت الموسيقى فوق حقول القصب وبساتين الصنوبر، ولتفت حول جذوع الأشجار، مازجة نفسها مع شذى الصنوبر، فلم يعد بإمكان كولي أن يعرف الفرق بين الصوت والعطر المهوئين حول رؤوس الناس.

ضرب الرجل البطيخة على حافة صخرة. صرخة خفيفة من خيبة الأمل ترافقت مع القشرة المكسورة. كان الكسر سيئاً. انثلمت البطيخة وانتشرت قطع القشرة واللّب الأحمر على العشب.

قفز بلو نادباً: «أو، أو، أو، سقط اللب هناك».

كان صوته حزيناً وفرحاً في الوقت نفسه. ونظر كل شخص ليرى قطعة كبيرة حمراء من قلب البطيخة بالذات انطلقت من القشرة، وكمية من البزور تتدحرج على مسافة قريبة من أقدام بلو. انحنى ليلتقطها. دم

أحمر، سطحه المستوي معتم، مليء بالعذوبة، ذو حواف صلبة يحيطها العصور. واضح جداً، وداعر تقريبا، في الشهوة التي يعد بها. ضحك الأب: «هيا يابلو. بإمكانك أن تأخذها».

ابتسم بلو وابتعد. واندفع الأطفال بسرعة باتجاه القطع المرمية على الأرض. التقت النساء البزور للأطفال الأصغر سناً، واقتطعن كسراً صغيرة من اللب لأنفسهن. فاجأت عينا بلو عيني كولي، وأوماً له: «هيا يافتي، لنأكل أنت وأنا اللب».

جلسا معاً، الرجل العجوز والفتى، على العشب واشتركا في أكل لب البطيخة، أحشاء الأرض الحلوة المذاق - الفاحشة -.

حدث في الربيع، في ربيع بارد جداً، أن ماتت العمة جيمي بسبب شراب الدراق المسكر. ذهبت إلى أحد اجتماعات المخيم بعد عاصفة مطرية، فأضر بها خشب الكراسي الرطب. وبعد أربعة أو خمسة أيام ازدادت حالتها سوءاً. أتى الأصدقاء لزيارتها. عمل لها بعضهم شاي البابونج، وآخرون دلكوها. وقرأت الآنسة أليس، صديقتها الحميمة، الإنجيل لها، ولكنها ازدادت ذبولاً. كانت النصائح كثيرة، أن لم تكن متناقضة.

- «لأأكل بياض البيض».

- «اشربي حليباً طازجاً».

- «امضني هذا الجذر».

تجاهلت العمة الكبيرة جيمي كل شيء ماعدا قراءة الإنجيل من قبل الآنسة أليس. كانت توميء برأسها بإعجاب وهي نعسانة، وكلمات من الرسالة الأولى^(١) تطن فوق رأسها. «آمين» تسقط من شفثيها كما لو أنها قد عوقبت على كل خطاياها. ولكن جسدها لم يستجب.

قرروا، أخيراً، أن يجلبوا «مادير» و «مادير» هذه امرأة هادئة تعيش في كوخ قرب الغابة. وكانت قابلة قديرة وخبيرة بتشخيص الأمراض. وكثير من الناس يتذكر بأن «مادير» كانت حاضرة دائماً عند كل حالة مرضية

(١) : إحدى رسالتين كتبهما القديس بولص إلى مسيحيين كورنث باليونان، موجودين في العهد الجديد.

لا يمكن التعامل معها بالطرق العادية - العلاجات المعروفة، والحدس، والجلد - كانت الكلمة دائماً: «احضروا ماديير».

عندما وصلنا إلى بيت العمة الكبيرة جيمي، اندهش كولي لمآها، فهو كان يتصورها دائماً امرأة واهنة القوى، محدودة الظهر، لأنه كان يعرف أنها امرأة كبيرة السن جداً جداً.

ولكن «ماديير» بدت أطول من الواعظ الذي يرافقها. قد يكون طولها أكثر من ستة أقدام، وأضفت أربع عقد بيضاء في شعرها قوة ومهابة على وجهها الأسود الناعم. بدت، وقد وقفت كقضيبي معدني، أنها تحتاج عصاها الجوزية ليس للإستناد إليها فقط، وإنما للاتصال أيضاً كانت تنقر بها على الأرض بخفة وهي تنظر إلى وجه العمة جيمي المتغضن. لامست مقبض العصي برفق بإبهام يدها اليمنى، بينما مررت يدها اليسرى على جسد العمة جيمي، وضعت ظهر كفها الطويلة على خدود المريضة، ثم وضعت راحتها على الجبين. مررت أصابعها خلال شعر المرأة المريضة، وحكت، برفق، قشرة الرأس، ونظرت إلى ماكشفته أظافر أصابعها، وبعد ذلك، رفعت يد العمة جيمي، وأمعنت النظر فيها - أظافر الأصابع - الجلد الأسود، لحم راحة اليد التي ضغطت عليها بأطراف ثلاث من أصابع، ثم وضعت أذننها على صدر وبطن العمة جيمي للتسمع سحبت المرأة، بناء على طلب «ماديير» إناء الفضلات من تحت السرير لكي تتفحص البراز، نقرت بعصاها وهي تنظر إليه، ثم قالت: «اطمروا إناء الفضلات وكل شيء فيه». وقالت للعممة جيمي: «لقد أصبت بالبرد في رحمك اشربي المرق ولا شيء غيره».

«هل سيزول المرض؟ هل تتحسن حالتي؟»

«أعتقد ذلك».

استدارت «ماديير» وغادرت الغرفة، ونقلها الواعظ بعمرته إلى بيتها. ذلك المساء اشترت المرأة عدة سلطانيات من المرق، من البازلاء السوداء، والخردل، والكرنب، والملفوف، واللفت، والشوندر، والفاصولياء الخضراء، وحتى مرقة من لحم خد الخنزير.

بعد يومين ، دبت القوة في بدنهما. وقد لاحظ هذا التحسن الآنسة أليس والسيدة جينز عندما زارتها. جلست النساء الثلاث يتحدثن عن مختلف أنواع التعاسة التي مررن بها. وكنّ يعدن دائماً إلى الحديث عن حالة العمة جيمي، وماذا بإمكانهن أن يفعلن ليحلن دون استمرار شقائهما، وحول نجاعة علاج مابير وعدم احتمال وقوعها في الخطأ. اختلطت الأصوات في لحن حزين من الحنين للماضي. ينهضن ويسقطن، تركيب هارموني، تتفاوت نفحات الصوت، ولكنهن يستمرين في سجعهن عن الألم. تشبثن بذكرياتهن عن المرض في صدورهن، لحسن شفاهن، وقأقأن كالدجاجة في تذكر ملتح للألم الذي تحملن - الولادة، الرما تيزم، الخناق، ألم المفاصل، آلام الظهر، البواسير، والكدمات التي أصبن بها وهن يتنقلن في أصقاع الأرض - الحصاد، التنظيف، والرفع والطرح، والانحناء والركوع والوقوف على القدمين - ودائماً الصغار بين أقدامهن.

ولكنهن كنّ شابات مرّة. وكانت رائحة آباطهن وأوراكنهن تختلط مع رائحة مسك ذكية. كنّ يختلس النظرات، وترتخي شفاهن، ويوزعن الالتفات الرقيقة برؤوسهن المرفوعة على تلك الأعناق السوداء النحيلة التي لاتشبه إلا أعناق أناث الغزلان. وكانت ضحكاتهن تؤثر في النفوس أكثر من أصواتهن.

ثم كبرن، اندفعن إلى الحياة من الباب الخلفي، صرن. تلقين الأوامر من كل شخص في هذه الدنيا، قالت لهن النساء البيض: «افعلن هذا». وقال لهن الأطفال البيض: «ناولنني هذا». وقال الرجال البيض: «تعالين إلى هنا». وقال الرجال السود: «اضطجعن». والوحيدون الذين لم يحتجن أن يستلمن منهم الأوامر كانوا الأطفال السود، ومن بعضهن البعض. ولكنهن كن يستلمن كل ذلك، ويعدن خلقه في تصورهن الخاص، يدرن شؤون بيوت الناس البيض، وعندما يضرب الرجال البيض رجالهن، يتخسلن الدم ويذهبن إلى بيوتهن ليتلقين المعاملة السيئة من قبل الضحايا. يضربن أطفالهن بيد، ويسرقن من أجلهم باليد الأخرى. والأيدي التي تقطع الأشجار، تقطع الحبل السري أيضاً. والأيدي التي تنتزع رقاب

الدجاج، وتذبح الخنازير، تمس أيضاً برفق البنفسج الأفريقي في عنفوانه، والأذرع التي تحمل حزم الحنطة، والرزم الضخمة، والأكياس، هي نفسها التي تهزّ سرير الطفل حتى ينام. يعجنّ ببراءة البسكويت في أشكال بيضاوية رقاقية، ويكفّن الموتى، يحرثن طوال النهار، ويعدن إلى البيت ليستكنّ كأشجار البرقوق تحت أطراف رجالهن، والأرجل التي تفرّش على ظهر بغل هي نفسها التي تفرّش على أوراك رجالهن.

ثمّ كبرن، ترهلت أجسادهن، وثلثت روائحهن، ولكن يحملن عالماً على رؤوسهن وهن يربضن في حقل قصب، أو يتوقفن في حقل قطن، أو يجثين على ضفة نهر. كرسن أنفسهن لحياة أطفالهن، ورعين أحفادهن، لفقن رؤوسهن بأسماك بالية، وأقدامهن باللباد. انتهين من الشهوة، وأفراز الحليب، وتجاوزن الدمع والرعب. أصبح بإمكانهن أن يمشين وحيدات في طرق المسيسيبي، وأزقة جيورجيا، وحقول الأباتا دون أن يزعجهن أحد. كبرن على النزاقة في الوقت والمكان اللذين يخترن، تعبن من التطلع للموت، ولم يعد يهمهنّ تقبّل فكرة الألم بينما يتجاهلن وجود الألم. كن في الحقيقة، وأخيراً، حرّات. تجمّعت حيوات هذه النساء السوداوات العجائز في عيونهن، خليط مركز من التراجيديا والكوميديا، الخبث والصفاء، والحقيقة والخيال.

ثرثرن لساعة متأخرة في الليل. أصغى إليهن كولي ثم نام. لفّته التهويذة الحزينة، أرجحته، وخدرته أخيراً. في نومه تحوّلت الرائحة الكريهة لغائط امرأة عجوز إلى رائحة قوية لبراز حصان، وصمّعت أصوات النسوة الثلاث لتحل محلها أنغام عذبة لآلة أكورديون. انتبه، في نومه، إلى أنه مربوط بكرسي، وإن يديه مندستان بين فخذه. تحوّل عضوه، في حلمه، إلى عصا من خشب الجوز، وكانت اليدان اللتان تداعبان هما يديّ «مادير».

في إحدى ليالي الشتاء الرطبة، قبل أن تشعر الخالة جيمي بقوة كافية للنهوض من سريرها، جلبت لها «إيسي فوستر» شراب الخوخ. شربت السيدة العجوز قليلاً منه، وفي الصباح التالي، عندما ذهب كولي لافراغ إناء

الفضلات وجدها ميتة. كان فيها مفتوحاً كحرف(O)، ويدها ذات الأظافر الطويلة الحادة كأظافر رجل، التي قلمتها أخيراً، تستقران رقيقتين على الملاة نظرت إليه إحدى العينين المفتحتين وكأنها تقول له: «حاذر يا ولد كيف تحمل الإناء». حذق كولي فيها ثائية، غير قادر على الحراك، إلى أن استقرت ذبابة على زاوية فمها، فضربها بغضب، نظر ثائية إلى العين، ثم امتثل لرغبتها.

كانت جنازة الخالة جيمي هي الجنازة الأولى البيت التي يشارك فيها كولي. وكان محط اهتمام كبير باعتباره فرداً من العائلة وأحد المفجوعين. نظفت السيدات البيت، وعرضن كل شيء للهواء الطلق، وأعلمن كل شخص، وقمن معاً بخياطة ما يشبه ثوب زفاف أبيض للعمة كولي، كسيدة عذراء، لتلبسه عندما تقابل يسوع. وقمن حتى بخياطة بذلة سوداء، وقميص أبيض، وربطة عنق لكولي. وقام زوج إحداهن بحلاقة شعره. كان محاطاً بحنان مفرط. لم يتحدث أحد معه، بمعنى أنهم تعاملوا مع الطفل الذي كانه، فلم يشركوه في أية أحاديث جادة، ولكن حققوا له، بدون أن يطلب كل الرغبات التي لم تتحقق له يوماً: وجبات تظهر، وماء حار في حوض الاستحمام الخشبي، وملابس نظيفة مكوّنة. وعند السهر على الجثة، كان يُسمح له أن ينام، فتحمله أذرع إلى السرير. وفي اليوم الثالث فقط من موتها - يوم الجنازة - كان عليه أن يشارك في المشهد. أتى أقرباء كولي من البلدات والحقول المجاورة: أخوها «أو. في» وأطفاله وزوجته، وكثير من الأقرباء الآخرين. ولكن بقي كولي هو الشخصية الرئيسية، لأنه كان: «ولد جيمي، آخر شخص أحبته جيمي». ولأنه «الشخص الذي وجدها». كانت عناية النساء المفرطة، وتربيتات الرجال على رأسه، قد أسرت كولي، كما سحرت الأحاديث الحلوة.

- «ما سبب موتها؟»

- «فطيرة إيسي».

- «ماذا تقولين؟»

- «نعم، نعم. كانت بصحة جيدة. لقد رأيته قبل يوم من وفاتها. وطلبت مني أن اجلب لها بعض الخيوط السوداء لترقع ملابس الولد. كان ينبغي أن أعرف أن طلبها خيوطاً سوداء كان علامة».

- «بالتأكيد».

- «مثل. «أما» بالضبط. ألحنت في طلب الخيوط. وسقطت ميتة ذلك المساء».

- «نعم، لقد كانت مصممة على أخذها».

وظللت تذكرني بذلك. أخبرتها أنني أملك بعض الخيوط في البيت. فأرادتها أن تكون خيوطاً جديدة. ولذلك أرسلت «ليل جون» لتجلب بعضاً منها في ذلك الصباح الذي تمددت فيه ميتة كنت على وشك أن أهيئها لها مع قطعة من كبد العجل. أنت تعرفين كم تحب أكل كبد العجل الذي كنت أبعثه لها.

- «نعم، بالتأكيد. كانت دائماً تفاخر به. كانت صديقة حميمة لك».

- «بصدق، لم أكد أضع ملابس عليّ، حتى اندفعت سالي وهي تولول، وأخبرتني كيف أن كولي أتى إلى الآنسة أليس وأخبرها أن الخالة جيمي ماتت. شعرت كأن أحداً ضربني ضربة عنيفة على رأسي».

- «لابد أن «إيسي» بحالة سيئة جداً».

- «أوه، يا إلهي، نعم. ولكنني أخبرتها أن الرب أعطى، والرب أخذ. ليست غلطتها أبداً. إنها تعمل فطائر خوخ جيدة. ولكنها تعتقد أن الفطيرة هي السبب وأشك أنها مُصيبة».

- «حسناً، يجب أن لا تُقلق نفسها بصدق ذلك. لقد فعلت فقط مايمكن أن نفعله نحن جميعاً».

- «نعم، فإن قطعة فخذ العجل التي لففتها لها يمكن أن تفعل ذلك».

- «لا، قطعة فخذ العجل لاشائبة فيها، ولكن الفطيرة هي اسوأ مايمكن أعطائه لشخص يحتضر. إنني أستغرب أن جيمي لم تعرف ذلك».

- «لوكانت تعرف، لما تناولتها».

- «لقد حاولت أن تبتهج قليلاً. تعرفين كم كانت بصحة جيدة».
- «هل خلفت شيئاً؟»
- «ولا حتى منديل جيب. ملكية البيت تعود إلى بعض الناس البيض في «كلاركسغيل»».
- «حقاً؟ كنت أعتقد أنه ملكها».
- «ربما كان ملكها وقتاً من الأوقات. سمعت رجال التأمين يتحدثون إلى أخيها تحت».
- «كم تبلغ التكاليف؟»
- «تبلغ خمساً وثمانين دولاراً، كما سمعت».
- «فقط؟»
- «أهذا مبلغ كاف لدفنها؟»
- «لأعرف كيف. عندما مات أبي السنة الماضية، في مثل هذا الشهر، نيسان، كلف الدفن مائة وخمسين دولاراً. وبالطبع دبرنا ذلك. والآن على أهل جيمي أن يساهموا بالدفن، فمتعهد دفن السود غير رخيص أبداً».
- «ياللعار. كانت تدفع لذلك التأمين طوال حياتها».
- «أتعتقدين أنني لا أعرف ذلك؟»
- «حسناً، وماذا عن الولد؟ ماذا سيفعل؟»
- «لا أحد يعرف أين أمه، ولذلك سيأخذه أخ جيمي معه إلى بيته. يقولون أنه يملك بيتاً جميلاً. في داخله تواليت وكل شيء».
- «جيد. إنه يبدو رجلاً مسيحياً طيباً. والولد يحتاج إلى إشراف رجل عليه».
- «متى وقت الدفن؟»
- «الساعة الثانية. ينبغي أن تكون تحت الأرض عند الرابعة».
- «وأين ستكون الوليمة؟ سمعت أن إيسي تريد أن تكون في بيتها».
- «ستقيم الآن في بيت جيمي. أخوها يريد ذلك».

- «حسناً، ستكون وليمة كبيرة. كل الناس كانوا يحبون العجوز جيمي. وسيفقدونها بالتأكيد».

في الكنيسة كانت الوليمة عريضة من الفرح بعد الجمال العاصف لمراسيم الدفن. كانت مثل دراما في الهواء الطلق، تنساب بعفوية رقيقة إلى زوايا بناء فخم. كانت الميتة هي البطل التراجيدي، والناجون هم الضحايا الأبرياء. كانت هناك الإلهة ذات العلم الكلي، والستروفة^(١)، والستروفة المضادة لجوقة المعزين بقيادة الواعظ. كان هناك الأسى على ضياع الحياة، والانشداه المصعوق بطرق الله، واستعادة نظام الطبيعة عند المقبرة. وهكذا كانت الوليمة هي الجذل، والانسجام والتسليم بهشاشة الجسد، والسعادة بانتهاء البؤس. الضحك، والراحة، والنهم للطعام.

لم يدرك كولي إدراكاً كاملاً، بعد، إن خالته قد ماتت. كان كل شيء ممتعاً. ولم يشعر، حتى في المقبرة، بأي شيء سوى الفضول، وعندما أتى دوره في الكنيسة ليلقي نظرة على الميتة، مَدَّ يديه ليلمس الجثة، ليتحقق من أنها باردة كالثلج كما قال الناس، ولكنه سحب يديه بسرعة. بدت الخالة جيمي منعزلة، جداً، وبدأ له من الخطأ أن يزعجها في عزلتها. عاد مجهداً إلى كرسيه وعيناه جافتان وسط الزعيق والصراخ المختلط بالدموع، متسائلاً إذا كان ينبغي عليه أن يبكي.

حين عاد إلى بيته، كان حراً في المشاركة في الابتهاج، والاستمتاع بما يشعر به حقاً، نوع من الروح الكرنفالي. أكل بشراهة، وكان بحال جيدة بما يكفي لأن يحاول التعرف على أبناء الخال وكانت هناك بعض الاسئلة التي يطرحها الكبار، فيما إذا كان هؤلاء هم أبناء خال حقاً، مادام أخ جيمي «أو. في» هو أخ غير شقيق. إن أم كولي هي ابنة أخت جيمي، ولكن هذه الأخت كانت ثمرة الزواج الثاني لأب جيمي، و«أو. في» هو ثمرة الزواج الأول.

^(١) الاسزوفة: ذلك الجزء من القصيدة الأغريقية القديمة الذي تشده المجموعة وهي تنقل من اليمين إلى اليسار.

آثار واحد من أبناء الخال هؤلاء اهتمام كولي بشكل خاص. كان في حوالي الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره. خرج كولي فوجد هذا الصبي واقفاً مع صبيان آخرين قرب الحوض الذي اعتادت العمّة جيمي غلي ملابسها فيه.

تجراً وقال متردداً: «أهلاً». فأجابوه على تحيته الواحد بعد الآخر. قدم «جيك»، البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، سيكارة لف لكولي الذي تناو لها، ولكنه وضع عقب السيكارة في فمه بدلاً من طرفها الأمامي الذي تشمل منه، مما آثار ضحكهم فرمى السيكارة وقد أحمر وجهه من الخجل. وشعر أنه من المهم أن يفعل شيئاً يعيد اعتباره أمام «جيك». ولذلك عندما سأله الأخير إذا كان يعرف أية فتيات أجابه فوراً: «بالأكيد».

كل الفتيات اللواتي عرفهن كولي كنّ في القداس، فأشار إلى مجموعة منهن، يقفن منتصبات، أو متكئات أو يتثنين على الشرفة الخلفية. كانت هناك دارلين أيضاً، وأمل كولي أن لا يلتقطها «جيك».

ـ «دعونا نحصل على بعضهن وننتزعه معهن».

مشى الاثنان الهوينى إلى الشرفة. لم يعرف كولي كيف يبدأ، بينما لفّ جيك ساقيه حول درابزون الشرفة المتداعي، وجلس هناك مجدداً فقط في الفراغ، وكأنه لا يهتم بهن على الإطلاق. تركهن يتفحصنه، وبحدّر كان يقيّمهن بدوره.

تظاهرت الفتيات بأنهن لم يرين الفتيان، واستمرين في ثرثرتهن. وسرعان ما أصبحت أحاديثهن حادة، تحول الكيد الخفيف إلى خبث، نوع من السخرية الجارحة. كان هذا مفتاح «جيك» إليهن. كانت الفتيات تتصرفن كرد فعل على وجوده. لقد شمن رائحة رجولته، وكن يرتعشن من أجل أن يثرن اهتمامه.

ترك «جيك» درابزون الشرفة، واتجه مباشرة إلى فتاة تدعى «سوكي» وكانت أكثرهن حدة في سخريتها.

«تريدين أن تريني خارجاً؟» قال ذلك حتى دون أن يتبسم.

حبس كولي أنفاسه، منتظراً من سوكي أن تخرسه. كانت بارعة في ذلك، ومعروفة بلسانها السليط. ولكن لدهشته الكبيرة، وافقت سوكي بسرعة وحتى أنها أسبلت أجفانها.

تشجع كولي وتقدم من دارلين قائلاً: «هيا بنا، سنذهب لرؤية الأخدود فقط. انتظر أن تلوي وجهها وتقول لا، أو شيئاً من هذا القبيل.

كانت مشاعره تجاهها مشوبةً غالباً بالخوف، الخوف من أنها قد لا تودّه، والخوف من أنها قد تودّه. تحقق النوع الثاني من خوفه. ابتسمت وقفزت ثلاث درجات لتلتحق به. كانت عيناها مليئتين بالشفقة، وتذكر كولي بأنه المفجوع.

«إذا أردت ذلك، ولكن ليس بعيداً. قالت ماما بأننا يجب أن نغادر مبكراً، وقد حلّ الظلام».

تحرك الأربعة. واتجه بعض الفتيان الآخرين إلى المدخل، وكانوا على وشك أن يبدأوا ذلك الرقص الذكوري الشهواني العدائي جزئياً، واللابالي جزئياً، واليائس جزئياً. مشى الأربعة، سوكي، وجيك، ودارلين، وكولي عبر عدة حدائق خلفية حتى وصلوا إلى حقل مفتوح. ركضوا فيه حتى وصلوا إلى ضفة نهر جاف يحيطه الأخضرار.

كان هدف النزهة بستان كرمة واسع حيث ينمو العنب^(٥) المسكي الذي مازال حصرماً، ولكنهم أكلوه على أية حال. لم يرد أي منهم – ليس في ذلك الوقت – عناقيد العنب وقد تدلّت بعصيرها الأسود. كان يثيرهم المنع، والكبح، والوعد بتلك الحلاوة التي لم تتفتح بعد أكثر مما يثيرهم النضج الكامل، أخذوا يصكون أسنانهم، ويسلون أنفسهم برمي الفتيات بالعنب. رسمت معاصمهم النحيلة السوداء علامة (G) في الهواء بينما كانوا يقومون بقذف الفتيات. قادت المطاردة كولي ودارلين بعيداً عن ضفة النهر، وعندما توقفا لالتقاط أنفاسهما، لم يريا أي أثر لجيك وسوكي، تطلع ثوب دارلين القطني الأبيض بالعصير، وانحلت عقدة الشريط الكبيرة الزرقاء، فأخذ

(٥) : في الأصل عنب جنوب الولايات المتحدة... المعروف بطعمه الشبيه بالمسك.

نسيم الغروب يرفع شعرها ويداعبه. تقطعت أنفاسهما وغاصا في ذلك العشب الأخضر الأرجواني على طرف غابات الصنوبر.

استلقى كولي على ظهره لاهثاً، وأصغى، وفمه مملوء بمذاق العنب المسكي، للحفيف العالي لأشجار الصنوبر التي تتشوق للمطر القريب الهطول رائحة المطر الموعود، والصنوبر، والعنب المسكي جعلت كولي يشعر بالدوار. غربت الشمس، وسحبت آخر خيوطها من الضياء، وأدار كولي رأسه ليرى مكان القمر، فرأى دارلين واقفة خلفه في الضوء كانت تربض على شكل حرف (D) وذراعاها تطوقان ركبتيه المرفوعتين اللتين أسندت عليهما رأسها. وكان بإمكان كولي أن يرى سروالها التحتاني وعضلات فخذيها الفتيتين.

قال لها: «من الأفضل أن نعود».

- «نعم». بسطت رجليها على الأرض، وبدأت بإعادة ربط الشريط.

- «ستجلدني ماما»

- «لا، لن تفعل ذلك».

- «نعم، نعم، قالت لي أنها ستفعل إذا وسخت نفسي».

- «لست وسخة».

- «لقد توسخت. انظر هنا».

أنزلت يديها عن الشريط، ومسحت برفق موضعاً على ثوبها حيث كانت لطخات العنب أكثر.

شعر كولي بالأسف من أجلها. لقد كانت غلطته. وفجأة أدرك أن خالته قد ماتت، وأنه لم يعد يخاف أن يُجلد. لم يعد هناك شخص يقوم بجلده ماعدا الخال «أوفي»، وهو مفجوع أيضاً بفقد أخته.

قال لها: «اسمحي لي».

نهض حتى ركبتيه، وحاول أن يربط شريطها. وضعت دارلين يديها تحت قميصه المفتوح، وفركت جلده الداكن المشدود. وعندما نظر إليها مدهوشاً، ضحكت ثم توقفت. ابتسم واستمر في عقد الشريط. وضعت يديها ثانية تحت القميص.

- «لاتتحركي. كيف أفعل ذلك؟»

داعبت أضلاعه بأطراف أصابعها، قهقهه ثم أمسك ب صدره، وفي لحظة كانا فوق بعضهما البعض، حركت يديها بين ثيابه بشكل لولبي، وبادلها الحركة، أصابعه أعلى الثوب ثم تحته، وعندما وصلت يدها إلى سروالها التحتي، توقفت فجأة عن الضحك وبدت جدية ارتعب كولي. وهم أن يسحب يده، ولكنها كانت تمسك بخصره. فلم يستطع أن يتحرك، تفحصها بأصابعه، وقبلت هي وجهه ثم فمه. كان طعم شففتها مذهلاً كطعم عنب الجنوب.

رفعت يديها عن رأسه وزحزحت جسمها، ثم خلعت سروالها. وأسقط كولي سرواله حتى ركبتيه بعد أن وجد بعض الصعوبة في فتح الأزرار. بدأ جسدهما يعنيان شيئاً بالنسبة له، ولم تكن العملية صعبة كما اعتقد أنها ستكون. أنت قليلاً، ولكن الاثارة التجمعة داخله جعلته يغمض عينيه، معتبراً أنينها ليس أكثر من أنين الصنوبر فوق رأسه. تجفدت دارلين وصرخت. وكأنه سمع انفجاراً، فظن أنه آلهها، ولكنه عندما نظر إلى وجهها، رآها تحدق في شيء مافوق كتفيه، فانتحى جانباً.

وقف فوقهما رجلان أبيضان، أحدهما يحمل مصباح سببرتو وآخر مصباح بطارية لم يشك أنهما أبيضان كان باستطاعته أن يشم ذلك. قفز كولي محاولاً أن يقف ويرتدي سرواله بحركة واحدة كان الرجلان يحملان بنادق طويلة. «ها ها ها هي هي ها» تحول الضحك إلى سلة ربو طويلة. ومرر الآخر الضوء على كولي ودارلين.

«استمر أيها الزنجي». قال: الرجل الذي يحمل مصباح بطارية

«سيدي؟» قال كولي وهو يحاول أن يزرر بنطاله.

«استمر، واعملها جيداً أيها الزنجي. اعملها جيداً».

لم يعد هناك مهرب أمام كولي. انحدرت بحثاً عن مكان يلتجأ إليه، بينما بقي جسد كولي مشلولاً. رفع أحدهما بندقيته، وسمع كولي قرقرة المعدن. جثا ثانية على ركبتيه، بينما أشاحت دارلين بوجهها وأدارت عينيهما عن ضوء المصباح، لتحقق في الظلمة المحيطة، وبدت غير مهتمة

تقريباً، وكأنما لادور لهما في هذه الدراما التي تجري حولهما. نزع كولي بعنف ولده عجز كامل، ثوبها، وأخفض بنطاله وسرواله الداخلي.

«هي هي هي هي هي هي».

غطت دارلين وجهها بيديها، بينما كان كولي يتظاهر بالقيام بما قام به سابقاً. لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً أكثر من التظاهر. شكل ضوء قمرأ على مؤخرته.

«هي هي هي هي هي هي هي».

«هيا أيها الزنجي. أسرع. لم تفعل شيئاً لها بعد».

نظر كولي، الذي أسرع، إلى دارلين. كرهها. وتمنى لو أنه بإمكانه أن يفعلها - بقوة، لفترة أطول، وبألم. كرهها كثيراً. شقّ الضوء طريقه إلى أحشائه، وتحول مذاق العنب العذب إلى عصارة فاسدة كريهة الرائحة. حرق في يدي دارلين اللتين تغطيان وجهها في ضوء القمر والمصباح. بديا وكان برائن جديدة نمت لهما توأ.

سمعوا نباح كلاب «إنه هو.. هو.. العجوز هوني».

«نعم» قال صاحب مصباح السبيرتو «هيا» استدار مصباح البطارية، وصفر أحدهما لهوني.

«انتظر» قال المصباح الآخر «الزنجي لم ينته بعد».

«حسناً، دعه ينتهي في وقته. حظاً سعيداً أيها الولد الزنجي».

داسوا على إبر الصنوبر تحت أقدامهم، وكان بإمكان كولي سماع صفيهم بعد فترة طويلة. توقفت الكلاب عن النباح، وأخذت تطلق أصواتا دالة على الاطمئنان والتعرف. نهض كولي وزر بنطاله بصمت. لم تتحرك دارلين.

أراد كولي أن يخنقها، ولكن بدلاً من ذلك لمس ساقيها بقدميه: «علينا أن نذهب يا صبية. هيا».

حاولت العثور على ملابسها الداخلية وعيناها مغمضتان. وبحث الاثنان عنها تحت ضوء القمر، وعندما وجدتها، ارتدت بها بحركة امرأة عجوز.

غادرا غابات الصنوبر باتجاه الطريق العام. هو في المقدمة وهي مسرعة خلفه. بدأت تمطر، ففكر كولي: «شيء جيد. هذا يفسر اتساخ ملابسنا».

عندما عاد، كان عشر أو اثنا عشر ضعفاً مايزالون هناك. أما جيڪ وسوكي فقد ذهب. عاد البعض للأكل ثانية — بطاطا، وفطائر، وأصلاع، والكل انهمكوا في استعادة ذكرياتهم، أحلامهم، وتصوراتهم، وهواجسهم. كانت تلك الراحة المتخمة مخدراً أطلق التذكريات وتهويمات الهلوسة.

لم يحدث دخول كولي ودارلين سوى جلبة خفيفة.

«لقد تبللتم.. ها!»

كانت أم دارلين مهتاجة فقط. لقد أكلت وشربت كثيراً، وكانت تضع حذاءها تحت الكرسي، وثوبها مفتوح من الجانبين.

— «تعال ياصبية. أعتقد أنني أخبرتك..»

قدّر بعض الضيوف أنهم سينتظرون حتى يخفّ هطول المطر. أما الآخرون، الذين أتوا بعرياتهم، فقط رأوا أنه من الأفضل لهم أن يغادروا. ذهب كولي إلى عذير صغير تحول إلى غرفة نوم له. ولكن كان ثلاثة أطفال ينامون على سريره المتحرك. خلع ملابسه التي نفذت إليها أبر الصنوبر وتشربت بالماء، وارتدى مثزراً. لم يعرف أين ينام. لم تكن فكرة النوم في غرفة الخالة جيّمي وراة، فالخال «أوفي» وزوجته سيستخدمانها فيما بعد، على أية حال، أخذ لحافاً من خزانة الملابس، ومدّه على الأرض واضطجع عليه، شخص ما كان يعد القهوة، فاجتاحته رغبة قوية فيها قبل أن يسقط نائماً.

كان اليوم التالي هو يوم إخلاء محتويات البيت، وتسوية الحسابات، وتوزيع ممتلكات العمّة جيّمي. أصبحت الأفواه مثل أهلة منحدرّة، تبرّقت الأعين، تردّدت الأقدام.

كان كولي يطوّف هنا وهناك بدون هدف، ويقوم بأعمال روتينية كما يطلب منه. حلّت محل الدفء والسحر، اللذين غمره الكبار بهما، الصرامة التي تتناسب مع مزاجه. لم يستطع أن ينزع عن تفكيره المصباح،

والعنب، ويديّ دارلين. وعندما لا يفكر في ذلك، يحتل رأسه فراغ يشبه الفراغ الذي يتركه سن اقتلع حديثاً، ولكن عفونته ماتزال في الفم، لم يذهب بعيداً عن البيت خوفاً من لقاء دارلين صدفة، ولكن، في الوقت نفسه، لم يعد يطيق الجو في بيت الخالة الميتة. لم يعد يطيق التقلب في أغراضها، واختيار حاجيات منها، والتعليقات على «حالة» ممتلكاتها. تطورت كراهيته لدارلين بعناد مختلط بالغضب. انفعال كهذا سيدمره. كانا رجلين ضخمين، أبيضين مسلحين، وهو صغير، أسود، عاجز. كان عقله الباطن يدرك ما يعجز عنه عقله الواعي... أن كرهه لهما سيدمره، يحرقه مثل قطعه فحم صغيرة، لا يخلف سوى الرماد، وعلامة استفهام يرسمها الدخان. سيكتشف في الوقت المناسب، هذه الكراهية للرجال البيض - ولكن ليس الآن، ليس في حالة العجز هذه، ولكن فيما بعد. عندما تجد الكراهية تعبيرها الجميل. أما الآن، فإنه يكره الرجل الذي خلق هذا الوضع، الشخص الذي شهد فشله، وعجزه، والفتاة التي لم يستطع أن يحميها، وان يحجب عنها وهج الصباح الدائري كالقمر. يتذكر قهقهاتهم هي هي هي هي. ويتذكر شريط شعر دارلين المتصطب ماء، المرفرف على وجهها وهما يمشيان عائدين بصمت تحت الطر. جعله هذا الاشتمزاز الذي يجتاحه يشعر بالعرشة في داخله. لم يكن يوجد أحد ليتحدث إليه، فلبو العجوز كان مخموراً دائماً تلك الأيام لدرجة فقدان الوعي، إضافة إلى أنه كان يشك بقدرته على كشف خزيه لبلو، سيكذب قليلاً لو أخبر بلو، العازف عن النساء، ويداً له أن يكون متوحداً أفضل من أن يكون وحيداً. في اليوم الذي استعد فيه خال كولي للرحيل، عندما حُزم كل شيء، وعندما تحولت المعارك الساخنة إلى مرققة لحم دبقة على كل لسان، جلس كولي على الشرفة الخلفية منتظراً. خطر في باله أن دارلين قد تكون حاملاً. كانت فكرة غير منطقية تماماً، ولكن الخوف الذي سببته كان شاملاً.

كان عليه أن يهرب. ولم يبال بكونه يغادر في ذلك اليوم بالذات المسافة إلى المدينة أخرى أو مدينتين ليست بمسافة بعيدة، خاصة أنه لم يحب خاله أو يثق به، وبإمكان أم دارلين أن تجده بالتأكد، وسيعيده

خاله «أوفي» إليها. كان يعرف أنه من الخطأ أن يترك فتاة حاملاً، ولكنه تذكر، بشفقة، أن أباه قد فعل ذلك بالضبط. الآن فهم. والده سيفهم أيضاً. كانت العمة جيمي قد قالت أنه ذهب إلى «ماكون».

رحل بالسرعة التي يخرج فيها الصوص من قشرة البيضة. سار مسافة قصيرة ثم تذكر الكنز، تركت العمة جيمي شيئاً ما كان قد نسيه تماماً. في مدخنة الموقد، التي ما عادت تُستخدم، أخفت كيساً صغيراً كان تسميه كنزها. انسل إلى البيت ووجد الغرفة فارغة. مدّ أصابعه في المدخنة، فصادفه أولاً السخام وشبكة العنكبوت، ثم الكيس الرقيق فرز المال: أوراق ماله، وقطع نقدية. المجموع: ثلاثة وعشرون دولاراً. مبلغ كافٍ للوصول إلى «ماكون».

أن يهرب ولد أسود من البيت إلى جيورجيا ليس بمشكلة كبيرة. ماعليه سوى أن ينسل، ويبدأ بالسير، وبإمكانه أن ينام في مخزن للغلال عندما يحل الليل، وإذا لم تكن هناك كلاب، ففي حقل للقصب أو منشرة فارغة. ويستطيع أن يلتقط طعامه من الأرض، ويشترى مشروبات غازية وحقن السوس من مخازن الريف الصغيرة. وتوجد دائماً قصص سهلة يستطيع أن يخبر بها الرجال السود المتسائلين، بينما لايهتم بذلك الرجال البيض إلا من باب التسلية.

وعندما تمضي عليه أيام، يستطيع أن يذهب إلى الأبواب الخلفية للبيوت الجميلة، ويخبر الطباخ الأسود أو السيدة البيضاء أنه بحاجة إلى عمل: تشذيب الحديقة، الحرث، الجني، التنظيف، وأنه يقيم في مكان مجاور. بعد أسبوع أو أكثر يستطيع أن يتركهم. عاش بهذه الطريقة الأيام الأخيرة من الصيف، وفي تشرين الأول/أكتوبر وصل إلى مدينة أكبر توجد فيها محطة باص. ذهب إلى الطرف الآخر المخصص للملوثين، وهو جاف الحلق من الإثارة والخوف ليشتري تذكرة.

- «كم إلى ماكون ياسيدي؟»

- «أحد عشرة دولاراً. وخمسة ونصف للأطفال دون الثانية عشرة».

كان كولي يملك (١٢) دولاراً وأربعة سنتات.

- «كم عمرك؟»

- «في الثانية عشرة بالضبط. لم تعطني أمي سوى عشرة دولارات».

- «إنك أكبر طفل أراه في الثانية عشرة».

- «رجاء ياسيدي. يجب أن اذهب إلى ماكون. أمي مريضة».

- «أعتقد أنك قلت أمك أعطتك عشرة دولارات».

- «هذه ليست أمي الحقيقية. أمي الحقيقية في ماكون ياسيدي».

«أفترض أنني أعرف الزوج الذين يكذبون عندما أرى أحدهم، ولكن في حالة أنك لا تكذب، وفي حالة أن أمًا من أمهاتهم مريضة حقاً وأنها تريد أن ترى فلوها الصغير قبل أن تلاقى باريها، فأنني أفعل».

لم يسمع كولي شيئاً. الإهانات جزء من منغصات الحياة، مثل البعوض. كان سعيداً كما لم يكن قط ماعداً تلك المرة عندما كان مع بلو، وحدثت «حادثة البطيخة». لن يغادر الباص قبل أربع ساعات.

كان ينازع في تلك الدقائق مثل البعوض على الورق المصنَّع - يموت ببطء، ويستنفد قواه في الصراع من أجل أن يبقى حياً. كان خائفاً أن يتحرك، وأن يروّج عن نفسه، فقد يتحرك الباص أثناء غيابه. أخيراً، وقد تصلّبت أمعاؤه من الإمساك، استقلّ الباص إلى ماكون.

وجد مقعداً يطلّ على الشارع في الخلف حيث جلس وحده، أمام عينيه انزلقت جيورجيا حتى غياب الشمس. وحتى في الظلام، حتى يتحرق رغبة للمشاهدة، وبعد صراع عنيف لأن يبقي عينيه مفتوحتين، استغرق في النوم. وبعدما استيقظ، كان النهار في عزّه، وأحس بسيدة تلتكزه برفق مقدمة له قطعة من لحم الخنزير، دخل ماكون، وطعم الخنزير كان مايزال في فمه. تلولب صوت هادر لأحدهم على رؤوس تلك الأشكال الملثوية. كانت كل الأشكال الجاثية، الأشكال المنحنية مركزة على بقعة واحدة على الأرض. عندما اقترب أكثر، استنشق رائحة رجل في قاعة مثيرة نفاذة. كان الرجال مجتمعين، كما قال الرجل في قاعة المراهنة، حول النرد والمال ومن أجلهما، وكل لاعب أمامه فيشات دولارات القمار.

أفرز بعضهم نقوده، ولف الأوراق المالية حول أصابعه التي أطبقها فتجمعت النهايات الملساء للأوراق النقدية في مزيج من الرقة والعنف. وكوّم آخرون أوراقهم المالية، وجعدوها في الوسط، ثم حملوا لفائف منها، وكأنهم على وشك توزيع الأوراق، وترك آخرون نقودهم ماثورة على الكرات المنثنية. وسحب أحدهم نقوده من تحت قبعته، وآخر علم نقوده بإبهامه وسبّابته. هناك كمية كبيرة من النقود في تلك الأيدي السوداء لم يرها كولي في حياته قط. شاركهم إثارتهم، حتى سال اللعاب من فمه الذي كان جافاً من خشيته أن يلتقي أباه. نظر إلى الوجوه، باحثاً عن الرجل الذي قد يكون أبوه كيف سيعرفه؟ هل سيبدو نسخة مكبرة عنه؟

في تلك اللحظة لم يستطع كولي أن يعرف كيف يبدو هو نفسه. كل ما يعرفه أنه في الرابعة عشرة من عمره، أسود، وطوله ستة أقدام. بحث عن الوجوه، ولم ير إلا الأعين، أعين ملتزمة، أعين باردة، أعين أطفالاً الخبث لمعانها، وعيون شدّها الخوف، كلها مركزة على قطعتي نرد رماهما أحدهم، ثم اختطفهما ورماهما ثانية همس لهما وهو يترنم بنوع من الابتهاال، إنفعل معه الآخرون بينما كان يفرك قطعتي النرد وكأنهما قطعاً فحم حارتان. أطلق زعيقاً وطار النرد من يديه باتجاه المجموعة التي خيمت عليها الدهشة وخيبة الأمل. ثم غرف النقود، وصرخ أحدهم: «خذها، واذهب على الأرض. يا أسرع كلب ماء رأيت في حياتي». ضحك البعض، مما خفف التوتر بشكل ملحوظ استغله البعض في تبادل النقود.

رَبّت كولي على ظهر رجل أبيض الشعر: «هل يمكن أن تخبرني إذا كان سامسون فوللر موجوداً هنا؟»
«فوللر؟» بدا الاسم مألوفاً للرجل: «لأعرف إنه هنا في مكان ما. إنه هناك. الرجل ذو السترة الرمادية».

وقف رجل يرتدي سترة ذات لون بني فاتح في الزاوية الأبعد من المجموعة. كان واقفاً مع رجل آخر. وكلاهما مقطب الوجه وهو يحرك يديه بطريقة عصبية مشاكسة. شق كولي طريقه إليهما حيث يقفان، وهو غير مصدق أن رحلته شارفت على النهاية. هاهو أبوه، رجل مثل أي

رجل آخر، وهاهي عيناه وفمه، ورأسه. كتفاه المتوارتيان تحت تلك السترة، صوته، يده - كلها حقيقية. كانت موجودة، موجودة حقاً، في مكان ما هنا.

كان كولي يفكر دائماً بأبيه كعملاق، ولذلك عندما أصبح قريباً جداً منه أصيب بصدمة، بل اكتشف أنه أطول من أبيه. كان في الحقيقة، يحدق في بقعة جرداء من الشعر في رأس أبيه، وأراد، فجأة، أن يمرر يده عليها. وبينما كان هكذا مأخوذاً بتلك المساحة النظيفة، الباعثة على الرثاء، المطوّقة بخصلات من الشعر الكث القصير الجعدّ، أدار له الرجل وجهاً قاسياً عدائياً.

- «ماذا تريد يا ولد؟»

- «أوه. أعني... هل أنت سمسون فوللر؟»

- «من أرسلك؟»

- «من؟»

- «هل أنت ابن ميلبا؟»

- «لا، ياسيدي، أنا...» طرف كولي بعينه. لم يستطيع أن يتذكر اسم أمه. هل عرفه يوماً ما؟ ماذا بإمكانه أن يقول؟ ابن من هو؟ لم يستطع أن يقول: «أنا ابنك». فذلك سيبدو قلة احترام منه.

فقد الرجل صبره: «هل أنت مخبول؟ من أخبرك أن تتبعني؟»

- «لا أحد». تعرّقت يدا كولي، وأرعبته عيناه الرجل «اعتقدت

فقط... أعني، كنت اتجول هنا، أوه، اسمي كولي».

ولكن فوللر استدار ومضى باتجاه طاولة اللعب الذي سيبدأ من جديد. انحنى ليقذف بظفره القطعة النقدية على الأرض ثم انتظر الرمية. وعندما انتهت، انتصب واقفاً وصرخ مخاطباً كولي بصوت مهتاج كالصهيل: «أخبر تلك الكلبة أنها أخذت مالها. والآن أغرب عن وجهي».

احتاج كولي لوقت طويل لينتزع قدميه من الأرض التي كان يقف عليها. حاول أن يعود من حيث أتى. وبعد جهد شديد استجابت له

العضلة الأولى، قفل راجعاً عبر الزقاق، بعيداً عن ظلاله، باتجاه أضواء الشارع المتوهجة. ما أن أصبح تحت ضوء الشمس، حتى شعر بشيء يتحطم تحت قدميه. كان صندوقاً للشحن البري، برتقالي اللون. ملصوقة على جانب منه يدان مشبكتان، جلس كولي عليه، وكان ضوء الشمس يتساقط فوق رأسه كالشهد مرت به عربة فواكه يجرها حصان، وكان السائق يغني: «انعش نفسك بالعنب حلو كالسكر، أحمر كالنبيد»

بدأت الضوضاء تزداد، أصوات كعوب النساء، تك... تاك، قهقهات رجال متسكعين في المدخل. صوت ترام في مكان ما. جلس كولي. كان يعرف أنه إذا ظل ساكناً فكل شيء سيكون على مايرام. ولكن الألم زحف إلى عينيه، وكان يتوجب عليه أن يحاول كل شيء ليتخلص منه. إذا بقي ساكناً، كما أعتقد، وظلت عيناه مركبتين على شيء واحد، فإن الدموع لن تنهمر. ولذلك جلس تحت ضوء الشمس الغامر، وشد كل عصب وعضلة فيه حتى يمنع تساقط المياه من عينيه. وبينما كان مشدوداً هكذا، شنت أمعاؤه هجومها المفاجيء، وقبل أن يدرك ماكان يعرفه، جرى الغائط السائل بين رجليه. في بداية المدخل حيث كان يقف أبوه، على الصندوق البرتقالي تحت الشمس، على الشارع المليء بالنساء والرجال الكبار، وسخ نفسه مثل طفل. تساءل مذعوراً فيما إذا كان عليه أن ينتظر هناك حتى حلول الليل لا. سيظهر أبوه فجأة ويراه ويضحك عليه. آه. أيها الإله. سيضحك عليه كان هناك شيء واحد فقط يمكن فعله.

ركض كولي في الشارع، سامعاً الصمت فقط تحركت أفواه الناس، تحركت أقدامهم. توقفت سيارة جنبه - ولكن بدون صوت. بدا أن الهواء سيخنقه، يعيده إلى الوراء. انغلق باب بصمت كامل. لم تصدر قدماه أي صوت. كانت مندفعاً خلال عالم من الأعشاب الطفيلية غير المرئية التي تهدد بطمره تماماً ظل يركض وهو لا يرى سوى أشياء متحركة بصمت، حتى وصل إلى نهاية البناية، حيث بداية الأفق المفتوح، ورأى نهر «أوكمو» المتلوي قدماً، وانطلق على امتداد منحدر مليء بالحصى نحو دعامة ناتئة فوق الماء الضحل. وجد ظلاً كثيفاً تحت الدعامة، فجثم خلف

أحد القوائم، بقي مشدوداً هناك في وضع جنيني، مشلولاً، وقبضتاه
تغطيان عينيه، لفترة طويلة.

لأنامة، لالحة، وإنما ظلمة فقط وضغط أعصاب العينين على أجفانه.
نسي حتى بنطاله القذر.

أتى المساء. وطوق الظلام، والدفع، والهدوء كولي مثل قشرة ثمر
البيلسان التي تحمي بذرتها تحرك كولي، ولم يشعر بأي شيء سوى
الصداع، سريعاً، مثل كسر الزجاج اللامعة، تقاطعت أحداث بعد الظهر
داخله، رأى أولاً النقود فقط بين الأصابع السوداء، ثم تصور نفسه جالساً
على كرسي غير مريح، ولكن عندما نظر إليه، تبين له أنه رأس رجل،
رجل ببقة خالية من الشعر بحجم برتقالة. بدأ كولي، في الوقت الذي
اندمجت فيه تلك النتف لتشكل ذكرى كاملة، يشم رائحته وقف فشعر
بالدوار، والضعف، والارتجاف استند للحظة إلى عمود الدعامة، ثم خلع
سرواله، وملابسة الداخلية، وجواربه، وحذائه. أزال جزءاً من القذارة
بحذائه، ثم زحف إلى ضفة النهر. كان عليه أن يهتدي إلى بداية الماء
بيديه، لأنه لم يكن يراه بوضوح. حرك ملابسه في الماء ببطء، ثم فركها إلى
أن أصبحت نظيفة كما اعتقد. عاد ثانية إلى الدعامة، وخلع قميصه ولفه
حول خصره، ثم نشر بنطاله وملابسه الداخلية على الأرض. ربض هناك
وبدأ ينتزع الخشب المتهرىء من الدعامة. فكّر، فجأة، بخالته جيمي،
كيس الراتينج، أسنانها الذهبية الأربعة، والخرقة الأرجوانية التي تضعها
حول رأسها، تذكر بشوق عارم يكاد يمزقه، كيف ناولته قطعة صغيرة من
لحم الخنزير من صحنها، وتذكر كيف حملتها، بحركة غير رشيقة،
بثلاث أصابع بمحبة كبيرة. عندها انسابت الدموع على خديه، تشكل
باقة تحت ذقنه.

ثلاث نساء يحنن رؤوسهن من نافذتين. يرين الرقبة الطويلة النظيفة
لشاب غريب، وينادين عليه. يذهب إليهن. في الداخل، عتمة ودفع.
يقدمن له عصير الليمون بجرّة مایسون يرى نظراتهن مصوبة عليه، عبر
قاع الإناء، والشراب العذب الصقيل. يعدن له رجولته ثانية، ويأخذها

دونما أي هدف. إن أجزاء حياة كولي لا يمكن أن تصبح مترابطة إلا في ذهن عازف موسيقي، فقط أولئك العازفون الذين يذوّبون أنفسهم في تلك الألحان المنطلقة من الأبواق الذهبية المنحنية، أو من البيانو، والطلبل، والغيتار، المنطلقة من الأزقة الخشبية. إنهم، فقط، سيعرفون كيف يريطون لب تلك البطيخة الحمراء مع كيس الراتينج، مع ضوء المصباح اليدوي على مؤخرته، مع قبضة النقود، مع شراب الليمون في جرة مايسون، مع رجل يدعى بلو، ويدركون ماذا يعني كل ذلك في حالة الفرج، والألم، والغضب، والحب، ويعطونه ذلك الألم النهائي المتغلغل فيه للحرية. عازف بارع فقط سيدرك، ويعرف، حتى بدون أن يعرف أنه يعرف، بأن كولي كان حراً، حراً إلى درجة خطرة. حراً أن يشعر بكلّ ما شعر به - الخوف، الذنب، الخزي، الحب، الحزن، الشفقة، حراً أن ينام في الداخل، أو بين الملاءات البيضاء لامرأة مغنية، حراً أن يجد عملاً، وحرراً أن يتركه، بإمكانه أن يذهب إلى السجن ولا يشعر أنه مسجون، لأنه كان قد رأى لتوه المكر في عيني سجان، حراً أن يقول «لا، اللعنة». ويبتسم لأنه قد قتل، لتوه، ثلاثة رجال بيض، حراً أن يتحمل إهانات امرأة، لأن جسده قهر، لتوه، جسدها. حراً حتى بضربها على رأسها، لأنه كان قد حضن، لتوه، ذلك الرأس بين ذراعيه. حراً في أن يكون لطيفاً معها حين تمرض، أو أن يمسح لها الأرضية، لأنها تعرف ماهي رجولته وأين تكمن، حراً أن يفرق نفسه في عجز سخيف لأنه رقص لتوه رقصة السجناء وأقدامهم مقيدة بالسلاسل، وقضى ثلاثين يوماً موثقاً بسلسلة واحدة مع مجموعة منهم، وأخرج رصاصة من ريلة ساق امرأة. إنه حر في أن يعيش أوهامه، وحرّ حتى أن يموت، ولا يهمه كيف ومتى يكون ذلك. في تلك الأيام، كان كولي حراً حقاً. تركته أمه على كومة نفايات، ورفضه أبوه من أجل لعبة قمار. لم يعد يوجد شيء يخسره. إنه وحيد مع قوة إدراكه ورغائبه وهما، وحدهما، اللذان يهماه.

في حالته الإلهية هذه، قابل بولين وليمز. وبولين، أو بالأحرى الزوج منها، هو الذي عمل به مالم يعمل ضوء المصباح اليدوي. والسكون، وعدم

التنوع، ووطأة الرتابة كل ذلك قاده إلى اليأس، وجمد خياله. أن يكون مفروضاً عليه النوم مع المرأة نفسها للأبد لهي فكرة غريبة وغير طبيعية بالنسبة له، أو أن يتوقع منه أن يطمر حماساته لأفعاله القديمة، ومكائده المبتذلة، إنه يستغرب غطسة الإناث. عندما قابل بولين في كنتكي، كانت متدلية من سراج، وهي تحك جلدها بقدمها العرجاء. أناقتها، وسحرها، والفرح الذي أيقظته في نفسه، جعله راغباً في أن يجمعهما عش واحد.

كان عليه، مع ذلك، أن يكتشف ما الذي حطم تلك الرغبة. ولكنه لم يفكر بالأمر كثيراً. فكر بدلاً عن ذلك بما حصل للفضول الذي اعتاد أن يشعر به. لاشيء لاشيء يثير فضوله الآن. في الشرب فقط، هناك بعض الراحة، بعض من ضوء غامر، وحين ينتهي ذلك، يحل النسيان.

لكن الجانب الذي صعقه من الحياة الزوجية، وأفقده فعالتيته تماماً كان مجيء الأطفال. لم يستطع أن يفهم قط ما الذي ينبغي أن تكون عليه علاقته بهم، فلم يكن يملك أية فكرة حول كيفية تربية الأطفال، ولم يرّبه أحد من والديه. لو كان مهتماً بتكديس المال، لفكر ربما بالأولاد كورثة له، ولو كان يحتاج أن يثبت جدارته له «آخرين» مجهولين، لأرادهم ربما أن يتفوقوا حسب تصوره هو، ومن أجله هو. ولو لم يكن وحيداً في العالم منذ الثالثة عشرة، ليعرف سوى امرأة عجوز محتضرة كانت مسؤولة عنه، ولكنها، بعمرها وجنسها واهتماماتها، بعيدة عنه، وربما شعر بارتباط عميق بينه وبين الأطفال. لقد تفاعل معهم، ولكن تفاعله كان مبنياً على ما يشعر به لحظتها.

في ظهيرة سبت، في ضوء الربيع الحفيف، عاد إلى البيت مترنحاً من السكر، ورأى ابنته في المطبخ.

كانت تغسل الصحون، وظهرها الصغير منحن على المغسلة، رآها كولي بعدم وضوح، ولم يستطع أن يدرك ماذا يرى، وبمأذا يشعر، ثم أدرك بعد قليل أنه لا يشعر بالراحة، وبعد ذلك شعر أن قلقه يتلاشى ليتحول إلى غبطة تسلسل انفعالاته: اشمئزاز، شعور بالذنب، شققة ثم حب. كان

اشمئزازه رد فعل على وجودها الفتى العاجز اليائس: ظهرها المنحني بذلك الشكل، ورأسها المائل إلى جانب وكأنه منحني من تأثير ضربة مستديمة. لماذا كان عليها أن تبدو بهذا الأنكسار؟ إنها ماتزال طفلة - لاتحمل عبء أي شيء - لماذا هي ليست سعيدة؟ إن الإعلان الصريح عن بؤسها لهو اتهام. أراد أن يكسر رقبتها - ولكن برقة. الشعور بالذنب والعجز ينهضان في لحن ثنائي تعس... ماذا بإمكانه أن يفعل لها - دائماً؟ ماذا يعطيها؟ ماذا يقول لها؟ ماذا بإمكان رجل أسود منهك القوى أن يقول للظهر المحدودب لابنته ذات الأحد عشر عاماً؟ إذا نظر إلى وجهها، فسيرى تلك العنيين المحبتين. المسكونتين بالهواجس، الهواجس تثيره، والحب يجعله عنيفاً. كيف تجرؤ أن تحبه؟ ألا تملك ذرة من عقل؟ ماالمفروض أن يفعل حيال ذلك؟ يبادلها الحب؟ كيف؟ ماذا تستطيع أن تفعل يداها الخشنتان لجعلها تبتسم؟ أية معرفة من المعارف التي اكتسبها عن العالم والحياة يمكن أن تكون مفيدة لها؟ ماذا بإمكان ذراعيه الثقيلتين وعقله المضطرب أن يحققا حتى يكسب احترامه لنفسه، وهذا ما يسمح له، بالمقابل، أن يقبل حبها؟ كراهيته لها التصقت في معدته كماءة لزجة منذرة بالتحول إلى قيء. ولكن قبل أن يتحول الغثيان إلى شعور قوي، رفعت جسمها ووقفت على رجل واحدة لتحك ريلة ساقها بإصبع قدمها. كانت إيماءة هادئة مثيرة للشفقة. وأخذت يداها تنتقلان حول مقلاة القلي، وتكشطان البقع المسودة. المنظر الخجول لاصبع قدمها المثبت في المكان بعينه - هو مافعلته بولين حين رآها للمرة الأولى في كنتكي، منحنية على جدار، محدقة في اللاشيء. أصبع القدم العارية تحك ساقاً ناعمة. إيماءة صغيرة ساذجة، ولكنها ملأته حينها برقة مذهلة، ليست مثل الشهوة العادية لرؤية ساقين مفتوحتين ملتصقتين بساقيه، ولكنه شعور بالبرقة والحماية رغبة في أن يغطي قدميها بيديه، ويقضم تلك الحكمة في ريلة ساقها بأسنانه. فعلها حينئذ وانفجرت بولين ضاحكة. وهو يفعلها الآن.

تفجر الحنان داخله، فانحنى على ركبتيه وعيناه مثبتتان على قدم ابنته. زحف على أربع باتجاهها، ورفع يديه، وأمسك بقدميها من الأعلى

بخطفة واحدة. فقدت بيكولا توازنها وكانت على وشك السقوط، على الأرض برفع كولي يده الأخرى إلى خصرها ليمنعها من السقوط أنزل رأسه ثم بدأ يقضم برفق ساقها من الخلف. كان فمه يرتعش من حلاوة اللحم. أغلق عينيه، وترك أصابعه تحفر في خصرها صلابة جسدها المصعوق، والصمت المختنق في حنجرتها أفضل من الضحكات العفوية التي أطلقتها بولين. الخليط المشوش لذكرياته عن بولين وفعله فعلاً وحشياً أثاره أكثر. وصل اندفاع شهوته إلى ذكره فانتصب ولانست إليته. أراد أن يجامعها برقة، ولكن الرقة لم تستمر. كان ضيق مهبلها أكثر مما يحتمل. وبدت روحه وكأنها انزلقت إلى أحشائه، ثم طارت لتستقر داخلها. وأحدث الاندفاع المفاجيء الهائل داخلها الصوت الوحيد الذي أطلقته، امتصاص مكتوم للهواء في ظهر الحنجرة، مثل تفريغ مفاجيء للهواء من منطاد في سيرك.

بعد تلاشي - خمود - الرغبة الجنسية، انتبه لوجود يديها اللساوين الرطبتين على خصره، أصابع مطبقة، ولكنه لم يدرك فيما إذا كان تشبثها نابعاً من نزاعها اليائس والعنيد للتحرر منه، أو نابعاً من انفعال آخر.

كان مؤلماً جداً بالنسبة إليه أن يزيح جسمه عنها، فقطع العملية وسحب عضوه من مهبلها الجاف. بدت فاقدة الوعي. وقف كولي، ولم يكن بإمكانه أن يرى سوى سروالها الداخلي الضارب إلى الرمادي، بدت حزينة جداً بعرجها الذي يحيط برسغ قدمها. مرة أخرى امتزجت الكراهية بالحنان، كانت الكراهية تمنعه من انعاشها، والحنان يجبره على تغطيتها.

وهكذا عندما استعادت الطفلة الوعي، كانت متمددة على أرضية الحمام يغطيها لحاف ثقيل، وهي تحاول أن تربط بين الألم ما بين ساقها ووجه أمها الذي يلوح فوقها كطيف بعيد.

انظر إلى الكلب عوعو الكلب يذهب

هل تريد ياكلب أن تلعب

مع جين انظر إلى الكلب

مرة كان هناك رجل عجوز مولعاً بالأشياء، لأن أبسط اتصال بالناس يسبب له غثياناً دائماً وإن يكن خفيفاً، وهو لا يستطيع أن يتذكر متى بدأ هذا النفور، أو المرات التي لم يصبه فيها. حين كان فتى صغيراً كان يسبب له هذا النفور، الذي لا يشاركه فيه الآخرون، إزعاجاً كبيراً، ولكن بعد أن تلقى تعليماً جيداً، بدأ يفهم، مع أشياء أخرى، معنى كلمة «كاره البشر» أكسبه هذا التصنيف الراحة والشجاعة معاً، فقد كان يؤمن بأن تسمية شرّ ما باسمه تحيّدّه إن لم تلعنه. وقتها قرأ، أيضاً، عدة كتب، وتعرف على أعظم الشخصيات الكارهة للبشر في كل العصور، وعلاقته الروحية معهم خففت من معاناته، وزودته بمقياس لضبط نزواته، وأشواقه، وشعور بالنفور، وأكثر من ذلك، وجد أن كره البشر هو وسيلة ممتازة لتطوير الشخصية: فعندما يقهر اشمئزازه، وتتحرك مشاعره، أو يقدم المساعدة أو المشورة، أو يشعر بالصدقة تجاه شخص ما، فإنه يفكر بتصرفه على أنه تصرف كريم، وبمقاصده على أنها مقاصد نبيلة، وعندما كان يشعر بالسخط نتيجة مسعى أو خلل إنسانيين، فإنه كان بإمكانه أن يعتبر نفسه شخصاً مميزاً، صعب الأرضاء، مليئاً بوساوس رائعة.

وكما في حالة عدد من كارهي البشر، فإن ازدراءه للناس قاده لمنية أعدت لخدمتهم. فقد انخرط في عمل يعتمد كليةً على كسب ثقة الآخرين، محل تكون فيه العلاقات الحميمة ضرورية. وكان قد ضيع وقته في الكهانة، فتركها ليصبح باحثاً اجتماعياً. ولكن الزمن وسوء الحظ كانا يتآمران ضده، فاستقر أخيراً في مهنة حققت له الحرية والقناعة معاً.

أصبح «قارئاً، وناصحاً، ومفسراً للأحلام». كانت مهنة ملائمة له تماماً. فقد كان وقته ملكه والمنافسة ضعيفة، والزبائن طيِّعين ومقتنعين به، إضافة إلى الفرص العديدة التي سنحت له ليشهد على الغباء الانساني دون أن يشارك فيه أو يعرض نفسه للشبهة، وليغذي حساسيته الشديدة من خلال مشاهدة الاعتلال الجسدي. وبغض النظر عن دخله المتواضع، فإنه لم يكن يميل إلى التبذير - فقد رسخت تجربته في الدير تقشفه الطبيعي، وطورت عنده تفضيله للعزلة. كان التبتل ملاذه، والصمت درعه.

كان، طوال حياته، مولعاً بالأشياء - ليس لاكتساب الثروة أو الأشياء الجميلة، ولكن عن حب أصيل للأشياء البالية: دلة قهوة تركتها أمه، ممسحة أقدام أخذها من باب نزل سكن فيه مرة، لحاف من مخزن جيش الخلاص. كان يبدو وكأن نفوره من الاتصال الانساني قد تحول إلى توق شديد إلى أشياء كان قد لمسها آدميون. ماتبقى من الروح الانساني في أشياء غير حيّة هو كل ما يستطيع تحمله... أن يتأمل في آثار تركتها خطوات انسانية على المسحة، وأن تغمره رائحة لحاف يعرف معرفة أكيدة أن عدة أجساد تمرّقت عليه ونامت، وحلمت، ومارست الحب، ومرضت، وحتى ماتت تحته. حيثما يذهب، يأخذ معه أشياءه، ويبحث دائماً عن أشياء أخرى. قاده هذا الظمأ للأشياء البالية إلى التفتيش العرضي ولكن المستمر لبراميل القمامة في المداخل، وسلال المهملات في الأماكن العامة.

كانت شخصيته، بشكل عام، شخصية أرابسكية مقعدة، متساوقة، متوازنة، ومبنية بشكل محكم ماعدا عيباً واحداً فهذا التخطيط الدقيق كانت تفسده، بين فترة وأخرى، الرغبات الجنسية العنيفة.

كان من الممكن أن يكون شاذاً جنسياً، ولكن كانت تعوزه الشجاعة، ولم تخطر على باله البوهيمية، أما اللواط فكان غير وارد على الإطلاق. فهو لا يستطيع تحمل فكرة الانتصاب عند رجل آخر. بالإضافة إلى أن الشيء الذي يثير اشمئزازه أكثر من الايلاج ومعانقة امرأة هو أن يعانق رجلاً وأن يعانقه رجل. وعلى أية حال، فإن رغباته الملحة رغم حدتها، لاتستسيغ الاتصال الجسدي. إنه يبغض أن يكون اللحم على اللحم.

رائحة الجسد، رائحة النفس، تسبب له الإرباك. ورؤيته لقيح في زاوية عينه، أو لسن متعفن أو ساقط، أو مادة شمعية، أو شامات أو بثور جلدية - كل الافرازات الطبيعية وكل مايقدر الجسد على إفرازه حماية له - يبقده هدوءه. ولذلك تركز اهتمامه، تدريجياً، على تلك الكائنات البشرية التي كانت أجسادها أقل ازعاجاً - الأطفال. ولكن مادام حياً جداً بحيث لا يستطيع مواجهة الشذوذ ومادام الأطفال الصغار مؤذنين وعنديين ومروّعين، فإنه حصر اهتمامه على الفتيات الصغيرات. إنهن طبعات عادة ومغريات في أغلب الأحيان. لم يكن نشاطه الجنسي داعراً، فرعاتيه للفتيات الصغيرات كانت فيها مسحة من البراءة، وترتبط في ذهنه بالنظافة. كان مايمكن أن يسميه المرء رجلاً عجوزاً نظيفاً جداً.

إنه رجل من جزر الهند الغربية يعيش بلون القرفة وجلد ذي سمرة خفيفة.

كان سكان المدينة يدعونه بـ«سوفيد تشيرش» رغم أنّ اسمه الأول كان مطبوعاً على لوحة على نافذة المطبخ، وعلى بطاقات العمل التي يوزعها. لأحد يعرف من أين جاءت كلمة «تشيرش» وأضيفت لاسمه - ربما تذكر أحدهم عمله ككاهن ضيف - والكهان الضيوف هم كهان يُدعون إلى الكنيسة ولكن يبقون بدون رعية، ويقومون باستمرار بزيارات إلى كنائس أخرى، ويجلسون على المذبح مع الكاهن المضيف. ولكن كل شخص كان يعرف ماذا يعني اسم «سوفيد» - الشعر المجعد، المشدود، الذي يلصع ويتموّج عندما يدهن برغوة الصابون. وهو نوع من العمليات البدائية.

لقد تربى في عائلة فخورة بانجازاتها الأكاديمية ودمها المختلط - وفي الحقيقة إنهم يؤمنون بأن الحالة الأولى كانت أساساً للحالة الثانية. لقد أدخل السر ويتكوب - وهو نبيل بريطاني أفل نجمه، واختار أن يتفسخ تحت الشمس أسرع من تفسخ انكلترا - العنصر الأبيض إلى العائلة في بداية ١٨٠٠. لقد عمل، بعد أن أصبح نبيلاً بأمر من الملك، شيئاً حضارياً لولده الخلاسي غير الشرعي - فقد منحه ثلاثمائة باوند استرليني ترضية لأمه، التي شعرت أن هذه الثروة نعمة هبطت عليها.

كان ابن الزنى يشعر بالعرفان أيضاً، واعتبر أن هدف حياته هو ترميم هذا العنصر الأبيض. فوهب رعايته لفتاة ذات خمسة عشر عاماً من النسب نفسه، لقد تعلمت، مثل باروديا^(١) فيكتورية بارعة، كل ماهو جدير بالتعلم من زوجها — أن تفصل نفسها جسداً، وعقلاً، وروحاً عن كل ما يذكر بافريقيا، وأن تنمي العادات، والذوق، والخيارات التي يستحسنها حماها وحماتها الغائبين.

لقد نقلنا هذه «الانجلزة» إلى أطفالهم الستة وأحفادهم الستة عشر. وماعدا شخص واحد متمرد غير مسؤول اختار زوجة سوداء حرون، فإن الباقين تزوجوا نساء من «الأعلى» فتحن بشرة العائلة، ورقرقن ملامحها.

وبسبب الثقة المتولدة عن قناعة بالتفوق، كانت انجازاتهم المدرسية جيدة. كانوا مجدين، منظمين، فعالين، وأملوا أن يسبرهنوا على الصحة المطلقة لفرضية دي جوبينو القائلة:

«بأن كل الحضارات تنشأ من الجنس الأبيض، وأن لاحضارة توجد دون مساعدتهم، وأن المجتمع يبقى عظيماً وبارهاً فقط حين يحافظ على دم المجموعة النبيلة التي أبدعته».

ولذلك فإنهم نادراً ما يهتمون من قبل المدرسين الذين يقدمون توصيات عن الطلاب الواعدين للدراسة في الخارج. درس الرجال الطب، والقانون واللاهوت، وبرزوا في إدارة المكاتب الحكومية الضعيفة المتاحة للسكان الأصليين. وإذا كانوا فاسدين في ممارساتهم الخاصة والعامة. فاسقين وداعرين، فقد اعتبر ذلك حقاً لهم كنبلاء، واستلظفتهم أغلبية السكان الأقل كفاءة.

أصبح من الصعب، بمرور السنوات وبسبب طيش بعض أخوة ويتكومب. المحافظة على نقاء بياضهم، وتزوج بعض الأقارب البعدين وغير البعيدين من بعضهم البعض. لم تلاحظ آثار سيئة واضحة من هذه الاتحادات الطائشة، ولكن ظهرت علائم ضعف عقلية عند واحدة أو

(١) باروديا: أثر أدبي أو موسيقى يحاكي فيه أسلوب مؤلف مابشكل يثير الضحك والهزء.

اثنيتين من الخادومات المسنّات. أو البستانيون الرجال. ونزعات غريبة الأطوار عند بعض الأطفال، وخلل أكثر من كونه مجرد فسق أو إدمان الكحول. واعتبروا الزيجات المختلطة مسؤولة عن هذا الخلل، وليس الجينات الأصلية للورد الداوي وعلى أية حال، كانت هناك ضربات حظ، لكن ضربات الحظ هذه لم تكن متوفرة أكثر مما هي متوفرة في العائلات الأخرى، غير أنها بالتأكيد محفوفة بالمخاطر أكثر لأنها أكثر قوة. كان أحدهم متطرفاً دينياً اكتشف طائفته الدينية السرية، وأنجب أربعة أولاد أصبح واحد منهم مدير مدرسة عرف بدقّة أحكامه وسيطرته على مشاعره العنيفة، تزوج مدير المدرسة هذا امرأة جميلة، نصف صينية، خاملة إلى درجة أن الحمل كان يبدو أمراً فوق طاقتها. ماتت سريعاً بعد الولادة، ووفر طفلها، المسمى أليهو ميخا ويتكومب، فرصاً إضافية للمدير ليحقق نظرياته في التعليم، والانضباط، والحياة الطيبة. تعلم الصغير أليهو كل شيء احتاج أن يعرفه جيداً، وخاصة فن خداع الذات. كان يقرأ بشراهة ويفهم بانتقاء، ويختار مقتطفات من أفكار الآخرين تدعم نزوعه الآتني. وهكذا اختار أن يتذكر معاملة هاملت السيئة لأوفيليا، وليس حب المسيح لريم المجدلية، آراء هاملت السياسية الطائشة، وليس عدم امتثالية المسيح الخطيرة، حدة جيبون وليس تسامحه، حب عطيل لديمونة الجميلة، وليس حب إياجو الشرير لعطيل. وكانت الأعمال الأدبية المعجب بها أكثر هي أعمال دانتي، والأعمال التي يحتقرها أكثر هي أعمال دوستوفسكي. ومن خلال كشفه لأعمال أفضل العقول في العالم الغربي، لم يسمح سوى للتأويلات المحدودة أن تؤثر فيه. وانعكس رد فعله على عنف أبيه المكبوح، في تطويره عادات قاسية وخيلاً عاطفياً. كراهية لأي قدر من الفوضى والتفسخ وافتتان بهما في الوقت نفسه.

في السابعة عشرة من عمره، التقى بـ«بياتريس»^(١) التي كانت تكبره بثلاث سنوات. فتاة لطيفة، مرحة، ذات سيقان ضخمة، كانت تعمل

(١) بياتريس: هي حبيبة دانتي (م)

موظفة في القسم الصيني في مخزن. اسم الفتاة: فيلما. كان حبها وشهوتها للحياة كبيرين، وأثرت فيها حساسية الهيو الشديدة، وافتقاره الكامل لحس الدعاية، فأرادت أن تعرفه على فكرة السعادة. قاوم هذا التقديم ولكنها، على أية حال، تزوجته لتكتشف بعد ذلك أنه كان يعاني من سوداوية عسية على العلاج، وأنه كان يستمتع بسوداويته. وعندما عرفت، بعد شهرين من الزواج، كم كانت هذه السوداوية ضرورية له، وكم كان رغباً بتحويل سعادتها إلى غم أكاديمي، وكيف كان يتعامل مع فعل الحب وكأنه عشاء رباني، تركته ببساطة. إنها لم تعش بجوار البحر طوال تلك السنوات، مستمتعة لأغاني رجال الميناء كل الوقت لئنهي حياتها في كهف لايسبر غوره في عقل ألهيو.

لم يتعاف من هجرانها له قط. كان عليها أن تكون جواباً على سؤاله غير المعلن وغير المسلّم به، أين هي الحياة لمواجهة العدم الزاحف؟ كان على «فيلما» أن تنقذه من العدم الذي عرفه على الجانب الكثيب من المنطقة التي عاش أبوه فيها. ولكنه قاومها بمهارة إلى الدرجة التي دفعتهما أخيراً للهرب من السأم المحتوم الذي تحدّثه حياة كهذه صعبة المتطلبات. أنقذ الشاب ألهيو من هلاك لاريب فيه على يد أبيه الذي ذكره بسمعة العائلة، وحذره من الفتيات على شاكلة فيلما المشكوك فيها.

ثم تابع دراساته بنشاط أكثر من السابق، وقرر أخيراً أن يدخل الوزارة. وعندما أخطر أنه لا يملك الكفاءة، ترك الجزيرة وأتى إلى أمريكا ليدرس علم النفس الذي كان مايزال وليداً حينئذٍ، ولكن الموضوع كان يتطلب قدراً كبيراً من الحقيقة، وكثيراً من التحديات، ولا يقدم سوى عون بسيط لـ«أنا» مخدولة، فانتقل إلى علم الاجتماع ثم إلى مجال العلاج الطبيعي. استمر هذا التعليم المتعدد الأشكال لمدة ست سنوات لحين رفض والده مساعدته حتى «يجد» نفسه. وعاد ألهيو، وهو لا يعرف إلى أين يتجه، إلى وسائله القديمة، و«وجد» نفسه غير قادر على كسب المال. وبدأ يغرق سريعاً في مظاهر حياة ارسقراطية تتهرأ سريعاً. تخلل ذلك عمله في وظائف مكتبية متوفرة للسود بغض النظر عن نقاوة الدم: موظف استعلامات في فندق

للملونين في شيكاغو، وكيل تأمين، بائع متجول لشركة مستحضرات تجميل تقدم خدماتها للسود، واستقر، أخيراً، في لورين، أهيو، في العام ١٩٣١ فارضاً نفسه بالحيلة والخداع، وكأنه وزير، موحياً بالهيبة من خلال طريقة تحدثه بالانجليزية. واكتشفت نساء المدينة سرياً كيف يغزون بيته، ولم يستطعن أن يفهمن سبب رفضه لهن، فقررن أنه إنسان فوق طبيعي أكثر من كونه غير طبيعي.

حالما عرف بحكمهن هذا، استغل ذلك حتى النهاية، وقبل بالاسم «سوفيد تشيرش» والدور الذي أعطينه إياه. استأجر شقة ذات غرفة خلفية من سيدة عجوز شديدة التدين تدعى بيرثا ريس. كانت نظيفة، هادئة، وعلى وشك الإصابة بصمم كامل. كان المسكن مثالياً من كافة النواحي، ماعدا ناحية واحدة، فقد كان لبيرثا ريس كلب عجوز اسمه بوب، وبالرغم من أنه كان أصمً وهادئاً مثلها، فإنه لم يكن يمثل نظافتها. كان ينام أغلب أيامه على المدخل الخلفي الذي يدخل منه ألهيو. كان الكلب عجوزاً جداً بحيث لا فائدة ترجى منه، ولم تملك بيرثا ريس القوة أو حضور الخاطر لتعتني به العناية اللائقة. كانت تطعمه، وتغسله، وتتركه وحيداً. وكان كلباً أجرب أيضاً، عيناه بلون الطحالب البحرية حيث يتحلق الذباب والبعوض وكان ذلك يثير التقزز في نفس سوفيد بحيث تمنى لو أنه يموت سريعاً. واعتبر أن هذه الأمنية هي أمنية إنسانية، لأنه لا يستطيع، كما قال في نفسه، أن يحتمل معاناة أي كائن، لم يخطر على باله أنه كان مهتماً في الحقيقة بمعاناته هو وليس بمعاناة الكلب الذي كيّف نفسه مع الضعف والكبر. قرر سوفيد أخيراً أن يضع نهاية لتعاسة الحيوان، فاشترى سمّاً ليحقق ذلك. رعب الاقتراب منه فقط هو الذي منعه من إكمال مهمته. وانتظر لحظة اشمئزاز أو غضب أعمى لينخسه.

هناك حيث عاش بين أشياء الباليه، كان ينهض باكراً في الصباح من نوم بلا أحلام، ويقدم مشورته لأولئك الذين جاؤوا سعياً وراء نصيحته. كان عمله مروّعاً. يأتي الناس في فزع، يهمسون في فزع، وينتحبون في فزع، ويلتمسونه في فزع، وكان الفزع هو ما يُنصح به.

فرادى يجدون طريقهم إلى بابه، وكل ملتف بحجاب مرتق بالغضب،
والأشواق، والكبرياء، والانتقام، والوحشة، والبؤس، والهزيمة، والجوع،
كانوا يسألون عن أبسط الأشياء: الحب، والصحة، والمال. أخيرني ماذا
يعني هذا الحلم ساعدني في التخلص من هذه المرأة. اجعل أمني تعيد لي
ملايسي. أوقف يدي اليسرى من الرجفان. أبعد روح طفلي عن الموقد.
خلصني من عادة ادمان المخدرات. كان ينكب على كل هذه الطلبات
وعلمته الممارسة أن يفعل ما يطلب منه - أن لا يوحى لأي شخص بأن طلبه
غير عادل، أو وضع، أو ميثوس منه.

بين فترة وأخرى فقط، وبشكل نادر جداً، وخلال مقابلاته مع الفتيات
الصغيرات، كان يقتنع ببعض التسلية لنفسه. عاش بسلام غير شاعر بأي
ندم، غير أنه كان يدرك، بالطبع، بأن هناك شيئاً معوجاً في حياته، وكل
الحيوانات، ولكنه كان يضع المشكلة في مكانها... إنها مسؤولية من ينشئ
الحياة. آمن أن انتشار التفسخ، والرذيلة، والفسق، والفوضى لابد أن يكون
من «طبيعة الأشياء». وجد الشيطان لأن الله قد خلقه. إنه، الله، قد
ارتكب خطأ فاحشاً لا يغتفر: صمم كوناً غير كامل. وبرر علماء اللاهوت
وجود الفساد كوسيلة تختبر فيها مجاهدة الانسان وانتصاره.

انتصار للترتيب الكوني. ولكن هذا الترتيب، ترتيب دانتي، كان ذا
تقسيم وعزل منظم لكل مستويات الشر الشر والانهطاط عن المستويات
الأخرى. ولكنه ليس الأمر كذلك في هذه الحياة الدنيا. النساء الأكثر تألقاً
يجلسن في التواليت، وأكثر النساء بغضاً يمتلكن أشواقاً نقية مقدسة، لقد
قام الله بعمل بانس، وراودت سوفيد الظنون بأنه هو نفسه قد يكون
بإمكانه أن يقوم بعمل أفضل. ومن المثير للشفقة أن الخالق لم يسأله
مشورته.

كانت هذه الأفكار تتوارد على ذهن سوفيد في نهاية ظهيرة حادة عندما
سمع دقة على بابه. حين فتح الباب، رأى فتاة صغيرة، غير معروفة تماماً
بالنسبة إليه. كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، بدت له قبيحة
بشكل مثير للشفقة. لم تجبه حين سألها عما تريد، ولكنها ناولته بطاقة

من بطاقاته التي يعلن فيها عن مواهبه وخدماته: «إذا هزمتك المصاعب والظروف غير الطبيعية. فأنا أستطيع أن أزيلها. أستطيع أن أبطل السحر، والحظ السيء، وقوى الشر الخفية، تذكر، أنا روحاني حقيقي، وقارئ وسيط، ولدت بقوة خارقة، وسأساعدك. وستحصل على مريضك بزيارة واحدة. خلال سنوات عديدة من الممارسة زوّجت الكثيرين، وجمعت أزواجاً كثيرين بعد انفصالهم، إذا كنت تعيشاً، مثبط الهمة، أو تعاني من محنة، فأنا أستطيع أن أساعدك.

هل يلاحظك الحظ السيء دائماً؟ هل تغتير الشخص الذي تحبه؟ أستطيع أن أخبرك لماذا. سأخبرك من هم أعداؤك ومن أصدقاؤك، وإذا كنت مريضاً فسأدلك على طريق الصحة. إنني اكشف مكان السرقات والأشياء الضائعة. التعويض مكفول».

طلب منها سوفيد أن تدخل.

- «ما الذي أستطيع فعله لك ياطقتي؟»

وقفت هناك، ويدها منثنيتان على بطنها التي برز منها انتفاخ صغير.

- «ربما تستطيع أن تفعلها لي».

- «أفعل ماذا؟»

- «لم أعد أستطيع الذهاب إلى المدرسة. وفكرت أنك ربما تستطيع مساعدتي».

- «كيف أساعدك؟ أخبريني، لاتخافي».

- «عيناى».

- «ما بهما عيناك؟»

- «أريدهما زرقاوين».

زَمْ سوفيد شفتيه، ومرّر لسانه على حشوة ضرسه الذهبية، إنه المطلب الأكثر غرابة والأكثر منطقية في آن واحد. طلب لم يتلق مثله قط. هنا فتاة صغيرة قبيحة تطلب الجمال. غمره جيشان من الحب والفهم، ولكن سرعان ما حل محلها الغضب. الغضب من كونه عاجزاً عن مساعدتها.

بدت له هذه الرغبة من بين كل الرغبات التي يريد منه الناس تحقيقها - المال، الحب، الانتقام - الرغبة الأكثر استحقااً. فتاة صغيرة سوداء تريد أن تنهض من وجرة السواد، وترى العالم بعينين زرقاوين. رغب، بصدق للمرة الأولى لو أنه بإمكانه أن يصنع المعجزات. لم يطلب من قبل القوة الحقيقية المقدسة حقاً. كان يطلب فقط القوة لجعل الآخرين يعتقدون أنه يملكها. ومن المحزن جداً ومن السخافة أن يكون الحائل دونها الجنس البشري وليس الحكم الإلهي.

رسم علامة الصليب فوق رأسها بيد مرتعشة. تخدر جسده، وشعر بالقشعريرة في تلك الغرفة الصغيرة الحارة المعتمة، غرفة الأشياء البالية: «لا أستطيع فعل شيء لك ياطفتلي الصغيرة. لست ساحراً. أنا وسيط الله فقط. إنه يستخدمني لخدمة الناس أحياناً.

- «كل ما أستطيع فعله هو تقديم نفسي كأداة يعمل من خلالها. إذا أراد الرب أن يعطيك، فسيحقق رغبتك».

اتجه سوفيد نحو النافذة مديراً ظهره للفتاة. تسارعت أفكاره ثم تباطأت ثم تسارعت ثانية. كيف يصوغ الجملة التالية؟ كيف يتمسك بالشعور بالقوة؟ سقطت عيناه على «بوب» العجوز النائم في المدخل.

- «يجب أن نقدم قرباناً، يعني اتصال ما مع الطبيعة. قد يكون مخلوق بسيط هو الأداة التي سيتكلم من خلالها الله. «النر».

انحنى فوق النافذة، وحرك شفتيه. ونهض، بعد فترة زمنية مناسبة، واتجه إلى الثلاجة الموجودة قرب النافذة ليتناول حزمة صغيرة ملفوفة بورقة قرنفلية. تناول من الرف قنينة رمادية صغيرة ورش بعضاً من محتوياتها على مادة داخل الورقة، ثم وضع الرزمة، الفتوحة جزئياً، على الطاولة.

- «خذي هذا الطعام وأعطيه لذلك المخلوق النائم في المدخل. تأكدي من أكله له. وانتبهي جيداً إلى سلوكه. إذا لم يحدث شيء فستعرفين أن الله يرفضك وإذا تصرف الحيوان بشكل غريب، فان رغبتك ستمنح لك في اليوم التالي لهذا اليوم».

حملت الفتاة الحزمة. رائحة الظلام، واللحم اللزج جعلاهما تشعر
بالرغبة في التقبُّل، فوضعت يدها على بطنها.

«تشجعي، تشجعي يافتاة. هذه الأشياء لاتمنح لأصحاب القلوب
الضعيفة».

أومات برأسها، وفهمت بوضوح، حابسة داخلها القيئ. فتح سوبهيد
الباب، ومشت بسرعة على العتبة.

«مع السلامة، وليباركك الله». قال لها وأغلق بسرعة الباب. وقف عند
النافذة يراقبها، وقد عقد حاجبيه في فيضان من الحنو، فيما كان لسانه
يتحرك على حشوة الذهب البالية في فكه الأعلى. رأى الفتاة تنحني على
الكلب النائم الذي فتح إحدى عينيه الصافيتين حين لمست، كان ممدداً
هناك في الزاوية مع ما يبدو وكأنه غراء أخضر. لمست رأسه، وربتت عليه
بلطف. وضعت بعد ذلك اللحم على أرضية المدخل قرب أنفه. أثارت
الرائحة فرفع رأسه ثم انتصب ليشمها بشكل أفضل ازدرد اللحم بثلاث أو
أربع لقيمات ربتت الطفلة على رأسه ثانية، ونظر الكلب إليها بعينيه
الرائقتين المستطيلتين. سعل فجأة، سعال رجل عجوز مليء بالبلغم.
انتصب على قدميه. قفزت الفتاة، تقيأ الكلب، لأك فمه الهواء، وسقط
فوراً. حاول أن يُنهض نفسه، لم يستطع حاول ثانية، وسقط نصف سقطة
على الدرجات. تحرك غاصاً بالطعام متعثراً، مثل دمية مكسورة على
الفناء. كان فم الفتاة مفتوحاً تبين منه تويجية صغيرة. عملت إشارة عنيفة
بلامعنى بإحدى يديها، ثم غطت فمها بكلتا يديها. سقط الكلب ثانية
والتشنج يهز جسمه هزاً عنيفاً. ثم هدا. تراجعت الفتاة، ويداهما على
فمها، بضعة أقدام، ثم استدارت، وركضت بعيداً عن الفناء باتجاه
الطريق.

اتجه سوفيد نحو الطاولة. جلس إليها ويداه منثنيتان، ساندأً جبهته
على سلامتي إبهاميه. نهض واتجه نحو منضدة صغيرة ذات جرار سحب
منه ورقة وقلم حبر. كانت المحبرة على الرف نفسه الذي وضع عليه علبة

السم. جلس ثانية إلى المنضدة مع هذه الأشياء. ببطء، وعناية، وأعجاب
باسلوب خطه، كتب هذه الرسالة:

«الذي شرف الطبيعة البشرية شرفاً عظيماً بخلقه لها»

إلهي العزيز:

الغرض من هذه الرسالة هو أن أحيطك علماً بوقائع إما فاتتك
ملاحظتها، أو أنك اخترت تجاهلها.

في سالف الأيام عشت حدثاً غضاً في جزيرة من جزرك. في جزيرة من
مجموعة جزر في جنوب الأطلنطي، بين شمال وجنوب إفريقيا، تحيط
بالبحر الكاريبي، والخليج المكسيكي، مقسمة إلى الأنتيل الكبرى، والأنتيل
الصغرى، وجزر باهاما، ليس في مستعمرات «وندورد» أو «ليورد» ولكن
ضمن حدود الجزيرة الأكبر في الأنتيل (قد تكون هذه الدقة في كتابتي
مضنية لك ولكن من الضروري أن أقدم إليك تعريفاً وافياً عني)
والآن....

نحن، في هذه المستعمرة، نأخذ السمات الأكثر دراماتيكية والأكثر
وضوحاً من بين سمات أسيادنا البيض، التي هي، بالطبع، أسوأ سماتهم.
وفي عملية الحفاظ على هوية عرقنا، فنحن نتشبهت سريعاً بتلك السمات
ونثبته ونصونها، وبناء على ذلك، فنحن لسنا ملكيين بل نفاجين، ولسنا
ارستقراطيين، ولكن واعين طبقياً، آمنا أن السلطة هي القوة على الناس
الأقل شأنًا، وأن التعليم هو في المدارس فقط. حسبنا العنف عاطفة،
والتراخي فراغاً، وظننا الطيش حرية. ربينا أطفالنا، ونمينا محاصيلنا.
تركنا الأطفال يكبرون، والملكية تنمو. حُددت ذهنيتنا بالرضوخ، وأنوثتنا
بالرضوخ. كرهنا رائحة ثمارك، وعمل أيامك.

هذا الصباح، وقبل أن تأتي الفتاة الصغيرة السوداء، بكيت - من أجل
فيلما. أوه، ليس بصوت عالٍ. ليست هناك ريح تحمل، أو تتحمل، أو
حتى ترفض أن تتحمل، صوتاً مثقلاً بالندم. لقد بكيت بطريقة الصامتة
الموحشة - بسبب فيلما - تحتاج أن تعرف فيلما حتى تفهم مافعلته اليوم.

إنها (فيلما) تركتني بالطريقة نفسها التي يترك فيها الناس غرفة في فندق. غرفة في فندق هي المكان الذي تكون فيه عندما تعمل شيئاً آخر. إنها بذاتها ليست ذات أهمية بالنسبة لعمل الشخص الرئيسي. غرفة في فندق مكان ملائم. ولكن ملاءمتها محدودة بالوقت الذي تحتاجه في مدينة معينة لتتجزّ عملاً معيناً. تأمل أن تكون غرفة مريحة. ولكن تفضل، من غير ريب، أن تبقى مجهولة، لأنها، قبل كل شيء، ليست المكان الذي تعيش فيه.

عندما لاتعود تحتاجها، تدفع شيئاً قليلاً مقابل استخدامها. قائلاً: «شكراً ياسيد». وعندما تنتهي مهمتك في تلك المدينة، تغادر تلك الغرفة. هل يشعر أي امرئ بالأسف لمغادرته غرفة؟ هل يريد أي امرئ يملك بيتاً، بيتاً حقيقياً، في مكان ما، أن يبقى فيها؟ هل يلتفت أي امرئ لغرفة فندق بحب، أو حتى باشمئزاز، عندما يغادرها؟ إنك تستطيع فقط أن تحب أو تحتقر ما فعلته من أجل عيشك في تلك الغرفة، ولكن الغرفة نفسها؟ قد تأخذ تذكراً، ولكن، أوه، ليس لتتذكر تلك الغرفة، بل لتتذكر وقت ومكان عملك، ومشروعك. ما الذي يمكن أن يشعر به أيّ امرئ تجاه غرفة فندق؟ لا يشعر المرء بأي شيء تجاه غرفة فندق مثلما لا يتوقع المرء أن تشعر الغرفة بأي شيء تجاه ساكنها.

هكذا، هكذا يا أبانا القدوس تركتني، أو، بالأحرى، أنها لم تتركني، لأنها لم تكن هناك قط.

أنت تتذكر، أليس كذلك؟ كيف جُبلنا، ومع جُبلنا؟ دعني الآن أخبرك حول صدور الفتيات الصغيرات. اعتذر لعدم ملاءمة (هل الكلمة مناسبة؟)، وعدم التوازن في حبهن في الأوقات الخطأ من اليوم، والأماكن الخطأ، وقلة الذوق في عدم حبي لأولئك الذين ينتمون إلى عائلتي. هل عليّ أن اعتذر عن حبي للغرباء؟ ولكنك مخطيء هنا يا إلهي أيضاً؟ كيف ولماذا سمحت أن يحدث ذلك؟ كيف بإمكانني أن أرفع عيني عن تأمل جسدي، واستغرق في تأمل أجسادهن؟ البراعم. البراعم على بعض تلك الشجيرات. كن خبيثات، كما تعرف، ورقاقات. البراعم الصغيرة الخبيثة

تقاوم اللمس، وتقفز مرتدة كالمطاط. ولكنهن عدوانيات. يتحديني أن المسهن. يأمرني أن المسهن. لسن خجولات مطلقاً، كما قد تفترض، أنهن يلتصقن بي، أوه نعم، يلتصقن بي، فتيات صغيرات، بصور ناعمة، بصور ناثئة. هل رأيتهن يا إلهي؟ أعني هل رأيتهن حقاً؟ لا يستطيع أحد أن يراهن ولا يحبهن. ولا بد أنك أخذت باعتبارك. أنت الذي خلقتهن، أن يكنّ جميلات حتى كفكرة - كم كان تجلّي تلك الفكرة أكثر جمالاً لم أستطع، كما قد تتذكر، أن أبعد يدي وفمي عنهن. حلاوة مالحة ليس مثل فريز ناضج تماماً مغطى بالعرق المالح للأيام الجارية، والساعات المنسلة المتقاظة.

أن حبهن - لمسهن، تذوّقهن، وتحسسهن، ليس مجرد رذيلة انسانية ساذجة ناشئة عن ترف، إنهن، بالنسبة لي، شيء أفعله بدلاً عن شيء آخر، بدلاً عن البابا، بدلاً عن الأكليروس، بدلاً عن فيلما، واخترت أن لأقوم بأيّ شيء بدونهن. ولكني لم أدخل الكنيسة. لم أفعل ذلك في الأقل. ولأيّ شيء أفعل ذلك؟ لقد أخبرت الناس أنني أعرف كل شيء عنك، وأني قد تسلمت كلّ قدراتك. إنها ليست كذبة كاملة، ولكنها كذبة كاملة. ماكان ينبغي عليّ أن أقرّ بذلك، ماكان ينبغي عليّ أن آخذ المال مقابل أكاذيب مصاغة جيداً، وموضوعة جيداً، وموجهة جيداً. ولكني، انتبه، أكره ذلك. لم أحب للحظة الكذب أو المال.

ولكن خذ باعتبارك: المرأة التي تركت غرفة الفندق.

خذ باعتبارك: ذلك الوقت المغم بالحياة، والظهير في الأرخبيل.

خذ باعتبارك: عيونهن المفعمة بالأمل التي لاتتفوق عليها سوى صدورهن الرجراجرة.

خذ باعتبارك: كم كنت احتاج إلى إثم مريح ليحول دون معرفة مالا أستطيع أن أتحمّل معرفته.

خذ باعتبارك: كم كرهت واحتقرت المال.

والآن خذ باعتبارك: ليس وفقاً لعقويتي المستحقة العادلة، تلك الفتاة

الصغيرة السوداء التي أتتني مخبولة اليوم... كيف كان بإمكانك ياإلهي أن

تترك صبية وحيدة كل هذا الوقت الطويل إلى أن استطاعت أن تجد طريقها إليّ، كيف احتملت؟ إني أبكي من أجلك يا إلهي، أبكي من أجلك لأنه كان علي أن أؤدي عملك من أجلك.

هل تعرف لماذا أتت؟ من أجل عيون زرقاء، قالت، عيون جديدة زرقاء، كما لو أنها تريد أن تشتري حذاءً جديداً «أريد عينين جديدتين زرقاوين» لابد أنها طلبتهما منك لفترة طويلة جداً، ولكنك لم ترد (كان بإمكانني أن أخبرها أنها عادة، عادة قديمة توقفت منذ أيوب). أتت إليّ من أجلهما. وكانت تحمل واحدة من بطاقتي (البطاقة مرفقة). وبالمنااسبة. أضفت اسم ميخا — ألهيو ويتكومب. ولكنني أدعى سوفيد تشرتش. لا أستطيع أن أتذكر كيف ولماذا حصلت على الاسم. ما الذي يجعل اسماً ما يضيف قيمة لشخص دون غيره؟ هل الاسم، إذاً، هو الشيء الحقيقي؟ والشخص هو فقط ما يقوله اسمه؟ هل هذا السبب وراء عدم أجابتك السؤال الأكثر بساطة وحميمية: «ما اسمك؟» الذي أعطاك آياه موسى، وقولك بدل ذلك: «أنا من أنا»، مثل «بوباي»؟ أنا من أنا؟ هل تخشى ألا تخشى؟ أن تصرح باسمك؟ تخشى أن يعرفوا الاسم، فيعرفونك، وبالتالي لن يعودوا يخشونك؟ حسن؟ لا تغضب. لا أقصد الاساءة إليك. إني أفهم. إني رجل سيء أيضاً، ورجل غير سعيد أيضاً؟ ولكني، يوماً ما، سأموت. لقد كنت دائماً رجلاً مجنوناً. لماذا يجب أن أموت؟ الفتيات الصغيرات. الفتيات الصغيرات هن الشيء الوحيد الذي سأفتقده. هل تعرف إني عندما كنت ألس حلماتهن الصغيرة الصلبة. وأعضهن - قليلاً فقط - كنت أشعر شعوراً صداقياً؟ لم أرغب بتقبيل شيفاههن أو النوم معهن أو اتخاذ عروسة صغيرة لي. كنت أمزح كصديق. ليس كما تقول الصحف. ليس كما يهمس الناس. هن كن لايمانن أبداً أبداً هل تتذكر كيف أن عدداً كبيراً منهن كان يعود ثانية؟ لم يحاول أحد فهم ذلك. لو كنت آذيهن، هل كنّ يعدن ثانية؟ أتت اثنتان منهن، «دورين» و«شوغر بابي» معاً. لقد أعطيتهما حلوى منكهة بالنعناع ونقوداً، وأكلتا الآيس كريم وسيقانهن مفتوحة بينما كنت أمزح معهما. كنا وكأنا في حفلة. لم تكن هناك قذارة، ولم يكن هناك أية

بذاعة. ولم تكن هناك أية روائح، أو تأوهات - فقط ضحكاتنا الخفيفة
البريئة. لم تكن هناك نظرة - نظرة تواقه ضحكة مثل نظرة «فيلما» فيما
بعد. ولانظرة تجعلك تشعر بالقذارة بعد ذلك. تجعلك ترغب بالموت. مع
الفتيات الصغيرات كان الأمر نظيفاً ونبيلاً وصادقياً.

ينبغي عليك أن تفهم ذلك، أيها الرب. لقد قلت «الأطفال الصغار
المعذبون يرثونني، فلا تسيئوا إليهم». هل نسيت؟ هل نسيت ماقلته عن
الأطفال؟ نعم، لقد نسيت. أنت تدعهم محتاجين جالسين في زوايا الطرق،
باكين بجوار أمهاتهم الهامدات لقد رأيتهم متفحمين، معقدين، وعرجاً.
لقد نسيت يا الله. لقد نسيت كيف ومتى تكون إلهاً.

لهذا السبب غيرت أنا عيون الفتاة الصغيرة السوداء، دون أن ألسها.
لم أضح أصعباً واحدة عليها. ولكنني أعطيتها تلك العيون الزرقاء التي
أرادتها. ليس من أجل المتعة، وليس من أجل المال. لقد فعلت ما لم تفعله
أنت، ولم تستطع أن تفعله، ولن تفعله، نظرت إلى تلك الفتاة الصغيرة
السوداء، وأحببتها. لقد مثلت دورك. وكان عرضاً جيداً جداً.

أنا، أنا أحدثت معجزة، لقد منحتها العينين، منحتها عيني
زرقاوين، عيني اثنين زرقاوين. عيني زرقاوين مخضرتين. لأحد غيري
سيرى عينيها الزرقاوين. هي فقط ستراها. ستعيش سعيدة للأبد بعد ذلك.
أنا، أنا وجدت ذلك صحيحاً ففعلته.

هل ترى؟ أنا أيضاً خلقت. ليس بشكل بدائي، مثلك، فالخلق شراب
مسكر للذائق أكثر مما يكون للمخمر.

ولأنني قد سكرت، إذا صح التعبير، بالرحيق الإلهي فإنني لست
خائفاً منك، لست خائفاً من الموت، ولست خائفاً حتى من الحياة، والأمر
على مايرام مع فيلما، والأمر على مايرام مع البابا، والأمر على مايرام مع
آنتيل الكبرى والصغرى. على مايرام تماماً تماماً.

مع أرق تمنياتي
المخلص لك دائماً
ألهيو ويكا ويتكومب

طوى سوفيد تشرتش الورقة ثلاث طويات متساوية، ووضعها في مظروف. لأنه لا يملك ختمًا، أخذ يفكر بالشمع الأحمر. تناول علبة السيكار من تحت السرير وأخذ ينقب فيها. هناك بعضه أشياء من أشياء الثمينة زر فضي سقط من كم قميص في فندق شيكاغو. قلادة ذهبية على شكل حرف «Y» مع قطعة مرجان معلقة بها تعود إلى الأم التي لم يعرفها قط، أربعة دبابيس شعر كبيرة تركتها «فيلما» على مغسلة الحمام، وشاح حريري لرأس فتاة تدعى بريش جول. رأس خنفية مسود أخذه من مغسلة في زنزانة سجن في سينسيناتي، تمثالان رخاميان وجدتهما تحت دكة في منتزه «مدرنفايد» في يوم ربيعي جميل، كتالوج بلون البندق ذو رائحة كريهة، وبودرة وجه.

نسي ما كان يبحث عنه لانشغاله بهذه الأشياء. بذل مجهوداً كبيراً ليتذكر. كان هناك طنين في رأسه، وغلبه التعب. أغلق العلبة، وأراح جسده على السرير، ثم غاب في نوم عميق لم يسمع خلاله صراخ امرأة عجوز خرجت من حانوتها ووجدت الجثة الهامدة لكلب عجوز اسمه بوب.

الصيف

كان علي فقط أن أقترح شجيرات الغريز الكثيفة حتى أرى الصيف - غباره وسماواته الخفيفة. إنه يبقى، بالنسبة لي، فصل العواصف. لا أميز في ذهني بين النهارات التي على تبعث على الجفاف، والليالي اللزجة. ولكن العواصف، العواصف العنيفة المفاجئة ترعبني وتبعث في الخمود معاً. أتذكر عاصفة صيفية حدثت في المدينة التي كنت أعيش فيها، وأتخيل الصيف الذي عرفته أمي في العام ١٩٢٩. حدث أعصار في تلك السنة، كما تقول، أطار بنصف جنوب لورين. إنني أخلط صيفها مع صيفي. أراها تتضمن الغريز وتفكر في العواصف. فتاة شابة نحيلة في ثوب قرنفلي ذي قماش رقيق مجعد. إحدى يديها فوق وركها، والأخرى تتدلى فوق فخذه - في حالة انتظار. تنقض عليها الريح، ترفعها عالياً فوق المنازل، ولكنها ماتزال وافقة، ويدها فوق وركها، باسمه. التوقع والوعد تبدلها المحرقة. لم تنكسر يد أمي في أعصار ١٩٢٩. إنها قوية، باسمه، مسترخية بينما كان العالم يتساقط حولها. أشياء كثيرة تخزنها الذاكرة. الواقعة العامة تصبح واقعاً خاصاً، وفصول مدينة اسمها «مدوسترن» تصبح قدر حيواتنا الصغيرة.

كان الصيف مثقلاً بالغبار، حين تسلمنا، فريدا وأنا، بذارتنا. انتظرنا منذ إبريل /نيسان/ الرزمة السحرية التي تحتوي على مجاميع من البذار علينا أن نبيعها بخمسة سنتات لكل حزمة، وهذا ما يمكننا من شراء دراجة جديدة. صدقنا ذلك، ورحنا نقضي معظم اليوم في أرجاء المدينة لبيعها. وبالرغم من أن ماما حصرت البيع لبيوت الناس والجيران الذين

نعرفهم، فقد كنا نطرق كل الأبواب، ونتردد على كل بيت يُفتح لنا: بيوت مؤلفة من اثنتي عشرة غرفة تفوح منها رائحة الدهن والبول، وبيوت خشبية مؤلفة من أربع غرف مندسة بين الشجيرات قرب خطوط السكك الحديدية، بيوت متفرعة عن مخازن، وشقق فوق أسواق السمك، ودكاكين قصابين، ومخازن أثاث، وصالونات، ومطاعم، وبيوت قرميدية صغيرة ذات سجاجيد مزينة بالزهور، ومزهريات زجاجية ذات حوافٍ محزّزة.

في ذلك الصيف، وقت بيعنا البذار، كنا نفكر بالفلوس، والبذار، ونصغي نصف إصغاء لما يقوله الناس. في البيوت التي نعرفها كان يطلب منا الناس أن ندخل، فنجلس، ويقدمون لنا الماء البارد أو الليمون. وبينما كنا نجلس هناك منتعشين، كان الناس يواصلون أحاديثهم أو أعمالهم المعتادة. شيئاً فشيئاً، بدأنا نربط معاً أجزاء قصة سرية، مربعة شنيعة. وأدركنا بعد أن سمعنا بالمصادفة حديثين أو ثلاثة من هذه الأحاديث المبهمة، أن القصة تدور حول بيكولا. كانت تنف الأحاديث تجري إلى حد بعيد بهذا الشكل:

- «هل سمعت بخصوص تلك الفتاة؟»

- «ماذا؟ حامل؟»

- «نعم. ولكن إحزري ممن؟»

- «ممن؟ أنا لا أعرف أولئك الصبيان الصغار المتمرسين.»

- «إنهم ليسوا أولئك الصبيان. يقولون أنه كولي.»

- «كولي؟ أبوها؟»

- «أي، أي.»

- «يا إلهي رحمتك! ذلك الزنجي القذر.»

- «تذكرين تلك المرة الذي حاول فيها إحراق البيت؟ تأكدت حينئذٍ إنه

مجنون.»

- «ماذا ستفعل؟ والأم؟»

- «ستبقى حالها كما هي حسب اعتقادي أما هو فقد قضى عليه»

- «مجلس البلدية لن يسمح لها بالاحتفاظ بذلك الطفل، أليس كذلك؟»
- «لأعرف. لأحد من عائلة بريدلوف يبدو سليم العقل. الولد كل يوم في مكان. والفتاة حمقاء».
- «على أية حال، لا أحد يعرف شيئاً عنهم، ولا من أين أتوا، يبدو أنهم مقطوعون من شجرة».
- «ما الذي جعله حسب اعتقادك يفعل هذه الفعلة؟»
- «هذا يحيرني. مجرد قذارة».
- «يجب عليهم أن يخرجوها من المدرسة».
- «يجب ذلك، إنها تتحمل بعض المسؤولية أيضاً»
- «على مهلك. إنها في الثانية عشر فقط أو مايقارب ذلك»
- «أي. ولكنك لاتعرفين. لماذا لا تقاومه؟»
- «ربما فعلت ذلك».
- «نعم؟ أنت لا تعرفين شيئاً».
- «حسناً، ربما مات الوليد. يقولون إن أمها ضربتها بطريقة ستكون محظوظة لو أنها عاشت بعدها».
- «ستكون محظوظة إذا مات الوليد فمن الحتمي أنه سيكون أقرب مخلوق على الأرض».
- «وماذا نعمل يجب أن يكون هناك قانون: شخصان قبيحان يلتقيان على ذلك النحو؟ لينجبا مزيداً من القبح. كان من الأفضل أن يكونا تحت الأرض».
- «حسناً، لأبالي قيد ذرة بذلك، معجزة أن تعيش».
لم تستمر دهشتنا وقتاً طويلاً، فقد حل محلها نوع غريب من الدفاع الممزوج بالحياء. كنا مرتبكتين بسبب بيكولا، مجروحتين من أجلها. وأخيراً شعرنا فقط بالحزن من أجلها. طرد الحزن من رأسينا كل أفكارنا عن الدراجة الجديدة، وأعتقد أن حزننا كان شديداً جداً لأن أي شخص آخر، كما بدا، لم يشاركنا إياه.

كانوا مشمئززين، متندرين، مصدومين، حانقين وحتى مستثارين بالقصة. سمعنا أحدهم يقول مرة: «يا للفتاة الصغيرة المسكينة» أو «يا للطفلة المسكينة»، ولكن لم تكن هناك سوى هزة رأس حيث ينبغي أن تكون تلك الكلمات. وببحثنا عن عيون مرهقة من القلق، ولكن لم نر سوى براقع. فكرت بالطفل الذي أراد الكلى ميتاً، ورأيته بوضوح في مكان مظلم رطب، كان رأسه مغطىً بقطعة كبيرة من الصوف، والوجه الأسود يحمل، عيينين سوداوين صافيتين كالنئيل، والأنف الأقطس، والشفاه الغليظة اللثامه. لاشراشيب اصطناعية صفراء معلقة فوق عيون زرقاء زجاجية، ولا أنف مضغوط، ولا أنف معقود.

شعرت بحاجة لأن أجد شخصاً يريد الحياة للطفل الأسود بقوة أكبر من محبتي لبيكولا - فقط لمعادلة الحب الكوني لدمى الأطفال البيض، شيرلي تامل، ومورين بيلز. ولابد أن فريدا شعرت بالشيء نفسه. لم نفكر بحقيقة أن بيكولا لم تكن متزوجة. ولكن هناك كثير من الفتيات يمكن أن أطفالاً وهن غير متزوجات، ولم نفكر ملياً في كون أب الطفل هو أب بيكولا أيضاً. إن عملية امتلاك طفل من قبل أي ذكر هي عملية غير مفهومة لنا - إنها، في الأقل، تعرف أباه. فكرنا، فقط، في هذه الكراهية المدمرة لطفل لم يولد. تذكرها السيدة بريدلوف وهي تضرب بيكولا، وتمسح دموع تلك الطفلة الدمية التي تصوت مثل باب ثلاثتنا. تذكرنا العيون الذاعنة لتلاميذ المدرسة تحت تأثير تحديقة مرنغ باي، والعيون نفسها عندما تنظر إلى بيكولا. أو ربما لم نتذكر. عرفنا فقط دافعنا عن أنفسنا ضد كل شيء وكل شخص، واعتبرنا كل كلام شفرة يجب أن نحلها، وكل إشارة خاضعة للتحليل. أصبحنا عنيدتين، مراوغتين، متعجرفتين. لم يعرنا أحد أي اهتمام، فركزنا اهتمامنا على أنفسنا. كان حجمنا العقبة الوحيدة أماننا، يعطينا الناس أوامر لأنهم أضخم منا وأقوى. ولذلك قررنا بكل ثقة، مدعومة بالشفقة والكبرياء، أن نغير مجرى الأحداث، ونبدل مسار حياة بشرية.

- «ماذا سنفعل يافريدا؟»

- «ماذا نستطيع أن نفعل؟ قالت الآنسة جونسون أن بقاءه على قيد الحياة معجزة».

- «إذن دعينا نقم بمعجزة»

- «نعم، ولكن كيف؟»

- «نستطيع أن نصلي».

- «هذا ليس كافياً. هل تذكرين آخر مرة مع الطير؟»

- «الأمر مختلف. كان الطير نصف ميت حينما وجدناه».

- «لا يهمني هذا. علينا أن نعمل شيئاً أقوى هذه المرة»

- «دعينا نسأله أن يُبقي طفل بيكولا حياً ونوعده أن نكون فتاتين صالحتين لفترة شهر كامل».

- «حسناً. ولكن من الأفضل أن نتنازل عن شيء حتى يعرف أننا كذلك حقاً هذه المرة».

- «نتنازل عن ماذا؟ نحن لانملك شيئاً. لاشيء ماعدا فلوس البذار دولاران».

- «نستطيع أن نضحي بهما، أو. هل تعرفين؟ نستطيع أن نتنازل عن الدراجة. ندفن النقود.. ونزرع البذار».

- «كل مانملك من مال؟»

- «كلوديا، هل تريدان أن تفعلنا ذلك أم لا؟»

- «حسناً.. كنت أفكر فقط.. حسناً».

- «علينا أن نفعل ذلك الآن بالضبط. سندفن النقود جنب بيتها، حتى لا يكون بإمكاننا أن نذهب إليها ثانية ونستخرجها، ونزرع البذور خلف بيتنا حتى نستطيع مراقبتها، وعندما تنمو سنعرف أن كل شيء على مايرام. جيد؟»

- «جيد. دعيني فقط أغني هذه المرة. وقولي أنت الكلمات السحرية».

انظر انظر صديق يأتي الصديق
سيلعب مع جين سيلعبون
مع جين لعبة جيدة إلعبى جين
- كم مرة في الدقيقة تنعمين النظر في ذلك الشيء العتيق؟
- لم انظر لفترة طويلة
- أنت فعلت أيضاً...
- وماذا يعني؟ أستطيع أن انظر إذا أردت ذلك.
- لم أقل أنك لاتستطيعين، إني فقط لأعرف لماذا يجب أن تنظري كل
دقيقة. إنها لن تذهب إلى أي مكان آخر
- أعرف ذلك. إني أحب أن أنظر فقط.
- تخافين إنها ربما تنصرف
- بالطبع لا، كيف بإمكانها ذلك؟
- الأخرى قد اختفت
- لم تختف. لقد تغيرت
- ذهبت أو تغيرت. ما الفرق؟
- فرق كبير، قال السيد سوفيد أنها تدوم للأبد.
- للأبد، للأبد. آمين؟
- نعم، إذا أردت معرفة ذلك.
- لاتكوني مغرورة كثيراً عندما تتحدثين معي.
- لست مغرورة. أنت بدأت ذلك.
- أردت فقط أن أفعل شيئاً آخر بينما أنت تتأملين نفسك في المراة أنت
غیورة فقط.

- لست غيورة.
- بل غيورة. ترغبين لو أنك تملكينها.
- ها. كيف سأبدو بعيون زرقاء؟
- ليس شيئاً عظيماً.
- إذا استمررت في ذلك ، فسأخرج وحدي.
- لا. لا تذهبي. ماذا تريدان أن تفعلني؟
- نستطيع أن نخرج ونلعب.
- ولكن الجو حار جداً.
- تستطيعين أن تأخذي مراكبك معك. تضعينها في جيب السترة، وتستطيعين أن تنظري إلى نفسك وأنت في الشارع.
- آه! لم أعتقد قط أنك غيورة إلى هذه الدرجة.
- أوه، تعالي.
- أنت
- أنا ماذا؟
- غيورة.
- حسناً. أنا غيورة.
- أنا قلت لك ذلك.
- لا، أنا قلت لك ذلك.
- هل هي جميلة حقاً؟
- نعم، جميلة جداً.
- «جميلة جداً» فقط؟
- عن حق وحقيق جميلة جداً.
- عن حق وحقيق جميلة جداً.
- آه يا إلهي، أنت مجنونة.

- لست مجنونة.
- لم أعن بهذا الشكل.
- حسناً، ماذا عنيت؟
- تعالي، الجو حار هنا.
- انتظري دقيقة. لأستطيع أن أجد حذائي.
- إنه هنا.
- أوه، شكراً
- تأخذين مرآتك معك؟
- نعم يا عزيزتي...
- حسناً، دعينا نذهب إذن.. أوه!
- ما الأمر؟
- الشمس قوية جداً. أنها تؤذي عيني.
- إنها لا تؤذي عيني. حتى أنهما لا تطرفان. أستطيع أن انظر إلى الشمس مباشرة .
- لا تفعلي ذلك.
- لماذا لا؟ أنها لا تؤذي، حتى إنني لست مضطرة أن أرمش عيني.
- ولكنك ترمشين على أية حال. تجعليني أشعر أنني مضحكة وأنا انظر إلى الشمس بهذه الطريقة.
- كيف تشعرين أنك مضحكة؟
- لا أعرف.
- لا، أنت تعرفين.
- أخبرتك، لأعرف.
- لماذا لا تنظرين في وجهي عندما تقولين ذلك؟ أنت تتكلمين معي وعيناك منخفضتان مثل السيدة بريدلوف
- السيدة بريدلوف تتكلم معك وعيناها منخفضتان؟

- نعم، أنها تفعل ذلك الآن. منذ أن امتلكت عينين زرقاوين، وهي تشيح ببصرها عني. دائماً هل تعتقدين أنها غيورة أيضاً؟
- ربما، فعينك جميلتان كما تعرفين.
- أعرف، لقد قام بعمل رائع حقاً. الكل غيورون.
- كل شخص انظر إليه، يغض بصره.
- لهذا السبب لم يخبرك أحد كم أن عينيك جميلتان؟
- بالتأكيد هذا هو السبب. هل تستطيعين تصور ذلك؟ يحدث شيء مثل هذا لشخص، ولا أحد يخبره شيئاً حوله؟ إنهم يحاولون أن يتظاهروا بأنهم لم يرونها. أليس هذا مضحكاً؟ أقول أليس هذا مضحكاً؟
- نعم.
- أنت الشخص الوحيد الذي يقول لي كم هما جميلتان.
- نعم.
- أنت صديقة حقيقية. أنا آسفة لأنني أسأت إليك عندما قلت لك أنت غيورة.
- لا، أبداً.
- لا، لقد أسأت إليك. أنت أفضل صديقة لي. لماذا لم أعرفك من قبل.
- لم تحتاجيني من قبل.
- لم أحتاجك؟
- أعني..كنت تعيسة من قبل. أعتقد أنك لم تحتاجني سابقاً.
- أعتقد أنك محقة. وحشني الأصدقاء كثيراً. أنت محقة بخصوص هذه النقطة، قبل أن أمتلك عيني الزرقاوين.
- لا يا حبيبتي، بعد أن امتلكت عينين زرقاوين.
- ماذا؟
- ماهو رأي مورين بعينيك؟
- لم تقل أي شيء. هل قالت لك شيئاً حولهما؟
- لا، لا شيء.

- هل تحبين مورين؟

- آه، لا بأس بها، لا بأس بالنسبة لفتاة نصف بيضاء أعرف ماذا تعنين.
ولكن هل تحبين أن تصبحي صديقتها؟ أعني هل تحبين أن تتجولي معها
هنا وهناك؟

- لا.

- ولا أنا. ولكن لها شعبية بالتأكيد.

- من يحب أن يكون شعبياً؟

- ليس أنا.

- ولا أنا.

- ولكنك لاتستطيعين أن تكوني شعبية، فأنت لاتذهبين حتى إلى
المدرسة.

- وأنت كذلك.

- أعرف. ولكنني كنت أذهب إلى المدرسة.

- لماذا توقفت؟

- لقد أوقفوني.

- من أوقفك؟

- لا أعرف، بعد ذلك اليوم الأول في المدرسة عندما امتلكت عينيّ
الزرقاوين. في اليوم التالي استدعوا السيدة بريدلوف. والآن لأذهب إلى أي
مكان. ولكنني لا أهتم.

- لاتهتمين؟

- لا، لا أهتم. إنهم متحاملون عليّ. هذا كل ما في الأمر.

- نعم، إنهم متحاملون عليك بالتأكيد.

- فقط لأنني أملك عينيّن زرقاوين، أكثر زرقة من عيونهم. إنهم
متحاملون.

- هذا صحيح.

- عيناى أكثر زرقة. أليس كذلك؟

- أوه، أكثر زرقة بكثير.
- أكثر زرقة بكثير.
- أكثر زرقة من عينيّ جوانا؟
- أكثر زرقة من عينيّ ميشيلينا؟
- أكثر زرقة بكثير.
- أعتقد ذلك. هل قالت لك ميشيلينا شيئاً حول عينيّ؟
- لا، لاشيء.
- وهل قلت أنت لها شيئاً؟
- لا.
- كيف ذلك؟
- ماذا كيف ذلك؟
- كيف لم تخبري أي شخص؟
- تحدثت معك أنت.
- بالإضافة إليّ.
- أنت الوحيدة التي أحبها.
- أين تسكنين؟
- أخبرتك مرة.
- ما اسم أمك؟
- لماذا تتدخلين في شؤوني؟
- إني اتساءل فقط. أنت لا تتحدثين لأيّ شخص. لاتذهبين إلى المدرسة.
- ولا أحد يتحدث إليك.
- كيف تعرفين أنه لا يتحدث معي أحد؟
- إنهم لا يتحدثون معك. حتى السيدة بريدلوف لا تتحدث معك عندما تكونين معي في البيت. أبدأ، واتساءل أحياناً إذا كانت تراك .
- لماذا لاتراني؟
- كذلك؟ - لا أعرف. إنها تعاملك بازدراء تقريباً.

- ربما إنها ليست بحالة جيدة منذ رحيل كولي.
- أوه، نعم، لابد أنك محقة.
- على الأغلب إنها تفتقده.
- لا أعرف لماذا. كل ما كان يفعله هو أن يسكر ويضربها.
- أنت تعرفين كم كانا كبيرين.
- نعم، لا، كيف كانا؟
- حسناً، على الأرجح أنها كانت تحبه.
- هو؟
- بالتأكيد، لم لا؟ وعلى أية حال، إذا لم تكن تحبه، لِمَ دعتَه يفعل ذلك معها.
- هذا لا يدل على شيء.
- كيف تعرفين.
- كنت أراهم طوال الوقت. لم تكن تحب ذلك.
- إذن، لماذا كانت تدعه يفعل ذلك معها؟
- لأنه كان يجبرها.
- كيف يمكن أن يجبرك أي شخص على فعل مثل هذا الشيء؟
- شيء بسيط.
- أوه، نعم؟ كيف بسيط؟
- يجبرونك على ذلك، هذا كل ما في الأمر.
- أعتقد أنك محقة. وكولي يستطيع أن يجبر أي شخص على القيام بذلك.
- لا، لا يستطيع.
- ولكنه عملها معك؟ أليس
- إخرسي!
- حسناً، حسناً.
- لقد حاول فقط، ألا تفهمين؟ لم يفعل أي شيء. هل تسمعينني؟

- لقد خرس! -
- دائماً تتحدثين أحاديث بذيئة. وعلى أية حال، من قال لك ذلك؟ -
- نسيت! -
- سامي؟ -
- لا، أنت أخبرتني. -
- لم أخبرك. -
- أخبرتني. قلت أنه حاول أن يفعلها معك عندما كنت نائمة على الأريكة. -
- انظري! أنت لاتعرفين حتى عما تتكلمين. حدث ذلك عندما كنت أغسل الصحون. -
- أوه، نعم، الصحون. -
- كنت أغسلها بنفسي. في المطبخ. -
- أنا سعيدة لأنك لم تسمح لي أن يفعل ذلك. -
- نعم. -
- هل، هل فعلت؟ -
- فعلت ماذا؟ -
- سمحت له. -
- الآن، من المجنونة؟ -
- اعتقد أنها أنا. -
- أنت بالتأكيد. -
- هل ما يزال... -
- استمري، ما يزال ماذا؟ -
- أتساءل كيف تبدو العملية؟ -
- مرعبة. -
- حقاً؟ -
- نعم. مرعبة -

- إذن لماذا لم تخبري السيدة بريدلوف.
- لقد أخبرتها.
- لا أعني في المرة الأولى. أعني في المرة الثانية عندما كنت نائمة على الأريكة.
- لم أكن نائمة. كنت أقرأ.
- لاجاجة للصراخ.
- أنت لاتفهمين أي شيء. إنها حتى لم تصدقني حين أخبرتها بذلك.
- وهل هذا هو السبب أنك لم تخبريها حول المرة الثانية؟
- ماكانت لتصدقني حينها أيضاً.
- أنت محقة. لاتوجد فائدة من إخبارها عندما لاتصدقك.
- هذا ما أحاول أن أوصله لدماغك الثخين.
- حسناً، فهمت الآن، تقريباً.
- ماذا تعنين بـ«تقريباً»؟
- أنت حقيرة هذا اليوم.
- أنت تستمرين بقول أشياء حقيرة وجبانة. كنت أتصور أنك صديقتي.
- أنا صديقتك، صديقتك.
- إذن لاتذكري شيئاً بخصوص كولي.
- حسناً، حسناً.
- على أية حال، لا يوجد شيء أكثر يمكن قوله حوله، فقد ذهب.
- نعم، تخلصنا منه.
- نعم، تخلصنا منه.
- وسامي ذهب أيضاً.
- وسامي ذهب أيضاً.
- لاتوجد جدوى في الحديث عن ذلك. أقصدهم.
- لاتوجد جدوى أبداً.
- كل شيء انتهى الآن.

- نعم.
- وليس عليك أن تخافي أن ينالك كولي.
- لا.
- كان أمراً مربعاً، أليس كذلك؟
- نعم.
- المرة الثانية أيضاً؟
- نعم.
- حقاً؟ المرة الثانية أيضاً؟
- اتركيني وحدي. من الأفضل أن تتركيني وحدي.
- ألا تتحملين نكتة؟ كنت أمزح فقط.
- لأحب الحديث عن الأشياء البذيئة.
- وأنا كذلك. لنتحدث عن شيء آخر.
- عن ماذا؟ عن أي شيء سنتحدث؟
- عن عينيك.
- أوه، حسناً، عن عيني. عن عيني الزرقاوين. دعيني أنظر ثانية.
- انظري كم هما جميلتان.
- نعم، يصبحان أكثر جمالاً كلما نظرت إليهما.
- إنهما أجمل عينيْن رأيتهما في حياتي.
- حقاً؟
- أوه، نعم.
- أكثر جمالاً من السماء؟
- أوه، نعم. أكثر جمالاً بكثير من السماء.
- أجمل من عيون أليس وجيري في قصص الأطفال؟
- أجمل من عيون أليس وجيري في قصص الأطفال.
- أجمل من عيون جوانا؟
- أوه، نعم، وأكثر زرقة.

- أكثر زرقة من عيون ميشيلينا؟

- نعم.

- متأكدة؟

- بالطبع متأكدة.

- يبدو أنك غير متأكدة...

- حسناً، أنا متأكدة، ماعدا...

- ماعدا ماذا؟

- أوه، لاشيء. كنت أفكر بسيدة رأيتها أمس عيناها زرقاوان. ولكن

لا. ليس أكثر زرقة من عينيك.

- متأكدة؟

- نعم. أتذكرهما الآن. عيناك أكثر زرقة.

- أنا سعيدة.

- أنا أيضاً. أكره أن أعتقد أن هناك أي شخص هنا يملك عيني أكثر

زرقة من عينيك. أنا متأكدة أنه لا يوجد أي شخص. على أية حال، ليس حوالينا.

- ولكنك لاتعرفين، هل تعرفين؟ أنت لم تري كل الناس هنا، أليس

كذلك؟

- لا، لم أر كل الناس.

- إذن ربما هناك شخص.

- غير ممكن.

- ولكن ربما. ربما. أنت قلت «حوالينا». من الأرجح أن لا أحد حولنا

يملك عيني أكثر زرقة. ولكن ماذا في مكان آخر؟ حتى لو كانت عيوني

أكثر زرقة من عيون جوانا. وأكثر زرقة من عيون ميشيلينا، وأكثر زرقة من

عيون السيدة التي رأيتها أمس، هل تفترضين أن هناك شخصاً ما في مكان

ما ذو عيون أكثر زرقة من عيوني؟

- لاتكوني حمقاء.

- ولكن قد يكون هناك شخص. هل ممكن أن يكون هناك شخص؟
- غير ممكن.

- ولكن افترضني. افترضني في مكان بعيد. في «سينسيناني»، مثلاً، هناك شخص بعينين أكثر زرقة من عيوني؟ افترضني أن هناك «شخصين» عيون أكثر زرقة من عيوني؟
- وماذا يعني ذلك؟ لقد طلبت عيوناً زرقاء. وحصلت على عيون زرقاء.

- كان ينبغي عليه أن يجعلهما أكثر زرقة؟
- من؟

- السيد سوفيد.

- هل قلت له أي لون أزرق تريدني؟

- لا، لقد نسيت.

- أوه، حسناً.

- انظري، انظري هناك، إلى تلك الفتاة. انظري إلى عينيها. هل هما أكثر زرقة من عيني؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

- هل نظرت جيداً؟

- نعم.

- أتى شخص آخر. انظري إليه. انظري إذا كانت عيناه أكثر زرقة.

- أنت حمقاء. لن أنظر إلى عيون كل شخص يمر.

- ينبغي أن تفعلي.

- لا، لن أفعل.

- رجاء، إذا كان هناك شخص بعينين أكثر زرقة من عيني، فهذا يعني أنه ربما هناك شخص يملك العينين الأكثر زرقة، العينين الأكثر زرقة في العالم كله.

- أصبح الأمر سخيفاً، أليس كذلك.

- رجاء ساعديني أن اكتشف ذلك.
- لا.
- ولكن افترضني أن عينيّ ليستا زرقاوين بما فيه الكفاية.
- بما فيه الكفاية لأي شيء؟
- زرقاوان بما فيه الكفاية لـ... لا أعرف، زرقاوان بما فيه الكفاية
- لشيء ما، ما فيه الكفاية... لك!
- لن ألعب معك أكثر من ذلك.
- أوه، لا تتركيني.
- نعم، سأتركك.
- لماذا؟ هل أنت غاضبة عليّ؟
- نعم.
- لأن عينيّ ليستا زرقاوين كفاية؟ لأنني لا أملك العينين الأكثر زرقة؟
- لا، لأنك تتصرفين بحماقة.
- لاتذهبي. لاتتركيني. هل تعودين إذا حصلت عليهما؟
- إذا حصلت على ماذا؟
- على العينين الأكثر زرقة. هل تعودين حينئذٍ؟
- بالطبع، سأعود. سأذهب لفترة قصيرة فقط.
- تعديني بذلك؟
- بالتأكيد. سأعود. سأكون فوراً أمام عينيك الزرقاوين بالضبط.
- وهكذا كان.
- فتاة صغيرة سوداء تتهلف على العينين الزرقاوين لفتاة صغيرة بيضاء
- والرعب في صميم هذه اللهفة لاتفوق سوى مصيبة تحقق ذلك.
- كنا، فريداً وأنا، نراها أحياناً بعد أن جاء الطفل قبل أوانه، ومات،
- بعد النسيمة وهزّات الرؤوس البطيئة. كان من المحزن جداً أن نراها. أشاح
- الكبار أبصارهم عنها، وضحك الأطفال - أولئك الذين لم يكونوا مرتعبين
- منها - علناً عليها.

كان الضرر شاملاً. قضت أيامها، أيامها الذاوية، ماشية جثية وذهاباً، جثية وذهاباً ورأسها يهتز استجابة لضربات طبلٍ بعيد جداً لاتسمعه إلا هي. كانت تحرك ذراعيها مثل مدراسين، ومرفقاًها منحنيان ويداها على الكتفين، كطائر يجهد أن يطير في محاولة لانهائية باعثة على السخرية، وبلا جدوى. يضرب الهواء، طائر ذو جناحين ولكنه مسمر بالأرض، يروم فضاء أزرق لا يستطيع أن يصله - ولا يستطيع حتى أن يراه - ولكنه يملأ تجاويف رأسه.

حاولنا أن نراها دون أن ننظر إليها، ولم نقرب قط، منها. ليس لأنها معتلة العقل، أو منفرة، أو أننا نخاف منها، لأننا خذلناها. لم تنم زهورنا قط، اقتنعت أن فريدا كانت محقة، وأنني قد زرعتها عميقاً في الأرض أكثر مما ينبغي. كيف كنت مهملة بهذا الشكل؟ وهكذا تجنبنا بيكولا بريدلوف - للأبد.

وانطوت السنوات مثل منديل. ترك سامي المدينة منذ وقت طويل، ومات كوي في ملجأ للفقراء، وماتزال السيدة بريدلوف تقوم بأعمالها المنزلية. أما بيكولا فهي في مكان ما في ذلك البيت الرمادي الصغير الواقع في أطراف المدينة، الذي انتقلت إليه هي وأمها، حيث يستطيع المرء أن يراها بين فترة وأخرى، تطلع عبّاد الشمس أو تلتقط إطارات العجلات، بين قناني الكولا والصقلاب، وسط كل نفايات وجمال العالم - الذي كائنه هي نفسها. كل نفاياتنا التي أفرغناها عليها وامتصتها. وكل جمالنا الذي كان ملكها أولاً وأعطته لنا، كلنا - كل من عرفها - شعر بالراحة بعدما فرغنا أحشاءنا فوقها. كنا نشعر أننا جميلون جداً عندما كنا نقف ونتنفّج على قبّحها. بساطتها زخرفتنا، وذنبيها كرمنا، وجعلنا ألماً نتورد صحة، وجعلتنا حيرتها نظن أننا نملك روح الدعابة عيها جعلنا نعتقد أننا بليغون. فقرها جعلنا كرماء. وحتى أحلام يقظتها استخدمناها - لإخراس كوابيسنا. وهي دعتنا نفعل وبذلك استحققت احتقارنا. شحذنا ذواتنا بذاتها، وحشونا شخصياتنا بهشاشتها، وفغرنا أفواهنا في وهم قوتنا.

وكان هذا الوهم، لأننا لم نكن أقوياء، عدائياً. لم نكن أحراراً، بل لاسمولين، لم نكن عطوفين بل كيّسين، ولسنا طيبين، بل حسني السلوك راودنا الموت حتى ندعو أنفسنا شجعان، واختبأنا، من الحياة، كاللصوص. استبدلنا القاعدة الجيدة بالقطنة، حولنا العادات إلى نضج زائف، أعدنا ترتيب الأكاذيب وسميناها الحقيقة، رأينا في القالب الجديد لفكرة قديمة الكشف والكلمة

على أية حال، اندفعت نحو الجنون، الجنون الذي حماها منا لأنه، ببساطة، كان يضجراً.

أوه. أحبها بعضنا. أحبها ماجينو لاين، وأحبها كولي. أنا متأكدة أنه أحبها. إنه، على أية حال، الوحيد الذي أحبها درجة لمسها، وتطويقها، وإعطائها شيئاً منه. ولكن لمسته كانت مميتة، والشيء الذي أعطاه إياه ملأ نسيج احتضارها بالموت. الحب يكون دائماً على شاكلة المحب. فالناس الشريريون يحبون بشر، والعنيفون يحبون بعنف، والضعفاء يحبون بضعف، والأغبياء يحبون بغباء، ولكن حب رجل حرّ ليس مأموناً أبداً. لا توجد هناك هبة للمحبوب. المحب وحده يملك هبته من الحب. المحبوب يُجرّ، يُبطل، يُجمد في جليد عين المحب الداخلية.

والآن عندما أراها تبحث في النفايات — عن ماذا؟ عن الشيء الذي اغتلتناه؟ أتحدث عن عدم زراعتنا البذور عميقاً، وكيف أن ذلك كان خطأ الأرض، والتربة، وخطأ مدينتنا. أفكر حتى بأن أرض البلاد كلها كانت عدائية تجاه أزهار القطيفة تلك السنة. هذه التربة غير صالحة لهذا النوع من الأزهار. إنها لن ترعى بذوراً معينة، ولن تحمل فاكهة معينة، وحين تقتل الأرض خيارها هي، فإننا نذعن ونقول أن الضحية لم يكن من حقها أن تعيش. نحن، بالطبع، مخطئون، ولكن ذلك لا يهم. فات الأوان، على الأقل، في أقصى أطراف مدينتي، بين النفايات وعباد الشمس في مدينتي، فات الأوان كثيراً، كثيراً، كثيراً.



بهذه الرواية بدأت توني موريسون مسيرتها الروائية عام ١٩٧٠ وهي تقترب من الأربعين، وقد صدرت بعد روايتها هذه مجموعة من الروايات: سولا (١٩٧٤) أغنية سليمان (١٩٨٧). طفل القطران (١٩٨١) محبوبة (١٩٨٧) — وجاز (١٩٩٢). بالإضافة إلى أعمالها الأخرى.

وقد ورد في حيثيات حكم اللجنة الملكية السويدية التي منحت موريسون جائزة نوبل (١٩٩٣) أن هذه الروائية الأمريكية قد بعثت الحياة في جانب هام من الواقع الأمريكي في رواياتها المتميزة بالخيال الجامح والمضمون الشعري.

تقول توني موريسون محددة هدفها من الكتابة: «كنت مهتمة بقراءة كتاب لم أستطع إيجاده، وأصبح مهماً جداً أن أكتبه ثم أقرأه! وأدركت وأنا أكتبه أنني أخطأت. كنت مقتنعة أن كل ما كنت أريد أن أقرأه قد كتب، وأدركت أن ذلك لم يكن صحيحاً».

وقد قال عنها مارتن سيمون في «دليل الأدب العالمي» أنها أهم روائية سوداء في أمريكا منذ رالف إليسون.